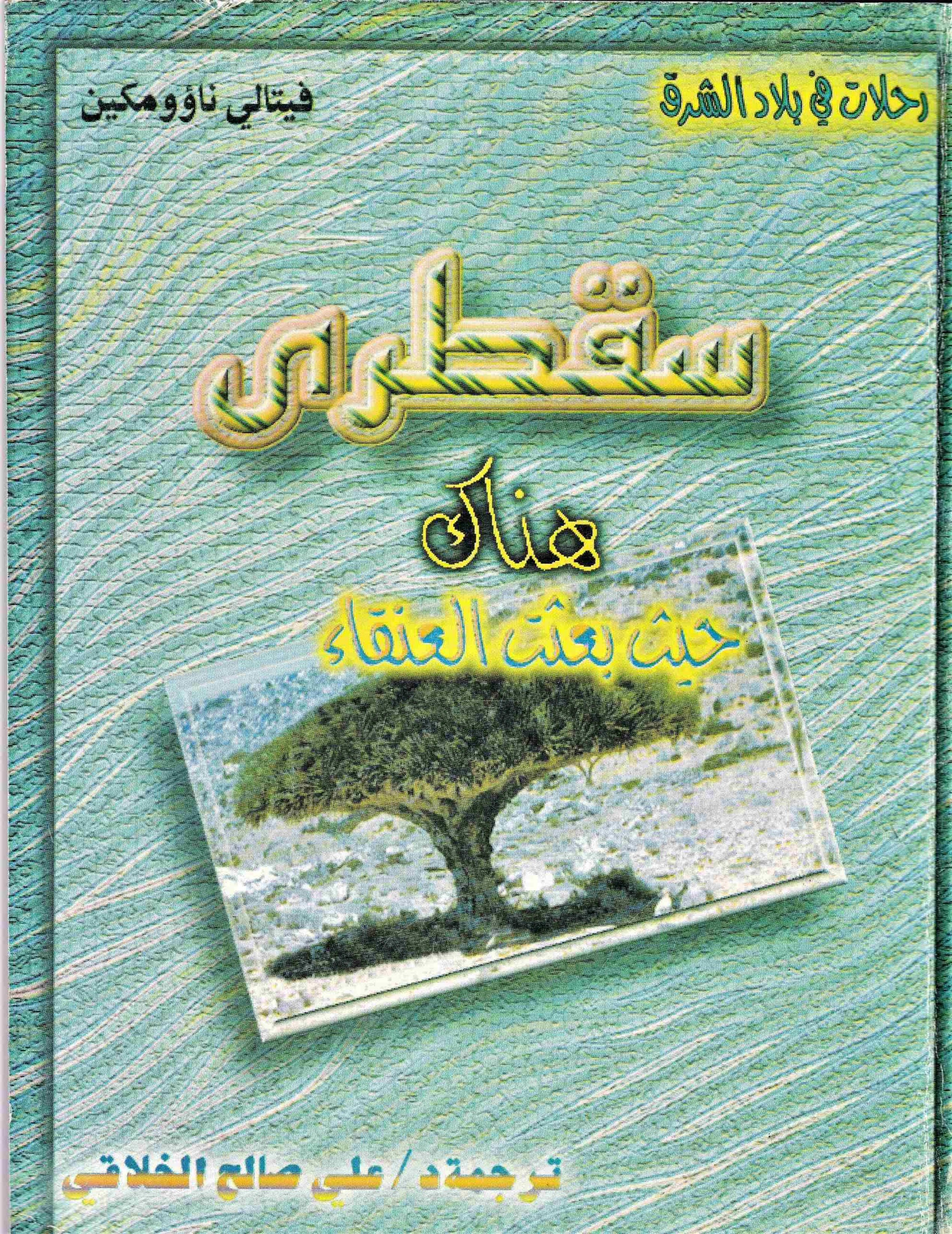

رحلات في بلاد الشرق
فيتالي ناؤومكين
سقطرى
هناك
حيث بعث العنقاء
ترجمة د / علي صالح الخلاقي

رحلات في
بلاد الشرق

فيتالي ناؤومكين

سقطرى

هناك، حيث بُعث العنقاء

ترجمة : د. علي صالح الخلاقي

الطبعة الأولى
رقم الإيداع في المكتبة الوطنية ١١٦



الجمهورية اليمنية . عدن . مدينة الشعب . ص . ب . ١١٠١٦ ☎ ٣٦٠٠٨٧ – ٣٦٠١٣٥ فاكس:٣٦٠٠٨٢

REPUBLIC OF YEMEN. ADEN. MADINAT AL – SHAAB P . O . BOX 11016 ☎ 360087-36135 FAX :360082

كلمة لابد منها

هذا الكتاب الذي نقدمه (سقطرى ...هناك حيث بعثت العنقاء) لمؤلفه المستشرق الروسي المعروف فيتالي ناؤومكين، هو باكورة أبحاث ودراسات لاحقة له عن سقطرى منها (دراسات اثنوغرافية – لغوية عن سقطرى) و (السقطريون) وهذا الأخير هو أهم أعماله المكرسة لسقطرى، أجمل فيه حصيلة بحثه العلمي الدائب، النظري والميداني منذ مطلع السبعينات وحتى صدوره عام ١٩٨٨م في موسكو باللغة الروسية، وقد ترجم إلى الإنجليزية وصدر في لندن عام ١٩٩٣م، قبل أن نتعرف عليه باللغة العربية.

المصادفة الطيبة وحدها أوقعت في يدي هذه المؤلفات القيمة عن سقطرى وغيرها من المؤلفات الروسية التي تعرضت لليمن، وذلك خلال بحثي عنها في مكتبات موسكو بدافع حب الإطلاع والتعرف على ما قاله ويقوله الآخرون عنا وعن بلادنا اليمن، وبشكل خاص تلك المؤلفات ذات الصبغة التاريخية، التي تناولت الحقب الماضية من تاريخ بلادنا، بعين مشاهدة وشاهدة على تلك الفترات المظلمة التي عاشتها بلادنا في عزلة عن العالم تحت حكم الأئمة المباد والمستعمرين الدخلاء، ومثل هذه المؤلفات كثيرة في دول الغرب كما في روسيا كذلك، ورغم اختلاف مؤلفيها وتباين الأهداف التي توخوها من كتابتها، فأنها تعد بالنسبة لنا شهادات نادرة ومفيدة وبعين محايدة، وربما معادية أو صديقة في بعض الأحيان، ولكنها ذات أهمية للباحثين والمهتمين وللقراء عموماً.

ومؤلف الكتاب الذي نقدمه عاشق لسقطرى خاصة، ولبلادنا عامة، وليس أدل على ذلك من هذه الإصدارات الثلاثة المكرسة لسقطرى وحدها، ناهيك عن الأبحاث والدراسات التي صدرت في الدوريات الروسية وغيرها، وقد أصبت بالدهشة حين وقعت في يدي الثلاثة الكتب المشار إليها، وعلى الفور تذكرت إفتقار مكتباتنا الوطنية لمثل هذه المؤلفات، بل ولم أنس حتى اللحظة الصعوبة التي واجهتها في الحصول على معلومات تاريخية وتفصيلية عامة عن الجزيرة، عند زيارتي الأولى لها نهاية عام ١٩٧٩م، تدعم الاستطلاع الذي نشرته عنها في صحيفة (١٤ أكتوبر) في مطلع يناير ١٩٨٠م، إذ لم أجد حينها سوى النزر القليل من المعلومات المتناثرة، التي لا تسمن ولا تغني، ولربما كان هذا هو الحافز الرئيسي الذي دفعني الى الإقدام على خوض تجربة الترجمة، لتعميم الفائدة، ولسد الفراغ، أو الفقر الذي تعانيه مكتباتنا عن سقطرى حتى الآن، والتي لا تتجاوز معلوماتنا عنها ماورد في الكتب المدرسية

والتحقيقات الصحفية السيارة، وكمحاولة أولى بدأت بأولى مؤلفات ناؤومكين عن سقطرى، وفيه يجد القارئ معلومات قيمة عن هذه الجزيرة التي أطلق عليها المؤرخون السابقون واللاحقون مختلف الأوصاف والأسماء :جزيرة الأرواح، جزيرة النعيم، جزيرة البخور والطيوب، جزيرة دم الأخوين، درة البحر العربي أو عروسته، عذراء اليمن ..الخ.

قدمت الكتاب كما هو، دون تدخل من جانبي، اللهم في الحالات البسيطة التي وجدت نفسي مضطراً لتطويع اللغة بغية أداء المعنى، وإضافة بعض الهوامش التي توضح بعض الأسماء والمصطلحات الأجنبية، وأترك للمهتمين وللقراء التمتع بقراءته والغوص من خلاله في تاريخ هذه القطعة العزيزة من بلادنا، الضارب في القدم، والممتد الى القرون التي سبقت الميلاد، حين كانت بلادنا وسقطرى جزءاً منها، واحدة من مراكز الحضارة العالمية ألهامة ، وهذا ما سعى المؤلف الى إبرازه من خلال إطلاعه الواسع وبحثه الجاد في سيل المؤلفات الإغريقية -الرومانية، والعربية والأجنبية، التي لها صلة بجزيرة " دم الأخوين "فضلاً عن دراسته الميدانية والاطلاع المباشر والمكثف على واقع سقطرى ولغة سكانها وتقاليدهم وثقافتهم ونمط حياتهم ...الخ.

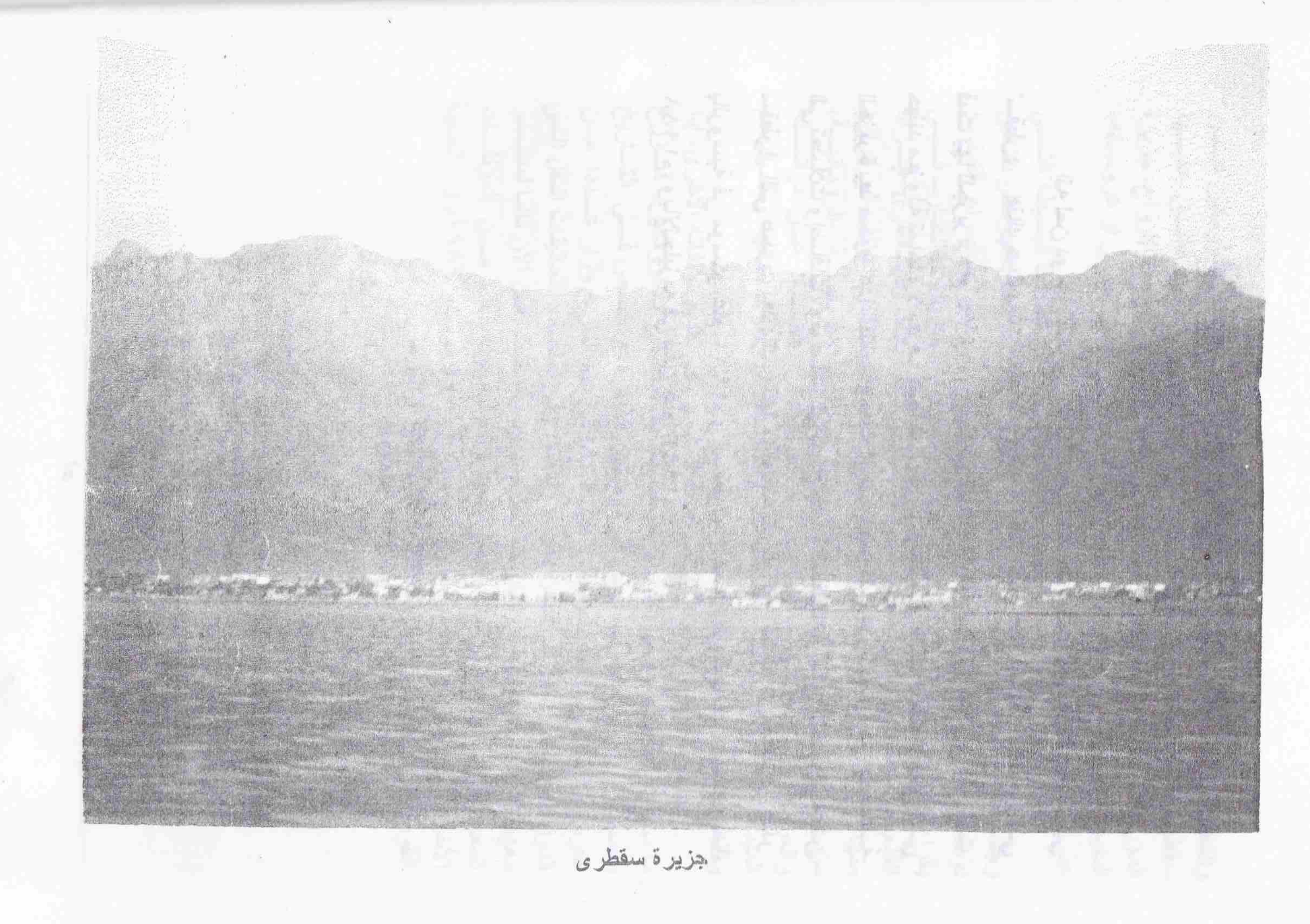
ويحدونا الأمل، أن نوفق في مواصلة المشوار، في تقديم مؤلفاته الأخرى، إذا ما سمحت الظروف .ويبقى القول ان مؤلف الكتاب، فيتالي ناؤومكين، مؤرخ ومستشرق روسي معروف، درس في موسكو والقاهرة، وتخصص في التاريخ العربي والإسلامي واللغة العربية، وعمل أستاذا في علم التاريخ وزار عددا من الدول العربية، واشتغل في اليمن مدرسا وباحثا، وفي منتصف الثمانينات انتقل الى معهد الدراسات الشرقية في أكاديمية العلوم الروسية، حيث يعمل الآن نائبا لمدير المعهد ورئيسا لقسم الدراسات الإستراتيجية والدولية، وله العديد من المؤلفات الأخرى مثل" التاريخ المعاصر للدول العربية" ج-١+٢ موسكو ١٩٨٩م و " الجبهة القومية في النضال من أجل استقلال جنوب اليمن" وغيرها.

د.علي صالح الخلاقي

تقديم الطبعة العربية

إنه لمن دواعي السرور أن اكتب هذه الكلمات مقدمة للطبعة العربية لكتابي "سقطرى ..هناك حيث بعثت العنقاء" وهو أول بحث صدر بعد الزيارة الأولى التي قمت بها للجزيرة عام ١٩٧٤م، ويتضمن المعلومات الأولية عن سقطرى التي كانت حينئذ معزولة تماماً ولا يعرف عنها شئ تقريباً، وحينما واصلت البحث العلمي في الجزيرة بعد صدور هذا الكتاب، وجدت ان كثيراً مما كتب عن الجزيرة كان بحاجة الى تعديلات وإضافات، وتوصلت الى نتائج جديدة ضمنتها مؤلفاتي الأخرى عن سقطرى التي صدرت بعد ذلك، منها "دراسات اثنوغرافية- لغوية عن سقطرى" صدر بالروسية في موسكو عام ١٩٨١م و"السقطريون" صدر بالروسية في موسكو عام ١٩٨٨م، وبالإنجليزية في لندن عام ١٩٩٣م.

فيتالي ناؤومكين
موسكو ١٩٩٥م



جزيرة سقطرى

تقديم الطبعة الروسية

> إذا أصبحت رحالة، فامتلك دائما عيون صقر، وآذان حمار ووجه قرد، ومناكب بعير، وأقدام أيل، وأحيانا لا تتعشم انه يكفيك الصبر والنقود.
>
> فلوريو

تقديم

سقطرى ...هذه الكلمة تثير لدى المستعربين الاختلاج والاهتزاز، مثل شيء قديم، إلى درجة ان وجودها الحقيقي يبدو خياليا.

هناك مشاعر مماثلة تثيرها الأهرامات المصرية، معابد الأقصر والكرنك، بيد انه تعمل هناك صناعة سياحية ضخمة، حولت الآثار القديمة الى خواص مألوفة للتسالي الراهنة، ولذلك فمحل الأختلاج تحل بسرعة مشاعر أخرى.

آما في حالة سقطرى، فأن كل شئ على العكس، فعلى امتداد قرون كثيرة من الزمن، وكأن الزمن يدور في حلقة مفرغة، وكأن ظروف الحياة العتيقة تجمدت هناك بعاداتها وتقاليدها.

وسقطرى – بحد ذاتها محمية لنفائس نباتات وأشجار مراحل تطور المجتمع الإنساني .وهنا يعيش أحفاد شعوب الشرق القديمة، التي شيدت في زمن ما في جنوب جزيرة العرب دولا وحضارة رفيعة، وقليلا ما هو معروف عن تاريخ هذه الدول، وأقل من ذلك ايضا عن شعب سقطرى ولغته ونمط حياته.

ان دراسة العادات والطقوس ومجمل نظام حياة السقطريين يمكن أن يفتح لنا، في الوقت نفسه، صفحات مجهولة في التاريخ العالمي، المرتبط بدور الجزيرة العربية القديم في تطور الحضارة الإنسانية، فدراسة حياة ولغة السقطريين هامة جدا للإجابة على السؤال عن أصل الشعوب السامية واللغات السامية :اللغات العربية الجنوبية ،التي تنتمي اليها اللغة السقطرية، وعلى أقل تقدير دراستها ضمن الساميات الأخرى.

سقطرى – متحف نباتي طبيعي، إذ يمكن أن نجد في ظروفها الطبيعية ما يقارب مئتي نوع من النباتات التي لا نظير لها ولا توجد في مكان آخر .وهناك أيضا الكثير مما يوجب اهتمام علماء الطيور والحشرات، وتكتسب الجزيرة أهمية كبيرة من وجهة النظر الجيولوجية، لأن مجموعاتها الجبلية تعد واحدة من أقدم المجموعات على الكرة الأرضية، ويمكن أن تقدم الحفريات الأثرية والدراسة الكاملة للجزيرة معلومات قيمة، تمكن من الإجابة على كثير من القضايا العلمية المرتبطة بالتاريخ المبكر للأرض والبشرية إجمالا.

تقع جزيرة سقطرى في حوض المحيط الهندي، بين خطي عرض ١٢،١٩°و١٢،٤٢° شمالا وخطي طول ٤٣،٢٠° و٥٤،٣٠°شرقا، وتبعد عن أقرب نقطة في الشاطئ الجنوبي للجزيرة العربية بحوالي ٣٠٠ كم، وعن الشاطئ الشرقي لإفريقيا (رأس جفاردفوي)اكثر من ٢٠٠ كم .ورأس جفاردفوي هو أقرب نقطة برية الى سقطرى، وقد كانت سقطرى والجزر القريبة منها، مرتبطة بهذا الرأس، في العصور الجيولوجية القديمة .

إن مساحة سقطرى (لم تقاس بعد بدقة) تشكل من ٤١٥٠ الى ٥١٠٠ كم٢، وتمتد سقطرى من الشرق الى الغرب ١٢٠ كم طولا، ومن الشمال الى الجنوب ٣٥كم عرضا.

منذ ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧م، يوم تحرير جنوب اليمن من السيطرة الاستعمارية البريطانية، دخلت سقطرى قانونيا كمديرية ضمن الدولة الناشئة في جنوب اليمن (ج. ي. دش).

المسافة من مدينة عدن الى سقطرى ٨٠٠ كم، ومن مدينة المكلا، اكبر ميناء في شرق اليمن، حوالي ٤٨٠ كم، وتقع الى الغرب من سقطرى، في منتصف الطريق بينها وبين رأس جفاردفوي، جزيرة عبد الكوري، وهناك أيضا جزيرتان صغيرتان تقعان بين عبدالكوري وسقطرى، هما درسة وسمحة، ويطلق عليها أسم "الشقيقتان" ، وجزر أخرى صغيرة جدا، وعبد الكوري هي المأهولة بالسكان من بين هذه الجزر.

يبلغ عمق المحيط عند شواطئ سقطرى، في بعض الأماكن (٩٠٠ مترا). وتقع سقطرى على أساس جرانيتي، ومن الجرانيت، تكونت أيضا، قمم جبال حجهر (سلسلة جبلية في الجزء الأوسط للجزيرة) ويبلغ ارتفاعها عن مستوى سطح البحر الى ١٥٠٠ مترا، وحسب معطيات الجيولوجيين يمكن العثور على آثار انفجار بركاني، حدث في حدود ٦٠ مليون سنة مضت.

لا يوجد إحصاء دقيق لعدد سكان الجزيرة، وقدرت البعثات العلمية التي زارت سقطرى في أعوام الخمسينات والستينات، عدد السكان بين ٧ آلاف و ٩ آلاف نسمة، ولكن نتائج إحصاء جزئي في الجزيرة تم أجراؤه في عام ١٩٧٣م بينت انه يعيش هناك حتى ذلك الوقت، مالا يقل عن ثلاثين ألف نسمة.

منذ زمن، حلمت بزيارة سقطرى، ولكن لم أتصور أن أكون بالطبع، من أوائل المواطنين الروس، الذين وجدوا أنفسهم يمكثون في هذه الجزيرة، مصادفة، فترة طويلة الى حد ما، وكنت هناك، حيث لم تطأ بعد قدم رجل روسي، فقد تلقيت في صيف عام ١٩٧٤م دعوة لزيارة الجزيرة ومشاهدتها، ولم أصدق حينها واقعية هذه الرحلة، قبل أن أشاهد، تحت جناح الطائرة، قمم حجهر المكسوة بالغيوم.

ومن الانطباعات التي تركتها هذه الرحلة الى جزيرة سقطرى، ولد هذا الكتاب، الذي يضم أيضا معلومات تاريخية ضرورية عن الجزيرة، والتي بدونها لا يمكن معرفة وتقدير أوضاع الجزيرة المعاصرة .ولقد رأيت في كثير من الحالات، إبدأرأيي الخاص حول فرضيات عن ماضي الجزيرة، وإعطاء استنتاجات لبعض الوقائع التاريخية، وهي أحيانا منطلقة من

الحدس الشخصي والانطباعات الخاصة، وآمل ان هذا لن يكدر القارئ، وذلك لأن دراسة سقطرى تبتدئ ليس إلا .

إن الإمعان في مزيج الانطباعات التي تركتها سقطرى، ليس بالأمر الهين، وبتعبير أدق، بدون دراسة كل ما كتب عن هذه الجزيرة .ومع إن إسم الجزيرة قد ورد، في العهود القديمة، في عشرات الأساطير والأسفار التاريخية، وفي مؤلفات مؤرخي وجغرافيي القرون الوسطى، الآ ان أعداد الكتب المكرسة لهذه الجزيرة في أيامنا هذه، نادرة جدا. ومما يثير الاستغراب، أن جزيرة كبيرة، تقع في نقطة تقاطع الطرق التجارية العالمية، وفي منطقة جرت دراستها جيدا، لا تزال لغزا مبهما، كما كانت عليه منذ عدة قرون خلت.

إن اكثر المعلومات في المؤلفات المنشورة عن سقطرى، تشتمل عليها أعمال ما يعرف ببعثه اكسفورد، وهي البعثة المتكاملة التي ضمت في قوامها ستة علماء إنجليز(أربعة من جامعة اكسفورد واثنان من كيمبردج) وعملت في الجزيرة على إمتداد شهرين في العام ١٩٥٦م، وترأس البعثة دوجلاس بوتينج وقد صدر له في عام ١٩٥٨م كتاب (موطن شجرة التنين) (شجرة التنين :هي التسمية الإنجليزية لشجرة دم الأخوين -المترجم)، وفي عامي ١٩٦٤-١٩٦٥م، وفيما بعد في عام ١٩٦٧م، زارت الجزيرة أيضا، إحدى البعثات برئاسة د .ب .دوو وهو الذي ترأس مصلحة الآثار القديمة في مستعمرة عدن لعدة سنوات، و ب .ج .بوكسهولا، وقد نشر د .ب .دوو في عام ١٩٧٠م كتابا في الولايات المتحدة الأمريكية بعنوان "سقطرى -استعراض الحفريات الأثرية لعام ١٩٦٧م"، كما كتب مؤلفون إنجليز آخرون عن سقطرى، وبشكل خاص ج -انجرامس، المستشار الإنجليزي لدى السلطنات الحضرمية، والذي عاش اكثر من عشر سنوات في جنوب الجزيرة العربية.

وفي مطلع عام ١٩٧٥م عقدت في عدن :الندوة العالمية لدراسة الحضارة اليمنية القديمة، واكدت على أهمية دراسة لغة وثقافة السقطريين.

وللأسف الشديد، ان علومنا الوطنية، لم تهتم بعد بسقطرى، ولربما يثير هذا الكتاب إهتمام علمائنا إزاء هذه الجزيرة المدهشة، وتجاه لغة وعادات سكانها ونباتاتها وحيواناتها، خاصة وقد تم التوصل خلال الفترة القليلة الماضية، الى اتفاق بين أكاديمية العلوم الروسية، ووزارة الثقافة والسياحة اليمنية، حول التبادل العلمي .وستتجه في المستقبل القريب الى سقطرى بعثة متكاملة، يمني- روسية تضم إختصاصيين في مختلف مجالات المعرفة، يمثلون اليمن والجمعية الجغرافية الروسية .ويحدونا الأمل في أن تقوم البعثة بأعمال مثمرة وناجحة، وان يوسع العلماء الروس الى درجة ما المعارف والمعلومات عن هذه الجزيرة. ويبقى لي أن أعتز في أن أكون من أوائل الضيوف الروس في هذه الجزيرة، وبهذه المناسبة، لايسعني إلا أن أعبر عن تقديري العميق للسقطريين، هؤلاء الناس الطيبون والودودون للغاية، على حسن ضيافتهم ومساعدتهم لي، وكذلك للسلطات اليمنية التي أتاحت لي إمكانية التواجد في الجزيرة.

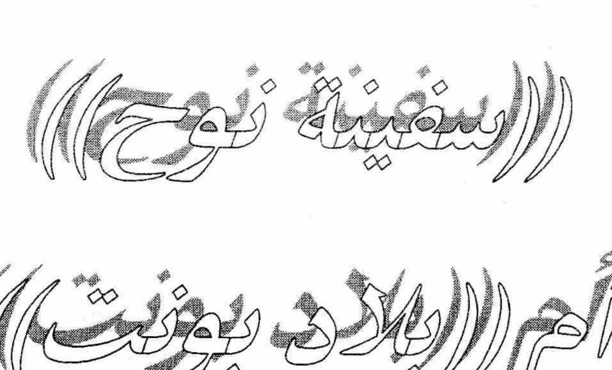
هبطت طائرتنا في موري، وهي قرية في الساحل الشمالي لسقطرى، حيث تشكل التربة المستوية ذات الحصى الصلبة مطارا طبيعيا .قضينا ليلتنا في معسكر الحامية المحلية: تدثرنا

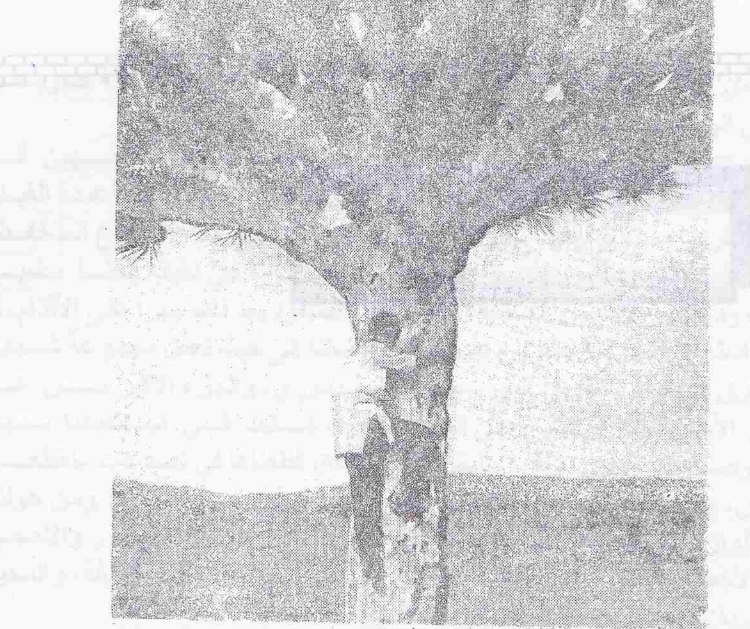
بألحفة دافئة من صوف الأغنام، وضعت مباشرة على حشايا مرمية على أرضية حجرية، وطويلا تناهي الى مسامعنا صرير الرياح.

في الصباح التالي، ركبنا سيارة (جيب) بصحبة عدد من السقطريين، متجهين الى عاصمة سقطرى، حديبو، فانطلقت بنا السيارة في طريق صخري، وتصاعدت أعمدة الغبار، ثم اجتازت بنا طريق مستوى، حيث تنمو أنواع غريبة من الأشجار ذات الأرتفاع المنخفض والأغصان الملتوية المجردة من الأوراق تقريبا، وبعد خمس وثلاثين دقيقة بلغنا مضيق جبلي، وهناك ودعنا مرافقينا من الحامية، وكان علينا الصعود بعد ذلك سيرا على الأقدام، في منحدر شديد استغرق صعودنا عشرون دقيقة، حتى وصلنا الى حيث تعمل مجموعة شبابية من عمال الطرق في انجاز الطريق الذي سيربط حديبو بموري، والجزء الأكبر من هذا الطريق جاهز الآن ويمكننا الركوب (على العجلات) حيث كانت في إستقبالنا سيارة (لاندروفر) وصلت من حديبو، وبقي أمامنا نصف ساعة، قطعناها في تصدعات متقطعة، تعلو وتنخفض، وهنا جلاميد صخرية صفراء كبيرة تغطي ساحل البحر المرتفع .ومن حولنا تسود أربعة ألوان :الأصفر الذي يتحول أحيانا الى أحمر فاتح، وهو لون الصخور والأحجار والطريق، والأخضر الزيتوني لون النباتات النادرة، ولون السماء الصافية الزرقة، والمحيط اللازوردي الريان، الممتد لمسافات بعيدة وراء الأفق.

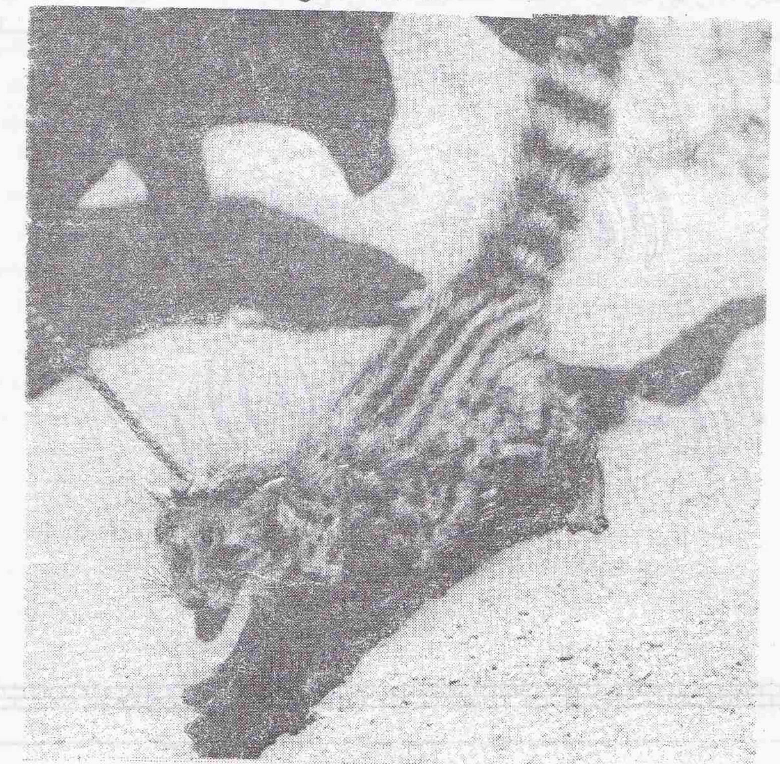
ها نحن الآن في حديبو، عاصمة سقطرى، وهي في الحقيقة بلدة صغيرة، تحتشد فيها البيوت ذات الطابق الواحد بنيت جدرانها من الطين، وفي أزقتها الضيقة لا نشاهد الناس تقريبا .. ومن هنا، نبدأ رحلتنا في ماضي وحاضر سقطرى.

الفصل الأول





من أجل الصمغ



قط المسك

الطابع الغالب لتكوين الحياة في سقطرى، نباتي دون شك :إنه قبل كل شئ الأشجار التي تجعل المنظر الطبيعي لسقطرى، فريدا وغير أرضي تقريبا، ففي الجبال المنحنية، تلتصق أشجار القثاء الخرقاء Euphorbia (الفيربون :اليتوع، نبات ذو لبن دار -المترجم) وكما لو إنها منفوخة أو متورمة من الأسفل، ويفرز جذعها الرمادي عصارة لبنية سلطعة وكثيفة، وتنثني أغصانها الى الأعلى، بأوراقها الملتفة، وازهارها الصفراء الصغيرة، وهي تعطي ثمارا غير صالحة للأكل تشبه الخيار .وتشابه هذه الشجرةAdenium arabicum ذات النمو الأرفع، وهي ربما اكثر مغالاة في سخريتها، فجذوعها غليظة، مشابهة لقناني ضخمة مكرشة، شهباء اللون، وتبدو وكأنها ستتفجر لفيضان سوائلها، ويتفرع عن الجذع الأصلي الواحد إثنان أو ثلاثة سيقان أحيانا، وتنتهي الجذوع الشبيهة بالقناني المكرشة، بأغصان وأوراق زهيدة ذابلة، ما يكاد يبدأ موسم تفتح الأزهار حتى تتساقط.

ان Adenium arbicum شجرة معروفة ليس فقط في سقطرى، ففي جنوب الجزيرة العربية، وفي بعض الأماكن، توجد أصناف هذه الشجرة، ولكنها أقصر منها، وكل ارتفاعها لا يتجاوز المتر تقريبا، بينما شاهدت في سقطرى Adenium بلغ ارتفاعها الخمسة أمتار، ويوجد لدى شقيقتها ذات الارتفاع الأقصر، والتي يسميها السقطريون (تريمو) جذع غليظ وأغصان قصيرة نافرة ذات أوراق قليلة صغيرة .وفي مرحلة تفتح الأزهار، لايمكن رؤية هذه الأشجار تقريبا، لكثرة الأزهار التي تتفتح مباشرة على الأغصان .ويمكن أن تنمو هذه الشجرة حيث لا تستطيع أن تنمو آية أشجار أخرى، وذلك لقدرتها على إمتصاص الماء من التربة والاحتفاظ به في جذعها، وعصارتها سامة، ففي أفريقيا، حيث تنمو أيضا إحدى انواعAdenium ، أستخدمت عصارتها سابقا لتسميم رؤس السهام- ومن هذه العصارة أفرز ليبرينس مواد حملت أسم "أدينيين" وهي مثل زهرة الكشتبان تصيب القلب، ومفعولها ضار على الجهاز العصبي المركزي، ومع ذلك فأن سكان سقطرى، يستخدمون عصارة Adenium لعلاج أمراض العيون.

وبالطبع فأن النبات الأكثر غرابة في الجزيرة، هو "شجرة التنين" وهي غريبة في الشكل وفي الاسم، ولها مظلات ضخمة وتبرز في كل الأنحاء، على المنحدرات وفوق الصخور، ويسمي السقطريون هذه الأشجار "أعريوب" وهي بالعربية"شجرة دم الأخوين" ويستخرجون منها الصمغ والصبر، وتوجد عدة روايات عن أصل هذه التسمية، فها هو د .بوتينج ينسب خطأ"اكتشافه الى السقطريين، وفي الواقع فأن سكان الجزيرة لايعرفون شيئا عن "الأخوين" ولايستطيعون حتى توضيح فكرة هذه التسمية، بما في ذلك المتعلمين والمتحدثين بالعربية من سكان سقطرى.

ان العرب إقتبسوا اسم الشجرة من أسطورة هندية، وهذا ليس بالأمر الغريب، خاصة وان نتاجات الأدب الهندي معروفة جيدا للعرب (نتذكر كليلة ودمنة الشهيرة)، وقد كانت سقطرى نقطة ترانزيت فريدة بين الهند والعالم العربي .وحسب الأساطير الهندية، فأن التنانين ناصبت الأفيال العداء، في غابر الزمان، وشعرت بشغف لدم الفيلة، فسعت للوصول الى المكان المنشود وراء الفيل، كي تعض أديمه وتمتص دمه دفعة واحدة .ولكن، ففي ذات

يوم، وبينما الفيل المائت يخر صريعا، دهس بجسمه الثقيل التنين، فأمتزج دم التنين بدم الفيل، وسقت دماؤهما الأرض، وقد سمي هذا المزيج " زئبق سولفيد" وأصبح يعرف فيما بعد بقطران " شجرة التنين" وهذه الأسطورة كانت أساسا للتسمية الأنجليزية للشجرة dragon`s blood وتعني حرفيا" دم التنين"وهي بالعربية "دم الأخوين"([1])

تنمو شجرة " دم الأخوين" فقط، في المنطقة الجبلية في الجزيرة والتي تسمى حجهر، على إرتفاعات لاتقل عن ٦٥٠-٧٠٠ مترا، وتمتد من الجذع سيقان مستقيمة في كل الإتجاهات، بارتفاع من ثلاثة -إلى خمسة أمتار فوق الأرض، بأغصان كأنها أبر الدواليب، وبين كل عشرين إلى ثلاثين سنتيمترا تتفرع بدورها وتتشعب، وبصورة جميلة تتشابك الأغصان الشهباء مع الأوراق الخضراء، وتكون كثافة من الأغصان والأوراق، ويبلغ إرتفاع الشجرة كلها تقريبا من خمسة الى ستة أمتار، وتنمو هذه الأشجار في مواقع تبدو وكأنها غير مناسبة، على الجلاميد الصخرية والمنحدرات الضيقة والمائلة والأفاريز، ويوجد اكثر عدد من أشجار " دم الأخوين" في منطقة فريمهن.

يقوم الجبليون بأحداث شقوق في جذع شجرة "دم الأخوين" بالسكين، فينصب من الشقوق صمغ أحمر اللون بكميات كافية، ثم ما أن يتصلب حتى يصبح لونه أسمر داكن، ويكون على شكل خثرات، ثم تؤخذ القطع المتجلطة فيتم سحقها واستخدامها لعلاج أمراض العيون والأمراض الجلدية، وكمادة مطهرة وموقفة للدم "مثلا عند علاج الجووح" وكذلك كأصباغ للزينة .وكتقليد تصدر كميات "دم الأخوين" عبر عدن الى الخارج، وهناك يستخدم هذا الصمغ في صناعة المساحيق ومعجون الأسنان، وذلك لأنه يقوى اللثة، ويدخل أيضا في تركيب الأدوية.

في فترة إستراحة، تحت مظلة واحدة من أشجار (دم الأخوين) تمكنت بنفسي من جمع بعض خثرات هذا القطران الفريد، الذي يذكرني حتى هذه اللحظة بالرحلة الى (جزيرة الأساطير).

ينمو في الجزيرة القات البري([2]) ولا يستخدمه السقطريون، لكن مفعوله معروف للسكان المحليين : فابلهم في سعيها للبحث عن النباتات التي تختزن الماء في أوقات

([1]) ان ربط العرب للأسطورة الهندية بالشجرة السقطرية يقدم شهادة غير مباشرة على الصلات الهندية -السقطرية القديمة .وتشير بعض الوقائع الى ان الهنود قد عاشوا في الجزيرة في الألف الأول قبل الميلاد .وقد وجد الجنود الأنجليز الذين رابطوا في الجزيرة خلال الحرب العالمية الثانية لوحة صغيرة عليها كتابة باللغة الغوجارتية الهندية، وقد سلمت فيما بعد للمتحف العدني .وحتى القرن السابع عشر فأن البحارة الغوجاراتيين قد عقدوا زيجات عابرة مع البدويات السقطريات.

وهناك روأية أخرى للأسطورة الهندية عن المعركة بين الفيل والتنين، هي حكاية مشهورة في بلدان البحر الأبيض المتوسط، عن معركة بين القديس جيورجي والتنين ..ترى، هل يمكن تتبع الأرتباط بين هاتين الحادثتين، وبين أن يكون سكان سقطرى قد عبدوا القديس جيورجي في الزمن المسيحي؟.!

([2]) – القات – نبات تمتلك أوراقه عصير ذو تأثير تخديري خفيف ، فتستخدم أوراقه للمضغ كمخدر في كل مكان للجنوب العربي ، وبشكل خاص في اليمن وأثيوبيا .

الجفاف، تقطف أحيانا من هذه الشجيرات، وإذا ما أكل الحيوان كثيرا من أوراق القات فأنه يمكن ان يصاب بشلل الأطراف ولذلك يراقب البدو جمالهم بعناية فائقة، حتى لاتمس شجرة القات عند بحثها عن المياه.

وسقطرى -هي احدى الأماكن القليلة في العالم، حيث تنمو أشجار البخور والطيب، ويمكننا في سقطرى ان نجد ستة أنواع من البخور، ومن ثلاثة الى أربعة أصناف من أشجار المر، وتكثر هذه الأشجار في الجبال، وبشكل خاص في الوديان والوهاد المؤدية الى قلنسية. وفي الصيف حين تزهر أشجار المر تمتلئ الوديان بأريج مدهش ومنعش، ومعظم أشجار الطيوب تنمو في منطقة فحير.

لم تعد سقطرى تصدر الآن البخور والطيب ولا المر،لكنها في زمن ما، إشتهرت مع مناطق اليمن في العالم كله، بأسم "بلاد الطيب والبخور" ، وذلك لأن البخور كان في العالم القديم واحدة من اكثر المواد قيمة، وأستخدم بكميات كثيرة أثناء إقامة المراسيم والطقوس الدينية وفي الحياة العادية.

وذكر"أب التاريخ " هيرودوت (القرن الخامس قبل الميلاد) أن " .. بلاد العرب هي الموطن الوحيد للبان والمر والقصيعة (خيار شنبر) والقرفة (الدارصيني) واللادن، ويكابد العرب الشدائد في جني هذه النباتات ماعدا المر، فلأجل جني اللبان يحرقون تحت أشجاره نوعا من الصمغ يسمى "ميعة" - وهو الصمغ الذي يأتي به الفينقيون الى بلاد الإغريق- ليشردوا أسرابا كثيرة من الحياة الطائرة المختلفة الأنواع التي تحرس الأشجار" ثم يذكر هيرودوت، ان العرب يجنون القصيعة"خيار شنبر" في بحيرات قريبة الغور تحوم فوقها والأرض المحيطة بها حيوانات مجنحة تشبه الخفافيش .وينتجون عيدان القرفة "بطريقة عجيبة" حيث تجلب طيور كبيرة عيدان جافة، تعلمنا من الفينقيين ان نسميها قرفة، وتحملها الى أعشاشها، والطريقة التي ابتدعها العرب للحصول على عيدان القرفة هي انهم "يقطعون جثث الثيران الميتة والحمير وسائر مطايا الحمل الأخرى الى قطع كبيرة الى حد ما، ويحملونها الى الأماكن القريبة من الأعشاش، ثم ينسحبون الى مسافة بعيدة فتأتي الطيور وتحمل قطع اللحم الى أعشاشها، ولكن الأعشاش لاتقوى على حملها فتنهار على الارض، فيأتي العرب ويجمعون عيدان القرفة " .

" كما يستخرج العرب اللادن، الذي يسمونه "اللادنم " بطريقة مدهشة جدا، وهو ذو رائحة عطرة خلابة، رغم أنه يوجد في موضع كريه الرائحة، ذلك أنه يلتصق كمادة غروية بلحي التيوس التي ترعى في الأحراج، ويستعمل اللادن كمادة أساسية في عمل أصناف كثيرة من العطور، وهو يحرق عند العرب كبخور " .

ولا يزال البخور مشهور جدا، حتى الآن، في بلاد العرب، فالنساء في شمال اليمن يقمن بعد عادة الحيض ((بالتطيب)) بالبخور، ومن كل بد، فأن النساء العربيات يعطرن ثيابهن بالبخور، وفي حضرموت فأن الرجل الذي يرتكب أي فعل قد يجلب العار للقبيلة، يقوم بمحو خطأه بالإستغفار والتسبيح في ظل أعمدة البخور المتصاعدة .كما يستخدمون البخور عند مراسيم غسل الميت وفي طقوس أخرى.

ويستعمل السقطريون البخور في أغراض العلاج وفي الحياة العامة، وأثنـــاء تأديـــة العبادات الدينية .كما يقوم العريس بإهداء البخور لعروسته، وتقوم العروسة في الليلة الأولى للزواج بتبخير فراش الزوجية بالمسك والبخور، ثم تنتظر الزوج على الفــراش وتواصـل إحراق البخور، وفي بعض الأحيان يتم وضع البخور الجاف تحت الرأس.

وشجرة المر شبيهة بشجرة أرز مصغرة، أما شجرة اللبان بأغصانها القصيرة الصلبة، وأوراقها المعقوفة قليلة الكثافة والغريبة الشكل فأنها تشبه الى حد ما " غول " يمد مخالبــه الى الأرض .ويصنع البدويون من القشور السميكة لشجرة اللبان في بعض الأحيان السـلال. وتكون الألياف الخشبية متشبعة بالعصارة بكثرة، ويأخذ القطران بالتراكم في حزوز الشجرة بلونه الأبيض المصفر ورائحته العطرة جدا، والأزهار قليلة في شجرة اللبـــان، وثمارهـا شبيهة بالحبوب الكبيرة.

يجمع السكان المحليون القطران من الأشجار في الصيف، إذ يشقون فـــي الأشـجار الكبيرة حزوزا من عشرة إلى إثني عشرة وتكون الخزوز عميقة وملتوية، بحيث تتمزق من تحتها القشور فيأخذ القطران بالتجمع في هذه الجيوب، وخلال شهر تقريبا يكون القطران قد جف وتصلب فيجمعونه ثم يقومون بعمل شقوق جديدة أخرى.

وبذات الطريقة تقريبا، يتم كذلك إنتاج قطران شجرة المر، ويتميز المر بمـذاق مريـر حاد، وبرائحة عطرية نفاذة، وهو يستخدم ليس فقط كبخور، ولكن يستخدم أيضا كدواء (في عملية التطهير) وكذلك بمثابة توابل.

إنه مثلما جعل النفط في عصرنا الراهن من بدو الأمس -أنصاف المتعلمين من الشيوخ العرب -أغنى الناس في العالم، كذلك أيضا كان الأمر في الزمن القديم، حيث جلـب البخـور الغنى لكل من أنتجه أو تآجر به، ويماثل الإقبال على البخور في العالم القديم، الإقبال علـى طلب الوقود في الوقت الراهن، فقد كان الكهنة الكلدانيون يحرقون أمام هيكل (بعل) عشرة الآف طالانت من البخور (الطالانت – وحدة وزن كانت منتشرة لدى الإغريـق والبـابليين والفينقيين .. الخ والوحدة منها في اليونان القديمة تساوي ٢و٢٦ كغم -المترجم) .وفـي أورشليم (القدس) شيدت عنابر ضخمة كي تستوعب هذه الهدايا، كقرابين للآلهـــة .وفـي اليونان تطيبوا بالبخور على شرف (زيفيس) (رب الآلهة والناس لدى الإغريق القدماء-المترجم) وفيما بعد قامت السفن المحملة بالبخور برحلات منتظمة إلى روما.

أعتبر البخور في العالم القديم مقدسا . ففيه، حسب ما تروي الأساطير، مـات طـائر العنقاء، وأما الناس فأستعملوه للطهارة الدينية .وعن الطبيعة المقدسة للبخور، تحدث علـى سبيل المثال المؤرخ الروماني بليني، وهو يذكر ان موسم جمع البخور يبدأ فقط حينما يـأتي فأل طيب كإشارة من عند الرب، وقد كان على جامعي البخور طوال هـذا الموسـم تجنـب الاقتراب من النساء، أو حضور الجنازات وغير ذلك مما أعتبر عملا غير شريف.

أما عن إستعمال البخور في الجزيرة العربية قبل الإسلام فلا يعرف إلا القليل، ولكـن البخور وجد في بقايا هياكل الأصنام الوثنية التي عبدها العرب، مثل (اللات) في الطـائف. ومن النقوش التي عثر عليها في اليمن نعرف ان البخور استخدم هنا لمعرفة مـا إذا كـانت الآلهة لاتعترض على هذا العمل أو ذاك، على سبيل المثال، عند بناء منزل جديد أو لوقايــة

المتوفي من الأرواح الشريرة (يتم وضع المبخرة مع البخور بجانب القبر لطـرد الأرواح الشريرة) .

وفي الإنجيل، رأى المنجمون نجم بيت لحم ثم جاؤا بثلاث هدايا الى المسيح الصغير "ما ان رأوا النجم حتى فرحوا فرحة عظيمة جدا، فدخلوا البيت ورأوا الطفل الصغير مع مريـم، الأم، فأنحنوا له ساجدين، وبعد ان فتحوا كنزهم أتوا إليه بالهدايا :الذهب، اللبان،المـر" (انجيل متي ٢-١٠-١١)، ويرمز الذهب وفقا للتقاليد الشرقية للسلطة والسيطرة، واللبان للاهوتية، والمر للمقدرة على شفاء الأمراض.

ويحتمل ان المصريين القدماء كانوا اكثر المستخدمين للبخور، ففـي حوالـي عـام ١٢٠٠ق.م تم جلب ٢١٨٩ زيرا و٣٠٤٠٩٣ برميل من الطيوب والبخور إلى معبد الإلهة أمون في طيبة، وكانت قيمتها فلكية، كما استخدم المصريون البخور للعلاج وكعنصر أساسي في الطقوس الدينية .وقد كانت حضرموت والصومال وظفار وسقطرى هي المناطق الوحيدة المنتجة لبضاعة الشرق الرئيسية.

قبل الميلاد بقليل، كتب المؤرخ الإغريقي ديـودروس الصقلـي، مؤلـف "المكتبـة التاريخية" عن طيوب بلاد العرب يقول :"تفوح في طول البلاد وعرضها روائح عطر طبيعي... وتنمو على طول الساحل أشجار البلسم والقرفة، وهي نبتة من نوع خاص، لطيفة المنظـر عندما تقطع، ولكنها سريعة الذبول .وفي داخل البلاد غابات كثيفة تنمو فيها أشجار البخـور والصبر الضخمة وأشجار النخيل والكافور وغيرها من الأشجار ذات الروائـح العطريـة، ويستحيل التعرف على خواص وطبيعة كل واحدة من الأشجار، لكثرة أعدادهـا ولاختـلاط أريجها في رائحة عطرية واحدة، تبدو غامضة وكأنها سماوية، تأسر حاسة الشم وشـعور كل من يشمها، حتى المسافرين الذين يمرون بعيدا عنها لا يفوتهم التمتع بهذه المتعة، وفـي الصيف حينما تهب الرياح من ناحية اليابسة تحمل أريج المر وغيرها من الأشجار العطـرة وتنشرها في الفضاءات البحرية القريبة ...ومن يستنشق هذه الروائح العطرية، يخيل له انـه تذوق طعام الخلود." وفي وصفة لرحلته في البحر الأرتيري (الأحمر) يتحدث ديدروس عـن جزيرة تنمو فيها كثير من الطيوب العطرة، وكان هناك أيضا معبد الآلهة جوبيتر (جوبيـتر: في الأساطير الرومانية الرب الأعلى، رب جميع الألهة والناس -المترجم) ومن المحتمل أنـه قصد فيما كتبه جزيرة سقطرى .ولكن بعض الباحثين يعتبرون ان الجزيرة التـي وصفـها ديدروس كانت تقع عند الساحل الجنوبي للجزيرة العربية وابتلعها البحر فيما بعـد بفعـل ثوران بركان هدام.

وفي الزمن القديم سار المصريون بقوافل جمالهم المحملة بالبخور في "طريق البخور" العربية، من حضرموت وظفار عبر اليمن الى ساحل البحر الأحمر، ومن هناك اتجهوا الـى مصر، وآخرون الى مابين النهرين، وقد كان المصريون يشترون باستمرار كميات كبيرة جدا من البخور ويدفعون مقابل ذلك أسعارا خيالية، ولقد قرروا ذات مرة تجهيز بعثـة خاصـة لغرض جمع القطران النفيس بأنفسهم ولكي يأخذوا معهم الى مصر بذور الشجيرات بغيـة إنبات الطيوب عندهم في مصر، ومثل هذه البعثة أرسلت تقريبا الى بلاد "بونط الأسـطورية" في الألف الثالث قبل الميلاد، وليس من المستبعد أن تكون هذه أول بعثـة بحريـة نظمـها

المصريون الى " بلاد بونط " الغنية بالبخور والذهب والفضة، أثناء حكم الفرعون سـأحور من السلالة الخامسة (٢٥٥٣-٢٥٤٤ ق م)

لم يعثر الآ على القليل من المعلومات عن هذه الحملة، حتى انه يصعب القول بثقة فـي أي اتجاه سافرت بعد الخروج من البحر الأحمر، ولكن ماهو معروف ان المصريين جلبـوا معهم عند عودتهم ٨٠٠٠٠ مكيال من المر، و ٢٦٠٠ قطعة خشبية ثمينة .وعلـى إمتـداد مئات السنين لم يجهز المصريون، ولامرة واحدة، مثل هذه الحملة التي جلبـت الطيـوب النفسية من "بلاد بونط." ولقد احتفظ فراعنة السلالة الثامنة عشر بأسطولهم فـي البحـر الأحمر، ويحتمل ان فراعنة السلالة الثانية عشرة قد أخضعوا لحكمهم الشعوب التي تعيـش على الساحل الأفريقي للبحر الأحمر، حتى إنهم أنزلوا الأسطول في سواحل الجزيرة العربية . يتحدث هيرودوت عن أحد القياصرة اسمه سيسوستريس ."سيسوستريس كما روى الكهنـة كان أول من اتجه على متن السفن الحربية من الخليج الفارسي وأخضـع شـعوب البحـر الأحمر" وهيرودوت يسمى هنا المحيط الهندي بالبحر الأحمر.

أما اكبر حملة أرسلت إلى بونط ففي عهد الملكة حتشبتسوت في عـام ١٤٩٣ ق م، وتؤكد ابحار هذه الحملة النقوش والرسوم التي وجدت على جدران حائط معبد فـي ديـر البحري.

وهكذا فأن المصريين لم يكشفوا لنا سر" بلاد بونط" التـي جلبـوا منـها الـثروات الأسطورية :البخور والمر والقرفة والأشجار، ويصعب الآن تحديد أين كان موقعها حقيقـة، وهو مايضطرنا الى وضع تخمينات ليس إلآ .ومع ذلك فالخيار ذاته، أو إذا جـاز التعبـير، ميدان البحث والتنقيب ليس كبيرا، اذ ينحصر في الجنوب العربي وسقطرى، أو الصومال.

يعزز أنصار حصر موقع بلد العجائب في سقطرى (وهم حقيقة ليسوا كثيرين) وجهـة نظرهم في الحقائق التالية :-

أولا : في سقطرى ينمو اكبر عدد من الأنواع المختلفة للبخور والمر، وكذلك الصـبر النفيس في العالم القديم، و((شجرة دم الأخوين)) .

ثانيا : أن البحارة المصريين، حتى وان اتجهوا الى ظفار وحضرموت أو الصومـال، فأنه لا يمكنهم السفر دون التوقف في سقطرى.

ثالثا : من المحتمل أن المصريين عرفوا عن سقطرى وعالمها النباتي الفريد.

وهنا يورد أنصار فرضية مطابقة "بلاد بونط" مع سقطرى، حكاية مصرية قديمـة، عن المصري الشهير، الذي وجد نفسه بعد تحطم سفينتة، في جزيرة عجيبة تنمو فيها الثمار المتنوعة والفاكهة، وتتواجد الطيور والأسماك، وهو يقابل فـي الجزيـرة حيـة عظيمـة [1]يتضح انها تحكم بلاد البخور، بلادبونط، وكذلك هذه الجزيرة، وتساعد الحية المصـري بالعودة الى وطنه .وفي هذه الجزيرة التي يسميها المصري بـأنتش - جزيـرة الأرواح، يعيش أيضا خمس وسبعون حية وفتاة واحدة، ويوعد المصري الشهير بمكافأة الحية مـن

(١) يظهر هنا إرتباط مهم مع إحدى الأساطير العربية، وفحواها أن حية تحرس كل شجرة بخور.

كنز فرعون، ولكن الحية ترد عليه : "إنكم لاتملكون المر، وكل ما يوجد لديكم ليس إلآ طيوب متواضعة، ولدي أنا عاهلة الجزيرة مر خاص ! وحتى الطيوب التي توعد بإرسالها ينقلونها من جزيرتنا" وأنعمت الحية على المصري بهدايا ثمينة، بما في ذلك حمولة كبيرة من المر وغيره من الطيوب.

وفي هذه الحكاية، حقيقة، إشارات إلى سقطرى، فلا توجد جزيرة غيرها تنمو فيها أشجار البخور والمر، وقد كانت سقطرى في الأزمنة الغابرة، ضمن أملاك حكام بلاد البخور أي حكام ممالك اليمن، وحتى فيما بعد فقد دخلت سقطرى ضمن سلطنة المهرة وسقطرى، التي تشتمل عليها كذلك مواطن "البخور"

وهناك شهادة أخرى : ففي الرسوم الموجودة في دير البحري، الى جانب الحيوانات الأخرى من "بلادبونط" رسوم لأبقار صغيرة بدون سنام، ومثل هذه الأبقار توجد حتى الآن في سقطرى (مع انه في الشواطئ المجاورة لأفريقيا والجزيرة العربية والهند، توجد فقط أبقار ذوات سنام) والمسافة لدى هذه الأبقار من الخيشوم وحتى أصل الذيل مترا وعشرون سنتمترا فقط .وعن السؤال، كيف ظهرت هذه الأبقار عموما في سقطرى، فأن مختلف البحاثة يجيبون بصورة مختلفة .ينسب البعض الفضل للبرتغاليين في إدخال هذه السلالة، وهم يفترضون أن الأبقار الضخمة الأوروبية الأصل، التي تشبهها الأبقار السقطرية، ربما تلاشت، فتجزأت السلالة .ويعتقد آخرون أن الأبقار دخلت الجزيرة قبل ذلك بزمن اكثر، ويعتقد طرف ثالث أن مثل هذه الأبقار ربما انتشرت أيضا في مناطق أخرى، في الزمن القديم، ولنقل في جنوب الجزيرة العربية، ولكن أزاحتها فيها بعد سلالة أخرى، فانقرضت هذه الأبقار .وفي كل الأحوال فأن الأبقار في هذه الرسوم تعطي أنصار الفرضية السقطرية برهانا جديدا لصالحهم.

أما معارضوا هذه الفرضية (يرى كثيرون ان" بونط" كانت في الصومال او في الجزيرة العربية) فيشككون في أن تكون قد نقلت من سقطرى في وقت ما أصناف الأشجار النفيسة، والذهب وجلود الوحوش (اذا ما اتبعنا الأسطورة المصرية عن بونط)، بل وبشكل عام في وجود مثل هذه الثروات والزراعة المتطورة في الجزيرة .

توجد أيضا وجهة نظر أخرى، فحواها ان مبعوثي الفرعون تحتمس الثالث، الذي حكم بعد الملكة حتشيبتسوت، جلبوا أيضا في العام ١٤٧٩ ق .من بلاد بونط " عاج الفيل وخشب الأبنوس وجلود الفهود والعبيد)) . وطالما ان مثل هذه البضائع أمكن جلبها من اليمن فقط، فأن صف من الباحثين يميلون الى إستنتاج مفاده، ان المصريين أطلقوا تسمية " بلاد البونط " على المناطق التي تقع على جانبي مضيق باب المندب.

ان كل هذا الجدال حول " بلاد بونط " يزيد الأهتمام بسقطرى أكثر فاكثر، وربما تقع، في يوم ما، براهين جديدة في أيدي الباحثين، تؤكد انه قد وجدت قديما في سقطرى زراعة أصيلة، وان ثروات سكانها كانت في الواقع ضخمة جدا، وهو ما أثار حولها سيل الأساطير والحكايات والقصص..

والطريف، ان ديدروس الصقلي، صاحب الإثباتات والبراهين ذات التقدير العالي جدا في مختلف الدراسات، تحدث عن وجود ثلاث جزر :سقطرى، عبد الكوري،

وغيرا، او(بانتشاي، حسب الرواية المنقولة عن التسمية المصرية للجزيرة بإنتش) ومع ذلك فأن قصص ديدروس الأصلية عن سقطرى، تتداخل مع الأساطير عن بانتشاي، ولايعرف هنا هل يجري الحديث عن جزيرة واحدة أم عن جزيرتين.

إن سلسلة جبال حجهر، كما أثبتت الأبحاث العلمية، تعد واحدة من اكثر البقع قدما على سطح الأرض، لم تتعرض للغرق في فترة الطوفانات المستمرة وهيجان المحيط العالمي في العصور القديمة. وما يؤكد هذا، انه بقيت حتى اليوم في الجبال النباتات (وبدرجة أقل الحيوانات) التي لانظير لها في مكان آخر من العالم، ومثل هذه النباتات في سقطرى حوالي مئتين صنفا.

وسقطرى بحد ذاتها متحف للتاريخ الطبيعي، وكانت الجزيرة قبل ملايين كثيرة من السنين تشكل وحدة متكاملة مع القارتين الإفريقية والآسيوية، ثم وقعت واحدة من أقدم الكوارث الجيولوجية، فحولت جزءا من القارتين الى جزر، وأغرقت جزءا كبيرا من اليابسة، وكونت مجموعات جبلية جديدة، وأعادت توزيع سطح الأرض بين مياه ويابسة أبدية، ونتيجة لذلك أصبحت الهند جزيرة، وإقترب المحيط من سفوح هيملايا، وأنغمست أيضا منطقة سقطرى الحالية في الأمواج، ورغم ذلك سلمت جبال حجهر القديمة، وتواصلت الحياة هناك، وكانت مياه المحيط العالمي قد طمرت في ذلك الوقت نصف العالم، ويقول الجيولوجيون ان المحيط تراجع بعد ذلك، ومن الجائز أن سقطرى اتصلت لبعض الوقت مع الجزيرة العربية والساحل الصومالي في أفريقيا بـ((جسور)) برية، ولكن سرعان ما أرتفع منسوب المياه من جديد، فانفصلت الجزيرة عن اليابسة الى الأبد.

تتواجد في سقطرى كثير من الأصناف المدهشة في عالم النبات والحيوان، وهي تمثل قيمة لاتقدر للعلم، لقدمها وإرتباطاتها المنشأية مع الأصناف الأخرى في مختلف أجزاء الكرة الأرضية. وهكذا، فسقطرى هي "سفينة نوح " التي حفظت حتى يومنا هذا أصنافا أثرية كثيرة للحياة.

أثارت سقطرى ولازالت تثير إهتماما كبيرا لدى علماء النباتات. وقد وجدت بعثات علماء النباتات التي درست سقطرى " رغم أن نباتات الجزيرة لم تدرس بعد بما فيه الكفاية "إن هناك فرق ملحوظ بين الطابع الفقير لنباتات الهضاب الساحلية شبه الصحراوية، وعالم النباتات الغني في المنطقة الجبلية وهي تشبه المروج الجبلية الأوربية.

وتتميز أيضا نباتات المناطق الجبلية المختلفة بعضها عن بعض بصورة واضحة تلفت نظر المرء حتى غير المتخصص، ففي سفح الجبال حيث تشكيلات الاحجار الرملية الحمراء، وفي الجزء الأسفل للأودية تتواجد شجيرات صغيرة فقط وشجرة الخيار، ومع الصعود التدريجي في جبال حجهر لم ألاحظ تغييرات متميزة في النباتات. ولكن على إرتفاع ألف متر تقريبا تغيرت اللوحة بصورة شديدة، إذ تجد نفسك في عالم آخر تماما. فمن بين الأوراق الخضراء المغبرة البدينة لأشجار الصبر، تمتد الى الأعلى شماريخ أرجوانية، تشابه الزنابق البرية. وهنا وهناك تشمخ المظلات الكثيفة لأشجار" دم الأخوين" ، وتنمو بكثرة في كل مكان أشجار البرتقال البري وأشجار الطلح (السنط) وأشجار الخبيزة. أجتزت الهضبة الأولى بمروجها الخضراء، وصعدت أيضا مائتي الى ثلاثمائة مترا، فظهرت من حولي نباتات

جديدة :الزعفران، الزعتر البري ومختلف أنواع الخيار والفطريات .وعلى إرتفاع كيلو متر ونصف تغطت الصخور الجرانيتية بقرفة جراح الأشنة، وفي الشقوق اختفت الزهور الجبلية، وتبدو أحيانا من صدوع الصخور الجرانيتية أغصان بأوراق صغيرة، ذات لون أخضر فاتح، مرصعة بالأزهار الصفراء البهية .ويقول علماء النباتات ان اكثر النماذج أهمية توجد بشكل خاص في قمم جبل حجهر، رغم أنه لا تتبين أية ميزة خصوصية لهذه النباتات، ومع ذلك فإذا تأملت في هذه الجلاميد الصخرية العريقة، الناتئة فوق المحيط العالمي، بين الأمواج الهائجة، لعرفت انه ينبغي أن تكون كذلك :حارسا لنباتات " ما قبل الطوفان " .

أما عالم الحيوانات في الجزيرة فأكثر ضآلة، ولعل المهم هنا، صنوف الحيوانات الصغيرة ذات المزايا المماثلة لنظيراتها في أفريقيا وآسيا وبولينيزيا، وهي تشمل الأفاعي والضب والرخويات والعقارب والخفافيش.

وحين رأيت لأول مرة سرطانا أرجواني اللون، في بركة ماء جبلية على إرتفاع أكثر من ألف متر عن مستوى سطح البحر، لم أصدق عيني، ويتواجد السرطان الأرجواني في كل أحواض المياه العذبة في سقطرى، وتوجد في الجزيرة أم أربعة وأربعين، طولها خمسة وعشرون إلى ثلاثين سنتيمترا، غليظة مع إبهام وكل " رجل " سامة.

وفي سقطرى عناكب سامة، يسميها السكان المحليون فيتامي، وسمها مميت للإنسان والحيوان، ويقول السقطريون ان حوادث الموت من جراء لدغات العنكبوت السامة كثيرة الوقوع.

واحد ألغاز الحيوانات السقطرية، التي عصرت ذهن الاختصاصيين بعلم الحيوانات، الإنعدام الكامل تقريبا للحيوانات الثديية البرية .ربما ان السبب في ذلك يعود الى ان الجزيرة انفصلت عن اليابسة قبل ظهور الحيوانات الثديية على الأرض؟

ومن الحيوانات البرية التي تعيش في الجزيرة، التيوس البرية، والحمير و"قط المسك" المتوحش فقط .ولكن من المحتمل ان كل هذه الحيوانات جلبت إلى الجزيرة في زمن متأخر نسبيا.

إن الحمار الوحشي سريع جدا وعدواني جدا، وحينما رأيت في المروج الجبلية حيوانات رمادية بيضاء جميلة، مع بوز أبيض وخطوط سوداء على المناكب، وجدت نفسي مدفوعا للإقتراب منها بغية تمسيد هذه الحمير المدهشة .لكن السكان المحليين نصحوني بالكف عن ذلك، لأن الحمار الوحشي، كما أوضحوا لي، قد يكون خطرا، وينظم السقطريون قنصا متخصصا للحمير لكي يستخدمونها فيما بعد كمطايا للحمل.

ويظنون إن التيوس والحمير سليلة متوحشة للحيوانات الأليفة التي جلبت الى الجزيرة في الزمن القديم، وتعد سلالة الحمير الحبشية النوبية التي جاء بها التجار المصريون إلى الجزيرة في زمن ما، هي بالذات أصل، الحمير السقطرية.

وبالمناسبة، فإن الحمير الوحشية (أنا غري) التي لم يتبق منها الآن شيئا تقريبا على الكرة الأرضية، قد إمتازت كذلك بطبعها الحاد العنيف، وفي الزمن القديم اعتبر اصطياد الحمير الوحشية خطرا للغاية مثل اصطياد الأسود.

ولعل اكثر الحيوانات الثديية أهمية في سقطرى هو "قط المسك" (١) كما يسميه السقطريون، وهو حيوان شرس للغاية، بحجم اكبر قليلا من القط المنزلي، وجلده منقش بخطوط بيضاء وسوداء، وذيله أيضا مخطط بدوائر بيضاء وسوداء، وله قوائم سوداء يتغذا هذا الوحش بالتمور ويهاجم أحيانا الطيور الداجنة .وحينما حاول العلماء الإنجليز اصطياد "القط" حيا، لم يتسن لهم الأمر بسهولة، لأن "القط" رغم حجمه، يتجنب الفخ بحنكة من خلال الشقوق الضيقة، وبعد أن تم إصطياده سلك سلوكا وحشيا للغاية ولذلك لم يقرر العلماء أخذ هذا الوحش ذو النتانة والفحيح، في أيديهم حتى وهي في القفازات الجلدية السميكة.

ويعتبر المسك العطري، الميزة الرئيسية لهذا الحيوان، وتفرزه غدد خاصة تقع تحت الذيل، ويقوم السكان المحليون بنصب الفخ " للقط "وفيها يضعون التمور بمثابة طعم، وبعد إصطياده يستخرجون المسك بسكينة ثم يطلقون سراحه، ويستخدم المسك في تصنيع العطور المحلية وأدوات الزينة، وتدهن النساء السقطريات وجوههن وأجسامهن بزيت المسك.

الى جانب هذه الحيوانات، توجد في الجزيرة فقط الفئران والجرذان، ولكن يلفت النظر أحيانا الحجم الكبير للجرذ، ويحكي السقطريون أن أعدادا ضخمة من الجرذان توجد في جزيرة بالقرب من سقطرى غير مأهولة بالسكان، وهو الأمر الذي حدا بهم الى تسميتها بـ "جزيرة الجرذان".

وفي سقطرى طيور كثيرة الى حد ما :العصافير، النسور، الصقور والحمام..الخ، ولم يتسن لي أن أرى فقط طائر الرخ الأسطوري، الذي نجد له وصفا في القصص العربية، وكذلك طائر العنقاء.

ولربما وجد في زمن ما نسر كبير سمي بطائر الرخ، وحسب ماترويه الأساطير العربية فأن طائر الرخ حلق فوق الأرض فحجب السماء عمن هم في الأسفل، وحمل بمخالبه الفيل ووضع بيضا كبيرا بحجم الهيكل، ويذهب بعض العلماء الجريئين جدا الى الأفتراض بأن لقاء السندباد بطائر الرخ الخرافي قد جرى في سقطرى.

وعلى الأصح فأن النسر السقطري وجزيرة سقطرى ذاتها، قد أحيطا بهالة من الألغاز والسحر في العهود الغابرة، مما أعطى الزاد لهذه الأسطورة الجميلة.

ولاتقل عن ذلك شهرة، العنقاء، في الحكايات الشرقية، وهي طائر مقدس عند الفينقيين، وحسب اعتقادهم انها عاشت خمسمائة الى ستمائة سنة، وعند الموت طارت الى مدينة الشمس بانتشيا (أي من التسمية المصرية بإنتش).

كتب بليني عن طائر العنقاء:

" .. هذا طائر عربي شهير، بحجم النسر، حول عنقه ريش في غاية الروعة، وكل جسمه أرجواني اللون ماعدا ذيله فأنه لأزوردي، رغم انه تتداخل مع الريش مسحات وردية، ويزدان العنق بعرف، والرأس بذؤابة من الريش، ويفرغ نفسه للشمس، وحين يتقدم به العمر يبني عشا من القرفة وأغصان اللبان المتشبعة بالروائح العطرية ثم يجلس فيه

---

(١) في الواقع ان هذه الحيوانات ليس لها علاقة بالقطط وهي من سلالة الحيوانات الثديية (Viverricala Indica) التي جلبت الى الجزيرة في القرون الوسطى.

ويموت، وتتكون من عظامه ومخه المتجمد دودة صغيرة تنمو وتتحول الى طائر صغير، وأول ما يقوم به، دفن سلفه، ونقل العش الى مدينة الشمس بالقرب من بانتشاي، وهناك يضعه في المعبد المقدس وتستكمل دورة السنة العظيمة من حياة هذا الطائر، وتحل دورة جديدة مرة أخرى كسابقتها حسب المواسم وظهور النجوم" .

وعن العنقاء كتب أيضا هيرودوت، وأكد أنه لم ير طائر العنقاء حيا، لأنه قلما يصل إلى مصر: يقولون في مدينة الشمس انه يطير مرة كل خمسمائة عام.

" يطير طائر العنقاء فقط حين يموت والده، وإذا ماكانت صورته حقيقية، فأن الهيئة الخارجية لهذا الطائر تكون هكذا : ريش ذهبي جزئيا، أحمر بعض الشئ، مظهره وحجمه قريب الشبه بالنسر، وهاكم مايروونه عنه (مع ان هذه الحكاية كما يبدو لي غير مرجحة الوقوع). يطير طائر العنقاء كما يدعون من الجزيرة العربية حاملا معه جثة الأب، المدهونة بالمر، الى معبدهيليوس (هيليوس- في الأساطير الإغريقية إله الشمس -المترجم)وهناك يتم دفن الأب .أما طريقة حمله للأب، فيقوم في البداية بعمل بيضة كبيرة من المر يكون بمقدوره حملها، ويجرب كيفية حملها، وبعد الإختبار، يثقب الطائر البيضة ويضع في داخلها جسد الأب، ثم يغطي الثقب بصمغ المر وتكون البيضة في هذه الحالة ثقيلة كما كانت من قبل، ويقوم طائر العنقاء بحمل البيضة معه إلى مصر، إلى معبد جيليوس، وهذا حسب ماترويه الحكاية مايقوم به هذا الطائر".

إن طائر الرخ والعنقاء الخرافية - طيور جزيرة بانتشاي الأسطورية، التي كانت النموذج الأصلي لجزيرة سقطرى.

ويعتقد أيضا ان التصورات عن سقطرى تجد إنعكاسا لها في الأساطير والقصص عن الجزيرة الغامضة واق الواق، التي تحتل معانة كبيرة في الفلكلور العربي.

وإذا قارنا ما كتبه ديودروس الصقلي عن الجزيرتين سقطرى وبانتشاي، حيث تختلط المعلومات الصحيحة بالأساطير، فسوف تبرز معلومات هامة عن الجزيرة .وحسب كلمات ديودروس فأن الجزيرة زودت العالم كله بالمر والبخور وغيرها من النباتات العطرية. فقد باع سكان الجزيرة للعرب في اليابسة البخور والطيوب وهؤلاء صدروها بدورهم الى مصر وسوريا وبلدان أخرى.

سكنت الجزيرة أربع مجموعات من الناس :السكان الأصليون، الأغريق، الهنود، والعرب، وكان بينهم الرعاة، المزارعون، المقاتلون، الحرفيون والكهنة، (ومن البديهي انه كان بينهم التجار الذين باعوا البخور). هكذا كانت الجزيرة في القرن الأول للميلاد.

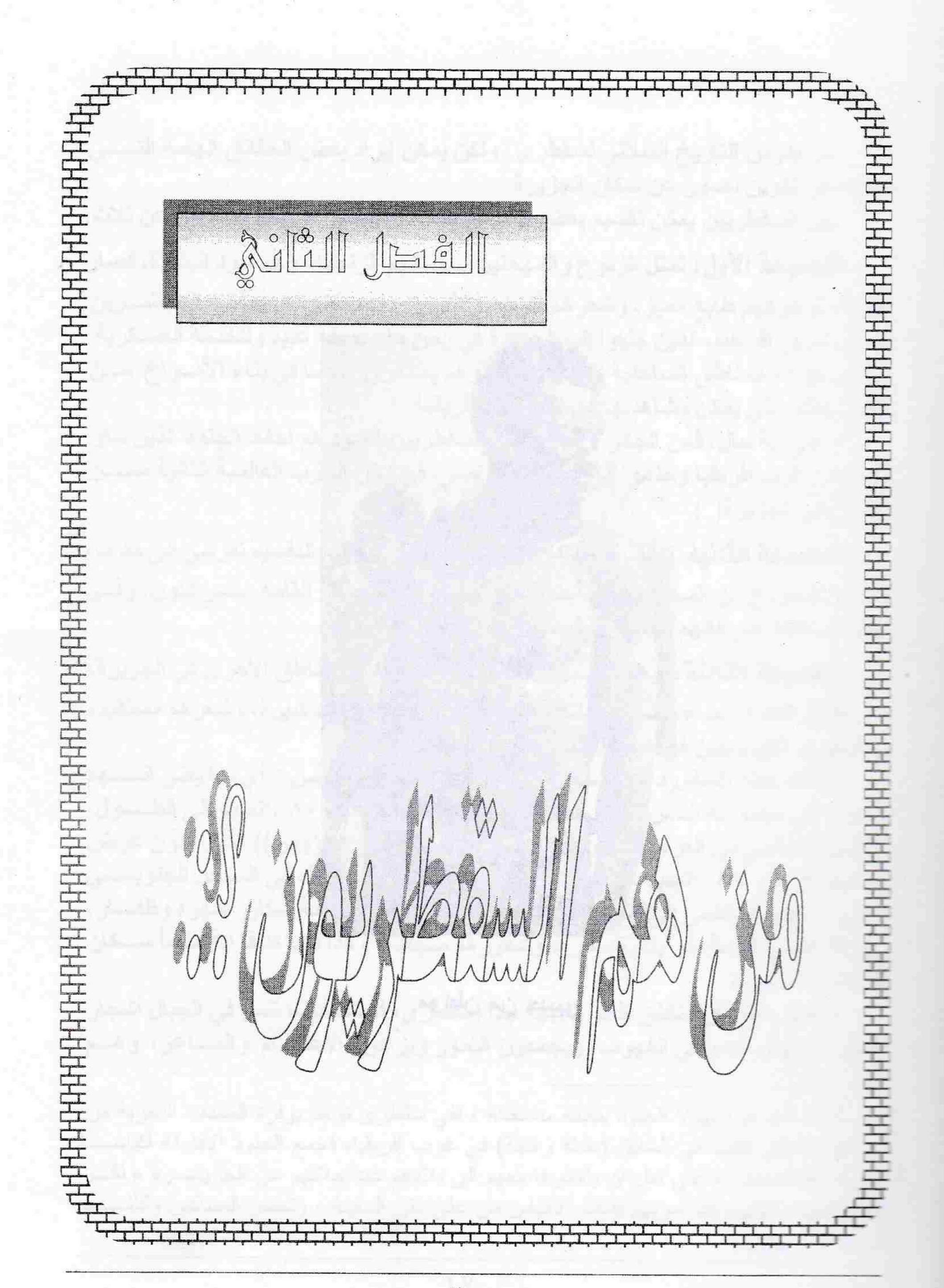
ولعله من المنطقي الإفتراض ان السقطريين الذين كانوا يتاجرون بالطيوب الثمينة أصبحوا أغنياء ، وهذا يتوافق بالكامل مع الشهادات التي تفيد أن المصريين جلبوا الذهب وغيره من الأخشاب النفيسة من الجزيرة .ومثل هذه البضائع أمكن جلبها إلى الجزيرة من قبل من اليابسة، من اليمن بالتبادل مع الطيوب (مع ان هذا مشكوك فيه طالما إن في اليابسة ما يكفي من الطيوب).

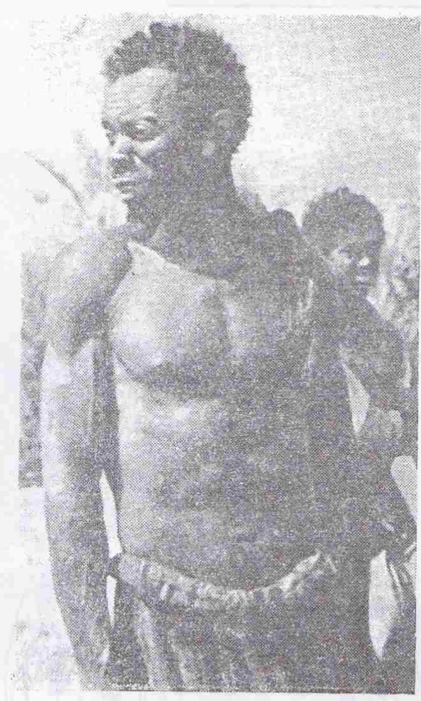
ويذكر ديودروس معلومات عن ثروة وروعة معبد جوبيتر، المزدان بمجموعات الأعمدة والتماثيل الجميلة . ترى، هل ظهرت حضارة متطورة في هذه الجزيرة؟ حاليا

لايمكن الإجابة على هذا السؤال .ويمكن أن توضحه فقط الاكتشـــافات الأثريـــة وأعمـــال الحفريات والدراسة المفصلة للجزيرة.

أثارت الأساطير عن "جنة النعيم" القلق لزمن طويل لدى القدماء، ولكن مرت القـــرون، وزار البحارة الأوروبيون الجزيرة ووجدوا هناك فقط السكان الأصليين أنصاف الجياع، ولـم يعثروا على أثر لحضارة متطورة .وبقي عالم سقطرى النباتي والحيواني الفريد الذي أعطـى الحياة للأساطير عن الجزيرة العجيبة وحافظ على الاهتمام بها .بيد أن روائح البخور والمـو العطرة لم تعد تجذب الشعوب إلى الجزيرة، لأن الطيوب في عالمنا المعاصر فقدت قيمتـــها الغابرة.




الفصل الثاني
من هم السقطريون ؟؟



مواطن من حديبو

لم يدرس التاريخ السلالي لسقطرى . ولكن يمكن إيراد بعض الحقائق الهامة التـــي تساعد في تكوين تصور عن سكان الجزيرة.
بين السقطريين يمكن تقسيم بعض المجموعات السلالية والعرقية، بما لايقل عن ثلاث:

المجموعة الأول: تمثل الزنوج والمهجنين بسيمائهم الزنجية، وهم سود البشرة، قصار القامة، لوجوههم طابع مميز، وشعرهم أكرت، وكثيرون منهم يعتبرون أحفـــادا مباشـــرين لسكان شرق إفريقيا، الذين جلبوا الى الجزيرة في زمن ماء بصفة عبيد وللخدمة العسكرية. ويقطن هؤلاء المناطق الساحلية للجزيرة فقط، وهم يستمرون أيضا في بناء الأكـــواخ مـــن النخيل كتلك التي يمكن مشاهدتها في الأرياف الأفريقية.
وعلى أية حال، فمن الجائز ان جزءا من السقطريين السود هم أحفاد الجنود الذين جاؤا من بلدان غرب أفريقيا وخدموا في الجيش الفرنسي، في زمن الحرب العالمية الثانية ممـــن رابطوا في الجزيرة([1]).

المجموعة الثانية: تتألف من سكان السهول السقطرية (هذا التقسيم تقريبي الى حد ما، لأن هذا النموذج من السكان يعيش أيضا على الساحل) وهم قصار القامة، سمر اللون، وفـــي مظهرهم الخارجي فإنهم يشابهون اليمنيين أو الحضارمة.

المجموعة الثالثة: وهم الجبليون المنعزلون عن سكان المناطق الأخرى في الجزيرة، وهم طوال القامة أشداء، بشرتهم فاتحة اللون، وأرجلهم وأذرعهم كبيرة، وشعرهم مستقيم، ويشابهون الأوروبيين في هيئتهم الخارجية.
كشفت بعثة اكسفورد أن السقطريين أساسا " مستديرو الرأس " أي بما يعني انـــهم ينتمون الى مجموعة الناس الذين يشكل عرض رؤسهم اكثر من ٨٠ %نسبة الى الطـــول، (الغالبية العظمى من العرب ينتمون الى مجموعة ((مستطيلي الرؤوس)) الذين يكون عرض رؤسهم أقل من ٨٠ %نسبة الى الطول) ، وبعض المجموعات فقط، في الساحل الجنوبـــي للجزيرة العربية، تنتمي الى نموذج الرأس المستديرة، وفي المقدمة سكان المهرة وظفـــار، وهؤلاء قصار القامة، ذو بشرة سمراء وشعورهم متجعدة، وهذا مايؤكد قرابة منشأ ســـكان المناطق المذكورة.
وبشكل عام فأن مناطق ظفار شبيهة جدا بسقطرى، فهناك أيضا تنمو في الجبال أشجار الطيب، ويعيش البدو في الكهوف، ويجمعون التمور ويرعون الأغنـــام والمـــاعز، وهـــم

([1]) وقعت ذات مرة لهولا الجنود حادثة مضحكة ، ففي سقطرى توجد بوفرة الصدف البحرية من نوع كورا، التي كانت في السابق (عملة رائجة) في غرب إفريقيا، فجمع الجنود الأفارقة أكياســـا مملوءة بهذة الصدف ، على امل ان يأخذوها معهم الى بلادهم عند جلائهم عن الجزيـــرة ،ولكـــن القيادة خيبت آمالهم، فقد أمرتهم بقذف الأكياس من على متن السفينة ، وتحسر المساكين وكأنـــهم فقدوا كنزا حقيقيا.

كالسقطريين غير مكترثين بواجباتهم الدينية (يمكن القول كذلك عن سكان مناطق أخرى من اليمن).

يتكلم المهريون والظفاريون بلغات قريبة من السقطرية، وهي لغات لاتعرف في مكان آخر غير هذه المناطق، وبالطبع، فأن منشأ اللغات لوحده غير كاف لتأكيد الأصل المشترك للشعوب المتكلمة بها، رغم انه في هذه الحالة هام جدا.

ان اللغة السقطرية أقل من غيرها عرضة للتأثير الخارجي، وبشكل خاص تأثير اللغة العربية .وتعتبر اللغات المهرية والظفارية والسقطرية قريبة المنشأ من اللغات اليمنية القديمة :السبأية، المعينية، الحميرية والقتبانية .ومن الطريف أن الوشم الذي يوشم به السقطريون إبلهم، يمثل بحد ذاته تحويرا للأحرف الابجدية السبأية (أو جزء من الأحرف). وقد ذكر الإنجليزي تيودوربينت الذي زار الجزيرة عام ١٨٩٧م انه وجد في الجبال بالقرب من قلنسية نقوشا سبأية، وجميع هذه المعلومات تضيف براهين تعزز قرابة منشأ السقطريين وسكان اليمن القدماء.

إنه من غير الممكن معرفة أصل السقطريين وصلاتهم الوراثية، دون دراسة تاريخهم ولغتهم، وللتعرف على تاريخ اللغة السقطرية يكون من الضروري معرفة ولو حتى معلومات أساسية عن اللغات السامية بشكل عام، وهذه اللغات، التي مات الكثير منها، تكون ما يعرف بالأفروأسيوية أو أسرة اللغات السامية -الحامية[1] . وهي تنقسم الى خمسة أقسام :المصرية(اللغة المصرية القديمة) ، البربرية (لغات السكان البربر في شمال أفريقيا والصحراء الكبرى)، الكوشتية (لغات شرق أفريقيا) والتشادية (لغة السودان الوسطى) ، والسامية .وتنقسم اللغة السامية بدورها الى أربع مجموعات لغوية :الشمالية -الوسطى (الارامية، اليهودية القديمة وغيرها) الأطراف الشمالية (الأكادية)والجنوبية الوسطى (العربية) والأطراف الجنوبية، التي تعتبر هنا موضوع إهتمامنا .وترجع كل اللغات السامية الى الأصل المشترك، اللغة السامية القديمة التي انقسمت الى كثير من اللغات نتيجة التطور التاريخي للشعوب السامية.

وجمعت مجموعة الأطراف الجنوبية للغات السامية، اللغات التي تكلمت بها شعوب اليمن في الزمن القديم وهي اللغات السبأية، المعينية، القتبانية والحضرمية، تكلم بالسبأية سكان دولة سبأ القديمة، وبالمعينية سكان معين والقتبانية قتبان والحضرمية حضرموت. وقد وجدت هذه الدول في اليمن في الزمن الممتد مابين القرن الخامس عشر قبل الميلاد والقرن السادس الميلادي.

وعدا اللهجات اليمنية تنسب أيضا الى مجموعة الأطراف الجنوبية اللغة الأثيوبية القديمة -الجعزية .وقد انتشرت هذه اللغة في شمال اثيوبيا منذ مطلع الألف الأول قبل الميلاد وحتى الألف الأول بعد الميلاد، وفي العام ٣٠٠م ترجم الكتاب المقدس الى اللغة الجعزية.

---

[1] المعلومات هنا وما يليها عن اللغات الافرواسيوية، على اساس تصنيف العالم الروسي الشهير إ- م- دياكونوف

لماذا تكلم الأثيوبيون باللغة التي ولدت في اليمن؟

في الواقع ان هذا ليس غريبا البته، لأن السكان الذين قطنوا أثيوبيا في الأزمنة القديمة إنحدروا من اليمن، ثم تمازج الغرباء فيما بعد مع السكان المحليين وكونوا بداية هذا النموذج الأثني الذي نعرفه الآن، الأثيوبيون المعاصرون، وحينها انفصلت المجموعة الأثيوبية الأمهرية من مجموعة الأطراف الجنوبية للغات السامية.وحدث هذا فقط بعد أن استوطن العرب الجنوبيون اثيوبيا، ربما مع بدأية الألف الأول قبل الميلاد .ولازالت الكتابة الأثيوبية التي أخذت بداياتها الأولى من الشكل العربي الجنوبي للأبجدية السامية القديمة تستخدم حتى الآن في جميع اللغات الأثيوبية.

لقد ماتت اللغات القديمة لمجموعة الأطراف الجنوبية منذ زمن بعيد، ولكن جاءت منها لغات أخرى لازال بعضها يعيش حتى الآن . وتنقسم اللغات الجديدة لهذه المجموعة الى فرعين :اليمنية والأثيوبية- الأمهرية . وتنقسم المجموعة الأثيوبية -الأمهرية الى ثلاثة فروع :الأثيوبية الشمالية، الأقرب الى الجعزية (تيجر، تيجرانا او تيجراي)، الأثيوبية الوسطى (الأمهرية، أرجوبا المنقرضة، وجافات الميتة)، ولغات مجموعة جوراجي.

وتشتمل المجموعة اليمنية على المهرية، الشحرية (الحكلية) الحرسوسية والبطحرية وهي اللغات المنتشرة على شواطئ الجنوب العربي في المهرة (اليمن) وظفار (عمان)، والسقطرية -لغة سكان جزيرة سقطرى .وبالطبع، فأننا لا نستطيع الجزم بأن اللغة السقطرية تنحدر بصورة مباشرة من السبأية، وقد يجوز تماما انها تنتمي الى مجموعة ما من لهجات الأطراف الجنوبية غير المعروفة حاليا.

توجد في تاريخ العلاقات بين الحضارات اليمنية والأثيوبية، بشكل عام، الكثير من العناصر الهامة التي تتناقض ظاهريا في حالات كثيرة .فالأثيوبيون واليمنيون على سبيل المثال يتنازعون الحق في اعتبار أنفسهم ورثة الملكة بلقيس، التي ربطت أسطورة الكتاب المقدس الرائعة أسمها بإسم الملك سليمان .ويعتقد الأثيوبيون ان الملكة السبأية حكمت في اكسوم، وتروي مختلف أساطير الأدب الملحمي الشعبي الأثيوبي قصة سفرها في ضيافة الملك الحكيم، وتنتشر احدى هذه الروايات لدى شعب التيجري ودونها بشكل خاص في القرن الماضي المبشر السويدي سوند ستريم .وتنسب الملحمة الشعبية الأثيوبيية " كيبرا نيجاست" (وهي تعني سجل مجد الملوك - المترجم) أصل القياصرة الأثيوبيين الى هذه الملكة واليمنيون من جانبهم يعتبرون ان الملكة الأسطورية حكمت سبأ، منطقة في اليمن.

ومع كل ذلك فلن نغوص في الجدال الذي لم يهدأ بين أنصار الأصل الأثيوبي واليمني للملكة السبأية، ولا كذلك في الرأي الذي يعتبرها شخصية أسطورية، كما نجده في الملاحم الشعبية لمختلف الشعوب السامية الجنوبية . وعموما فأن الأسطورة عن هذه الملكة تؤكد وشائج القرابة المتبادلة بين اليمنيين والأثيوبيين ،وكذلك صلاتهم القديمة مع السكان الساميين في شمال الجزيرة العربية وفلسطين.

كما تتنازع اليمن وأثيوبيا فيما بينهما شرف تسمية موطن البن .فلأعوام طويلة أعتبر أن اليمن هي التي وهبت البن للعالم، وذلك لأن البن إنتشر من هنا بالذات الى كل مكان، وأخذ صنف البن الشهير " موكا " اسمه من اسم الميناء اليمني المخا .ولكن أتضح فيما بعد أن

أليمنيين جلبوا البن من أثيوبيا وبعد ذلك فقط قاموا بزراعته في المدرجات الجبلية، ومن المحتمل ان يكون الرحالة اليمنيون هم الذين جلبوا البن، ولايستعبد أيضا أن يكون قد جاء به الى اليمن العبيد الحبشيون .لقد ذكر الرحالة الإنجليزي بروس في العام ١٦٧٨م في كتابه "رحلة البحث عن منابع النيل" أن الأثيوبيين عند سفرهم المضني لاجتياز الصحراء في الهضاب الحبشية، أخذوا معهم عوضا عن الأكل كرات بحجم بيضة دجاجة صغيرة، ملفوفة بخليط من البن المقلي والزيوت النباتية والدهون، وتحمل هذه المؤنة في مخال جلدية. وكانت واحدة من هذه الكرات كافية لإسناد قوة الإنسان خلال يوم كامل.

ولكن توجد في اليمن رواية تفيد أن البن اكتشفه الرعاة المحليون مصادفة أثناء مشاهدتهم لمواعزهم التي ما أن تمضغ ثمار اشجار غير معروفة لهم من قبل، حتى تبدأ بالجري والركض بخفة غير عادية.

وبالضبط أيضا تدافع اليمن وأثيوبيا عن أولوية كل منهما في إستعمال القات الذي لايعرف في المناطق الأخرى من الكرة الأرضية.

لقد تواصلت علاقات اليمنيين بالأثيوبيين في مرحلة وجود الدول المتطورة في اليمن. ومعروف أن السبأيين استوطنوا أثيوبيا في الفترة مابين سنة ٤٥٠-٣٠٠ قبل الميلاد، وتعود إلى ذلك الوقت نقوش باللغة السبأية وجدت في أثيوبيا، وحقيقة انه لم يتسن بعد إيضاح لماذا وضعت هذه النقوش جميعها في المرحلة المشار اليها فقط.كما تظهر لدى الباحثين المتخصصين مجموعة أخرى من التساؤلات، ولكن مما لاشك فيه انه كان للسبأيين في تلك الأعوام (رغم إنهم إنتقلوا إلى أثيوبيا قبل ذلك بعض الشئ) تأثير ثقافي كبير على الأثيوبيين، ومن الممكن انهم لعبوا دورا هاما في الحياة السياسية.

وهكذا فمن بين مئتين - ثلاثمئة نقشا عثر عليها في أثيوبيا، تعود الى مرحلة مابين ٤٥٠-٣٠٠ق.م، فأن خمسين نقشا فقط كتبت باللغة الجعزية، وكل ماتبقى باللغة السبأية. ومن المهم ان قسما من النقوش كتب بلغة سبأية أدبية صحيحة، وأخرى بسبأية مكسرة تحتوي عدد من الأخطاء القواعدية، وربما إن هذه الأخيرة قد كتبها الأثيوبيون وليس السبأيين .وعلى هذا الأساس يمكننا الإفتراض ان عددا من الأثيوبيين عرفوا السبأية في تلك المرحلة .ومن الجائزان النقوش السبأية التي عثر عليها ت . بينتوم وكتابات غير واضحة تشابه مارآه بجانب اكسوم تعود أيضا الى تلك المرحلة .ومن المحتمل ان هذا الوقت كان زمن التوسع السبائي في الدول المجاورة، وإلى تلك الأعوام أيضا يرجع خبر الفيلسوف الأغريقي فيوفراست عن السبأيين، تجار الصبر والند، ومجددا يشتد الخيط الى سقطرى لربطها باليمنيين والآثيوبيين.

حتى القرن السادس الميلادي، وهنت حضارات اليمنيين ، وفي العام ٥٢٥م إحتل الأثيوبيون اليمن وفرضوا سيادتهم هناك لبعض الوقت، وفي تلك الفترة هاجر جزء من القبائل اليمنية الى شمال الجزيرة العربية، الى سوريا والعراق، وبعض هذه القبائل (على سبيل المثال كندة)اختلطت هناك مع السكان المحليين، وأصبحت فيما بعد أساس قبائل الأقوام الجديدة ــ العرب.

ولكن هل هاجر اليمنيون فقط إلى الشمال وإلى أثيوبيا ؟ في "الأديسا" يتحدث هوميروس عن جزيرة سهيريا (التي يمكن ان تكون نموذجا لسقطرى) حيث عاشت أقوام من البحارة ـ الفياكي او الفياكيون، الذين كأنما جاؤا الى الجزيرة من "خارج حدود الأرض"، ويكرر هوميروس في (الادوسيا) معلومات معروفة في الاسطورة الاغريقية عن الفياكيين. ويذكر أبللودور في (المكتبة الاسطورية) أيضا ان الفياكيين كانوا بحارة ممتازين، وهو ماينطبق بالكامل على العرب القدماء .ويمتاز الفياكيين عن الشعوب الاخرى في كونهم لم يكونوا مقاتلين، وهو مايقترب أيضا من السقطريين الأصليين الذين يتصفون حتى الآن بشغفهم للسلام. ويكتب ابللودور انه حين ساعد الفياكيون الأدوسيا للوصول الى البيت، غضب عليهم باسيدون فأخفى هذه الأقوام (وراء جبال عالية) . "الجبال العالية"ـ هل هذا تطابق من جديد؟ أم إن الفياكيين هم السقطريون القدماء؟ ! وربما تعني الإشارة الى مجيئهم من (خارج حدود الأرض) أنهم وصلوا في زمن ما، من الجزيرة العربية ؟.

من الممكن أن نفترض أن سكان اليمن القدماء قد جاؤا إلى سقطرى في زمن قديم جدا، ربما في وقت واحد مع استيطانهم إثيوبيا .ومع ذلك فيمكن أن يكون السبأيون او غيرهم من القبائل العربية اليمنية قد ظهروا هناك في وقت متأخر، لاسيما وان هذا الأمر لم يكن صعبا على البحارة المجربين.

على اية حال، فان ظروف استيطان سقطرى، سر الأزمان الطويلة، ولايستبعد انه تم إخفاء المنفيين أو رعايا الملك السبأي المغضوب عليهم، وحتى المجرمين في الجزيرة ، بصورة غير ودية . ومن الجائز أن المستوطنين السبأيين او غيرهم من العرب الأصليين كانوا من الفلاحين (أو العبيد ؟) الذين أرسلوا الى الجزيرة من اليابسة لزراعة الصبر والند وجني صمغ (دم الاخوين).

حينما عدد الفيلسوف الإغريقي فيوفراست، تلميذ ارسطو، سكان الجزيرة العربية، ذكر بينهم (السبأيين) واصفا إياهم كمزارعين ومحاربين وتجار وبحارة، وذكر أن المداخيل الأكثر في نشاطهم جاءت من نقلهم نباتات، الى البلدان المجاورة ، تسمى لاريمانا (الند)، "ذو الرائحة العطرية التي تفوق رائحة كل الطيوب الأخرى" إليس الند السقطري هو الذي نقله السبأيون ؟ وإن لم يكن كذلك ، فمن أين لتلميذ ارسطو ، فيوفراست أن يعرف ان سقطرى غنية بالند.

من المحتمل انه حتى ذلك الوقت (القرن الرابع قبل الميلاد) قد جلب السبأيون، الذين استوطنوا سقطرى قبل ذلك بكثير ، الشهرة للند ، الصبر السقطري.

إن الكثير من المسائل المتعلقة بأصل وتاريخ السقطريين يسهل الإجابة عليها والكشف عنها إذا ماوجد ولو شيء من الآثار المكتوبة.

أشارت . بينت في العام ١٨٩٧م انه وجد بنفسه نقوشا على صخرة جيرية ، بالقرب من اريوش، التي تقع بالقرب من البحر في الجزء الغربي شمال السهل الساحلي، وقد مات على إثر زيارته للجزيرة . أراد الباحثون اللاحقون التأكد من صحة استنتاجات اكتشافه.

بينت يرى ان نقوش إريوش في سقطرى ، شبيهة جدا بما رآه في درجات الكنيسة وعلى سفوح التلال القريبة من أكسوم، العاصمة القديمة لأثيوبيا، وهذا التشابه لم يبق لديه ذرة

شك في ان هذه النقوش اثيوبية). ويؤرخ بينت لهذه اللقية القرن الخامس قبل الميلاد، انطلاقا من ان الأثيوبيين أمكنهم التواجد في الجزيرة، عند غزوهم للشواطئ العربية الجنوبية (اليمن) سنة ٥٢٥ للميلاد.

في عام ١٩٥٦م، قرر عالم الآثار الإنجليزي ب شيني، عندما عمل في الجزيرة، الوصول إلى هذا النقش ومشاهدته بأم العين، ويعتبر ما ذكره معلومات هامة بالنسبة لنا:

"هذه قرية صيادي اللؤلؤ (دي حانة - قرية في الطريق الى إريوش، حيث توقف شيني -المؤلف) وهي في الواقع وبكل بساطة قرية وسخة، والأكثر فقرا بين كل مارأيته في سقطرى، معظم البيوت شيدت من علب الصفيح الفارغة، وغطيت بصفائح الزنك المتموجة، التي جاؤا بها من المطار .ومع ذلك فإن السكان أبدوا حفاوة بنا، وخصصوا لنا مكانا لتناول الطعام، وماء مالحا قاموا بغليه من أجلنا، وتمرا، وهم من أجل الحصول على التمور يقطعون الجزيرة كلها الى نوجد حيث يشترون كل رطلين من التمر مقابل شلن واحد، وذلك لأنهم لا يمارسون أي نوع من الزراعة، كما قدموا لنا فيما بعد مياه عذبة من تلك التي يجلبها لهم البدو من الجبال بسعر شلن للبرميل الواحد.

ولابد من الأشارة الى انهم يحصلون على مداخيل لابأس بها في مواسم إستخراج اللؤلؤ.

بعد الغداء، دلنا صاحبنا أحمد على وجهة الطريق، وطلب منا مقابل كل ماعمله من أجلنا عشرين شلنا". اجتزنا الطريق فصادفنا رجالا" خرجوا لتحيتنا والسؤال عن وجهتنا، ولأن الطريق بدت لنا صعبة، فقد طلبنا من أحدهم اسمه خلف أن يرافقنا، وبعد ضجيج ومساومة طويلة وافق خلف على مرافقتنا مقابل خمسة شلنات..

وصلنا إريوش في منتصف النهار، وبالطبع وجدنا هناك اللوحة الجرانيتية المليئة بالنقوش، وبدت من الإنطباعات الأولى، كأنما طبعت عليها آثار أقدام بشر وابل، ولكن كانت هناك أيضا" علامات أحرف أبجدية ما، تتحد مع بعضها بخطوط ثعبانية طويلة، وبين الفواصل رسوم جمال متقطعة، وبالقرب منها وجدت نباتات مهدمة، ربما كانت منازل مع أفنيتها.".

لم يستطع شيني الحصول على تفسيرات واضحة عن أصل هذه النقوش من سكان ديحمض.. وحين سألهم عن رأيهم في من يمكن أن يكون قد حفر على اللوحة "بصمات الأرجل": هل المسلمون أم المسيحيون؟ أجابوا بصورة قاطعة "إن هذه هي بصمات أقدام الأنبياء، ولايستطيع الوجود الإنساني أن يترك مثل هذا الأثر".

انه لايمكن دراسة تاريخ السقطريين بمعزل عن التاريخ القديم للجزيرة العربية، لأن هذا بالذات يعطي مفتاح اللغز عن أصلهم.

لقد عاش الإنسان في اليمن في مرحلة ماقبل التاريخ، وهذا ماتؤكده اللقايا الأخيرة في محافظة لحج الى الشمال الغربي لعدن، فقد عثر هنا مؤخرا" بالقرب من جبل تلع على أثار محطة قديمة تعود لأنسان العصر الحجري، إذ وجدت أدوات قديمة (قاشطة شعر، رؤس رماح وفؤس ومدية) صنعت قبل ٥٠٠-٢٠٠ الف سنة قبل الميلاد، وهذه الإكتشافات مهمة ولم تلق بعد الإهتمام الكافي والتقييم التام من قبل العلماء، كما إن هذه

اللقايا لم تشملها الخارطة الإجمالية لجميع اللقايا التي تعود الى القرن الحجري والتي نشرت في "مرسال اليونسكو". والأمل معقود في ان تعطي عملية البحث والتنقيبات الأثرية في منطقة المحطة نتائج جديدة. وحسب رأي عالم الأثار الروسي س. شيرينسكي، الذي وضع إستعراضا" للمواقع الأثرية في جنوب اليمن، وجمع أدوات حجرية بالقرب من جبل طله، إن هذه النماذج تمثل حلقة إتصال مهمة بين آثار إستيطان إنسان العصر الحجري في أفريقيا وفي جنوب آسيا. وتعتبر الأدوات التي عثر عليها البراهين الوحيدة بعد، على إن الإنسان القديم سكن أراضي اليمن.

وتؤكد اللقايا اليمنية الإنتماء الأصلي للسكان اليمنيين، والشك في الرأي القائل بأن اليمن أستوطنه أولا" الوافدون من الشمال. وبالطبع فأن هؤلاء السكان اليمنيين الذين شيدوا فيما بعد حضارة أصيلة، ربما كانوا أحفادا" غير مباشرين للأنسان العربي القديم، الذي نشأ بفعل اندماج السكان الأصليين مع أحد ما أيضا". ويصعب الآن الحكم فيما إذا كان السبأيون والحميريون، الذين يتكلمون احدى اللغات السامية، قد نزحوا من الشمال. أم ان أسلافهم هم أولئك الساميون القدماء الذين انتشروا فيما بعد في الشمال وربما في افريقيا أيضا". وفي كل الأحوال فأن آثار النزوح القديم بارزة وملحوظة في تسلسل انساب القبائل اليمنية.

وفيما يخص أصل الساميين القدماء، فبقدر المعلومات المعينة المتجمعة، قدم الباحثون في هذه المسألة فرضيات مختلفة، فتارة يعتبر موطن الساميين القدماء أفريقيا، وتارة مابين النهرين وتارة الجزيرة العربية . وحسب إحدى هذه الفرضيات فأن مثل هذه المنطقة ربما كانت في مكان استطاع فيه الساميون القدماء إقامة صلات مع الهندواوروبيين . وعلى مايبدو تشير الى مثل هذه الصلات مجموعة الجذور العامة الموجودة في اللغات الهندواوروبية والسامية([1])، ومن هذه المناطق (ربما آسيا الصغرى) تحرك الهندوأوروبيون القدماء على موجتين الى أوروبا والى الهند، حيث اندمجوا مع السكان المحليين ووضعوا البداية للغات الهندوأوروبية المتطورة المنتشرة في الوقت الراهن في أوربا وآسيا.

هل سكن الإنسان سقطرى في العهود الغابرة؟ لاتوجد بعد براهين تثبت وجود الأنسان القديم هناك. ولذلك فإن الباحثين، وعلى الأخص، قيادة البعثة العلمية المتكاملة في عام ١٩٦٧م د. دوو، و ب. بوكسهول، يعتقدون بصحة ان الأنسان سكن الجزيرة في وقت متأخر إلى حد ما بغية الحصول على البخور حينما كان "ذهب الشرق" وكما هو معروف فمع القرن الرابع الميلادي إنخفض بشدة الطلب على هذه البضاعة، وفقدت "طريق البخور" الشهيرة في اليمن أهميتها. وربما أضطر السقطريون في وقت ما الاعتماد بالكامل على تربية الماشية والأغنام وصيد الأسماك، وهو ما أدى الى عواقب مؤسفة.

([1]) من هذه الجذور على سبيل المثال كلمة سبعة –cent ، التي ربما اقتبسها الهندوأوربيون من الساميين، وتشهد عن هذه الصلات مجموعه أخرى من الوقائع اللغوية.

إنه إذا ما جمعنا المعلومات المتناثرة التي وصلت الينا عن السقطريين، واضفنا اليها ماهو معروف عن لغتهم (مع حرية إطلاق العنان بعض الشئ للخيال)، فيمكن أن نتصور تاريخ إستيطان الجزيرة على النحو التالي:

في زمن ما، قبل الآف كثيرة من السنين، قطن الجزيرة العربية الشعب السامي القديم، سلف الأشوريين، البابليين، السبأيين، الحميريين، الآراميين، الكلدانيين، الفينقيين، الأثيوبيين، اليهوديين والعرب .ومن الواضح ان هذا الشعب كان على الارجح رعويا"، وعدا تربية الماشية في البادية، مارس صيد الأسماك (في شوا طي مناطق البحر الأحمر والبحر العربي) ونتيجة لعدد من الأسباب الموضوعية سرعان مانزح هذا الشعب الى خارج الجزيرة العربية، وهاجرت مختلف القبائل السامية الى مصر، حيث اندمجت مع السكان المحليين، وكونت قبل أربعة الآف سنة من الميلاد شعبا" جديدا"، هم المصريون القدماء الذين شيدوا الحضارة العظيمة المشهورة في العالم أجمع.

واتجهت الموجات الأخرى للهجرة الى الشمال، الى مابين النهرين، وفي ذلك الوقت كان قد أستقر هناك شعب آخر رفيع التطور غير سامي الأصل، هم السومريون، وقد اندمج الساميون الرحل مع السومريين، ونتيجة لهذا الإندماج ظهرت في وادي دجلة والفرات حضارة جديدة، هي البابلية.

لقد أرست الحضارة المصرية وحضارة مابين النهرين الأساس لحضارة البحر الأبيض المتوسط، وتوقف عليها دور كبير جدا" في قيام الحضارة العالمية المعاصرة.

وفي اليمن، في ذلك الوقت، استمر السكان الأصليون في العيش، والتحول بصورة مستقلة الى نمط الحياة الحضرية، فمارسوا الزراعة، واتحدوا في الدول المتطورة في اليمن: السبأية، المعينية، القتبانية، الحضرمية والحميرية. وحتى ذلك الزمن كانت الشعوب السامية قد أخذت تتحدث بلغات مختلفة، تبتعد الواحدة عن الأخرى أكثر فأكثر. وتعرض التركيب السلالي لهذه الدول للتغيير، اذ جاءت موجات الهجرة من شمال الجزيرة العربية الى اليمن، وربما من فلسطين أيضا". وليس مصادفة ان إنتشرت في وقت متأخر وعلى وجه الخصوص في اليمن اليهودية التي ظهرت لدى القبائل اليهودية في فلسطين.

ماذا حدث بالذات لليمنيين الأصليين القدماء، بعد وصول الساميين الشماليين؟ إن الجزء الأكبر منهم، بالطبع، اندمج مع القادمين الغرباء وشكلت هذه الطبقة الأساس للسبأيين والمعينيين وغيرهم من الأقوام.

ولكن يمكن الإفتراض، انه لم يندمج كل سكان اليمن مع قبائل شمال ووسط الجزيرة العربية، لأن جزءا" من السكان الأصليين عاش في المناطق النائية، صعبة البلوغ، في المهرة وظفار وأبحروا أيضا" الى سقطرى، وعلى هذا الأساس يكون السكان الأصليون لليمن أول سكان جزيرة سقطرى.

واذا كانت سقطرى هي "سفينة نوح" التي حفظت نباتات وحيوانات ماقبل التاريخ، فقد كانت المهرة وظفار وسقطرى ملاجئ واصل فيها الحياة، بعزلة تزيد أو تقل، أحفاد أولئك الذين سكنوا اليمن في الأزمنة الغابرة.

وهناك وجهة نظر، تعتبر ان مربي الماشية السقطريين والظفاريين والمهريين الذين سكنوا الكهوف ورعوا الأغنام والماعز وعافوا الزراعة، هم "العرب الأصليين" أي انهم السكان الأصليون الحقيقيون لليمن، وفي الحقيقة، فإن أنصار هذا الرأي لم يستطيعوا بعد تقديم براهين مقنعة، لكن مايسند هذا الرأي الكثير: لغز اللغة السقطرية، وجود أبقار بدون سنام، والتشابه اليسير للسقطريين مع العرب... الخ.

وقد استطاع السكان الأصليون للجزيرة العربية الأبحار من رأس فرتك(1) إلى سقطرى وأنشأوا هناك أولى الآماكن المأهولة. وللتأكد من صحة هذه الفرضية ينبغي القيام بدراسة سلالية وأثرية متكاملة لسقطرى والمهرة وظفار.

ويبقى من غير الواضح، لماذا أضاع البحارة الماهرون للغاية، كالمرتحلين العرب القدماء، بالكامل فنونهم الملاحية، ربما أن ما أعاقهم حقيقة في الحفاظ على هذه الفنون، هو إنعدام الأشجار الضرورية لصناعة السفن في الجزيرة؟ وفي كل الأحوال فإن إقتصاد الجزيرة في الأزمنة القديمة قد إعتمد أساسا" على المساهمة في التجارة العربية للبخور، وفي رعي الماشية والأغنام وصيد الأسماك. كما إن من غير المعروف ماهو مستوى الثقافة الذي بلغه هذا الشعب، وفي أي مستوى كان في تلك المرحلة حين وصل الى الجزيرة. وتؤكد النقوش السبأية بالقرب من قلنسية، والكتابات غير المفهومة في أريوش، ان جزءا" من هؤلاء السكان قد عرف الكتابة.

وهكذا، لنفرض أن سكان الجزيرة العربية، الذين برعوا في الفنون الملاحية، قد وصلوا إلى الجزيرة كتجار. ومعرف من الإرشاد الملاحي المعروف بأسم "الطواف حول البحر الإرتيري" الذي كتبه أحد الإغريقيين في القرن الأول للميلاد، أن الأستيطان اللاحق للجزيرة قدتم في القرن الأول للميلاد، ويذكر مؤلف "الطواف" أن: "السكان ليسوا كثيرين، ويقطنون الشواطئ الشمالية... وهم غرباء وخليط من العرب والهنود والإغريق، الذين سكنوا الجزيرة للقيام بالتجارة هناك".

وعلى هذا النحو، فأن الإرشاد القديم للبحارة لم يتحدث بشئ عن السكان الأصليين الذين ربما عاشوا في الجبال، وتحدث فقط عن خليط التجار الوافدين الى الشواطئ الشمالية للجزيرة، في الحقيقة، أنه طالما أن مؤلف "الطواف" قد سمى الوافدين بـ "الغرباء" فيمكن أن نستنتج أنه كان في الجزيرة أيضا" سكان أصليون، ومن الجائز تماما" أن السكان الأصليين عاشوا قبل ألفي سنة في جبال سقطرى، كما هو عليه الحال الآن، في الكهوف والمساكن المكونة من الأحجار ومارسوا الرعي بصورة رئيسية، ولم يعرف المستعمرون والتجار الأغريق والرومان والهنود في الساحل، عن وجودهم شيئا". وهذا مايجد له إثباتا" جزئيا" فيما ذكره المؤرخ الأغريقي ديودورس الصقلي، الذي يرجع تاريخه إلى عدة أعوام سابقة، فكأنما إلى جانب التجار الوافدين الغرباء عاش هناك السكان الأصليون لهذه البلاد".

---

(1) رأس فرتك –رأس على شاطيء اليمن،في محافظة المهرة ، يقع مباشرة في مواجهة سقطرى.

في الأزمنة القديمة بدت الرياح الموسمية، التي تهب في المحيط الهندي، لغزا" للبحارة. إلا أن الربان الأغريقي هيبال اكتشف قبل مائة عام من الميلاد تقريبا" سر هذه الرياح، التي تغير إتجاهها حسب المواسم، فقد تمكن من إستخدام ملاحظاته في الملاحة، وأبحر جيبال في الصيف من ميناء على شاطئ في شرق أفريقيا تسوقه الرياح، ووصل الى الهند سالما". وفي الشتاء عندما هبت الرياح في الأتجاه المعاكس عاد الى موطنه. وفيما بعد أصبحت السفن الشراعية الأغريقية -الرومانية تجتاز المسافة من مصر الى الهند خلال شهرين، وكانت هذه السفن تنقل الشحن التجاري والركاب معا"، واتجه بعض هذه السفن الى الجنوب، الى شواطئ شرق أفريقيا، حيث تم إنشاء أولى المستوطنات التجارية الرومانية.

لقد مرت الكثير من السفن التجارية في سقطرى، ونعرف من المؤلفات الأغريقية -الرومانية ان العالم القديم قد عرف عن الجزيرة في العام ٣٠٠ ق.م، وتوجد في المصادر الرومانية -الأغريقية معلومات تفيد أن الجزيرة قد كانت مركزا تجاريا هاما قبل العصر الأغريقي- الروماني أيضا"، وربما كانت سقطرى منذ القدم محلا" لأعادة نقل الشحن الى وسائل نقل أخرى في التجارة بين الهند ومصر.

وفي "الطواف حول البحر الأرتيري" وصف تفصيلي للجزيرة وهي تسمى هنا ديوسقوريا. وأصل هذه الكلمة حسب احدى الروايات، من السنسكريتية أو السينغالية دفيبه سكحدار" بلاد النعيم". ومن هنا بالذات جاءت تسمية "سقطرى[1]" كما يعتقد بعض الباحثين. وقد كتب بحار أغريقي غير معروف الأسم: " ديوسقوريا كبيرة جدا"، لكنها قفراء، كثيرة المستنقعات، وفيها العديد من الأنهار حيث تعيش التماسيح وكثير من الأفاعي والحراذين الكبيرة التي يأكلون لحمها أما شحمها فيذوبونه ويتم إستخدامه عوضا" عن زيت الزيتون، ولاتنتج الجزيرة لا الفاكهة ولا النبيذ ولا الحبوب، وسكانها قليلون، يقطنون على الشاطئ الى الشمال... وهم غرباء وخليط من العرب والهنود والأغريق الذين جاؤا الى هنا لممارسة التجارة، وفي الجزيرة يستخرجون سلاحف بحرية أصيلة، وسلاحف بيضاء باعداد كبيرة جدا"، وهي تعتبر الأفضل بدروعها الكبيرة، وسلاحف جبلية وهي أضخم السلاحف ولها دروع سميكة جدا"، ولافائدة من هذه الدروع لصلابتها الفائقة جدا" بحيث يستحيل قطعها، وتثمن فقط تلك الدروع التي يمكن قطعها لتصنع منها الأواني وصحون الأكل والأوعية الأخرى. وفي الجزيرة يحصلون أيضا" على دهان الزنجفر المسمى الهندي ويتم جمعه بالقطرات، وربما ان ملك بلاد البخور يحكم الجزيرة. ويمارس التجارة هناك كذلك أولئك الذين جاؤا من داميريك وباري غاز (ميناء قديم في مصب الهندوس- المؤلف)، وهم يجلبون الأرز والقمح والثياب الهندية وبعض الجواري، ويصدرون كميات كبيرة من دروع السلاحف".

([1]) في رواية أخرى فإن أصل اسم الجزيرة مشتق من العربية، سوق- قطر، أي سوق قطر (دم الاخوين) الذي يجلبه العرب من الجزيرة.

من غير المعروف درجة صدق هذه المعلومات التي ذكرها المؤلف الإغريقي عن سكان الجزيرة وحيواناتها المحلية الخاصة بها. وإلى الآن ففي الجزيرة يصطادون السلاحف البحرية وبكثرة إلى حد ما، ويمكن التسليم بحقيقة أن سقطرى في الزمن القديم صدرت للعالم القديم، الروماني والأغريقي، دروع السلاحف.

ولم يبق أثر للتماسيح وكذلك الحراذين الكثيرة، والسلاحف البرية العديدة، ومن المشكوك فيه أن تكون قد وجدت هنا في زمن ما، والأقرب إلى الصحيح أن الحديث عن السلاحف البيضاء الضخمة هو ثمرة خيال المؤلف، وقد فتش علماء اكسفورد في زوايا كثيرة من المغارات والكهوف على أمل الحصول ولو حتى على بقايا من السلاحف البرية الضخمة، المشابهة لتلك التي توجد في جزر جالاباغوس ولكن بدون نتيجة. ونستنتج فقط من وصف مؤلف "الطواف" أن دروع السلاحف كانت بضاعة نفيسة جدا" في العالم القديم. وقد إعتبر هذا مبررا" كافيا" لزيارة الجزيرة.

من المعروف ان سقطرى لعبت أيضا" دورا" مباشرا" ومحددا" في التجارة العالمية.

كتب الجغرافي العربي الشهير في القرون الوسطى ياقوت (توفي سنة ١٢٢٨م) في مؤلفه ((معجم البلدان)) عن سقطرى:

"سقطرى.. اسم جزيرة عظيمة كبيرة فيها قرى ومدن تناوح عدن جنوبيها عنها وهي إلى بر العرب أقرب منها إلى بر الهند والسالك إلى بلاد الزنج يمر عليها وأكثر أهلها نصارى عرب، يجلب منها الصبر ودم الأخوين وهو صمغ شجرة لايوجد إلا في هذه الجزيرة ويسمونه القاطر وهو صنفان خالص يكون شبيها" بالصمغ في الخلق إلا ان لونه كأحمر شئ خلقه الله تعالى والصنف الآخر مصنوع من ذلك.. وكان ارسطاليس كتب إلى الاسكندر (المقدوني- المؤلف) حين سار إلى الشام في أمر هذه الجزيرة يوصيه بها وأرسل اليه جماعة من اليونانيين ليسكنهم بها لأجل الصبر القاطر الذي يقع في الأيارجات فسير الأسكندر الى هذه الجزيرة جماعة من اليونانيين وأكثرهم من مدينة ارسطاليس وهي مدينة اسطاغرا في المراكب بأهليهم وسيرهم في بحر القلزم (البحر الأحمر- المؤلف) فلما حصلوا بها غلبوا على من كان بها من الهند وملكوا الجزيرة بأسرها... وكان للهند بها صنم عظيم فنقل ذلك الصنم الى بلاد الهند في أخبار يطول شرحها.. فلما مات الإسكندر وظهر المسيح بن مريم عليه السلام تنصر من كان بها من اليونانيين وبقوا على ذلك الى هذا الوقت فليس في الدنيا موضع والله أعلم فيه قوم من اليونانيين يحفظون أنسابهم ولم يداخلهم فيها غيرهم غير أهل جزيرة سقطرى، وكان يأوي اليها بوارج الهند الذين يقطعون على المسافرين من التجار فاما الآن فلا".

وكما نرى فأن ياقوت يكرر الرواية الأغريقية المعروفة عن الأغريقيين الذين سكنوا الجزيرة ونشروا المسيحية هناك. وفي ضؤ كل هذه المعلومات، نقول فقط، انها تحتاج لأثباتها بشهادات من خلال التنقيبات والحفريات الأثرية، ولكننا نقول وبثقة ان الأغريق والهنود ومن المحتمل الغرباء الأكثر قدما قد أسهموا بنصيبهم في حياة الجزيرة المعروفة للعالم القديم بأجمعه.

وفي ما ذكره ياقوت ملاحظة تستحق الإشارة، تتعلق في كون سقطرى كانت قاعدة انطلاق لـ" بوارج الهنود الذين ينهبون المسافرين من التجار"، ويصعب التأكيد هنا بأن هذه المراكب كانت هندية بالذات، أما ان سقطرى قد كانت في القرنين التاسع والعاشر للميلاد مركزا" للقرصنة البحرية فهو أمر وارد، وعلى أية حال، فإن كثيرا" من الجغرافيين العرب يكررون هذا النباء.

كتب المؤرخ اليمني الشهير الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (توفي ٩٤٥ م):

" مما يجاور سواحل اليمن من الجزائر جزيرة سقطرى واليها ينسب الصبر السقطري وهي جزيرة بربر مما يقع بين عدن وبلد الزنج فإذا خرج الخارج من عدن إلى بلد الزنج أخذ كأنه يريد عمان وجزيرة سقطرى تماشيه عن يمينه حتى ينقطع ثم التوى بها من ناحية بحر الزنج وطول هذه الجزيرة ثمانون فرسخا"(١) وفيها من جميع قبائل مهرة وبها نحو عشرة الآف مقاتل وهم نصارى.. ويذكرون ان قوما" من بلد الروم طرحهم بها كسرى ثم نزلت بهم قبائل من مهرة فساكنوهم وتنصر معهم بعضهم وبها نخل كثير ويسقط بها العنبر وبها دم الأخوين وهو الأبدع والصبر الكثير".

ويذكر الهمداني أيضا:

"أما أهالي عدن فأنهم يقولون لم يدخلها من الروم أحد ولكن كان لأهلها الرهبانية ثم فنوا وسكنها مهرة وقوم من الشراة(٢) وظهرت فيها دعوة الإسلام ثم كثر بها الشراة فغدوا على من بها من المسلمين وقتلوهم غير عشر أناسية وبها مسجد بموضع يقال له السوق".

يذكر الهمداني هنا طريقا" بحرية معروفة من عدن الى شرق أفريقيا، فقد اتجهت سفن البحارة العرب في البداية الى الجنوب الشرقي ثم دارت حول سقطرى وسارت الى أفريقيا.

ومن المهم ان الهمداني يكرر هنا معلومات معروفة عن "الروم" الذين سكنوا الجزيرة، وقد سميوا أنذاك بيزنطيين (أي سكان شرق الإمبراطورية الرومانية) وفي ذات الوقت يبدي الشك بهذا الصدد.

ومن المهم الأشارة الى صراع الخوارج(٣) مع المسلمين السنة(٤)، ولم يعد للخوارج وجود في الجزيرة، وينتمي كل السقطريين الآن الى السنة، المذهب الشافعي،

---

(١) الفرسخ – مقياس عربي للمسافة يساوي تقريبا ستة كيلومتر .

(٢)الشراة – وردت في النص الروسي بمعنى الخوراج –المترجم .

(٣) الخوارج – فرقة (دينية) إسلامية ، ظهرت في القرن السابع الميلادي ويرفع الخوارج فكرة مساواة كل المسلمين (عرب وغير عرب) ويطالبون بانتخاب القيادات الدينية والسياسية للدولة الجماعية الدينية .

(٤) السنة والشيعة – الاتجاهان الرئيسيان ،في الإسلام ظهرا مباشرة بعد انتشار الإسلام ،يرجع السنة في المسائل الدينية الى القرآن والسنة (الأحاديث النبوية)، والشيعة الى جانب ذلك يعطون أهمية رئيسية للزعماء الروحيين الأئمة الذين يجب ان يكونوا من أحفاد علي بن ابي طالب .

وعاش هناك في عهد السلطان عدد من الحنابلة[1] المنحدرون من عمان، وعـــدد مـــن العجم الشيعة ولم يعد لهم وجود الآن.

لقد سعت بعثة اكسفور للعثور على أي أثر كان لتواجد الإغريقيين فـــي الجزيـــرة، ولم تحصل على أي شئ، عدا بقايا بعض النباتات في بلدة تسمى سوق (بالســـقطرية-شيوك) والتي يعتقد أنها كانت عاصمة لسقطرى في الماضي. أما الآن فإن سوق قريـــة صغيرة، معظم سكانها من أصول إفريقية ويعيشون في اكواخ من القش أو فـــي بيـــوت شيدت من شظايا الشعب المرجانية. ولأن سوق تقع على شـــاطئ الـــهور فيحتمـــل ان السفن قد مرت هنا في الزمن القديم، وهنا أيضا" كان قد عاش الأغريقيـــون الأيونيـــون الذين كتب عنهم المؤرخون العرب والأغريقيون.

وجد الباحث الإنجليزي ن-أور في جبال سقطرى أطلال بناية، بناها دون شك شعب اكثر تطورا من سكان الكهوف الحاليين، ومع ذلك لايمكن التأكيد بأن هذه أطلال مبـــاني مسيحية تحديدا ويعتقد أور أنه كان هنا مصلى حجري.

يبدو لي ان وجود مستعمرة إغريقية في الجزيرة حقيقة مسلم بها، ومن المحتمـــل أن الأغريقيين خاصة دفعوا السكان الأصليين لإعتناق المسيحية. وها هو التاريخ كمـــا يرويه ياقوت، كما لو أن الأغريقيين لم يرغبوا في الزواج من النساء المحليات ولذلـــك انقرضوا، لايتوافق مع الحقيقة. ومع ذلك فإن السؤال عن مصير المستعمرة الأغريقيـــة، كما عن غيرها من الأشياء في انتظار البت.

لقد وجدت منشآت أخرى أيضا" تشهد على درجة التطور الرفيع للسكان الأصليـــين القدماء في الجزيرة، فبالقرب من فيراجي عثر على بقايا طريق قديمة مرصوفة، وطريق أخرى مبلطة بالأحجار مؤدية الى وادي حديبو وجدت في الجزء الأوسط من الجزيـــرة، وهي الآن مهملة ومجهولة، كما اكتشفت في قشن عدة مدرجات من الحجـــارة تشـــابه بعضها البعض، بنيت بدقة كبيرة.

أما اللقية الهامة فقد عثر عليها بالقرب من الطريق المؤدية من غبه الى قلنســـية، على بعد ثمانية كيلو مترات تقريبا" من المرتفعات الجبلية المشهورة بأسم جبال عبـــلان، وهي حفرة عميقة طبيعية في الأرض (في سلسلة جيرية) على شكل دائري قطرها نحـــو ثلاثين مترا، ووجدت في الأعلى بقايا بناء حجري شغلت مكانا" دائريـــا" متحـــدا" مـــع المركز. وفي رأي مدير مصلحة الآثار في مستعمره عدن ب. دوو فإن هذه بقايا منشأت سقي أو خزان مياه.

ومن على الطائرة رأى دوو أيضا" ساحة حجرية مربعة محاطـــة بجـــدار حجـــري واطئ وذلك على المنحدرات الجبلية الى الغرب من قلنسية.

---

(1) الحنابلة والشافعيين – اتباع مدرستين من أربع مدارس سنية ، والحنبليون من المدارس الأكثر

وللأسف لم تتطابق بعد الأحجار التي عثرعليها في سقطرى مع العلامات الهندسية التي تماثل أحرف الأبجدية العربية القديمة، وهـذه الأحجـار، كمـا يعتقـد البـاحثون، استخدمت بمثابة هياكل.

وهكذا فإن شهادات المؤرخين القدماء، ليست دقيقة وواضحـة بمافيـه الكفايـة، ولازالت الآثار التي وجدت في الجزيرة عن الحضارة المادية في الماضي قليلة جدا" بعد، حتى يمكن البت على وجه الدقة في المسائل المتعلقة بالتاريخ السلالي لسكان الجزيـرة: من هم الجزء، من السكان، الذين يمكن اعتبارهم السكان الأصليين للجزيرة؟ ومن أيـن ومتى جاؤا الى الجزيرة ؟ وكيف تشكلت شخصية السقطريين على إمتداد القـرون مـن وجودهم؟

حتى الآن لازالت كلمات بلفور، الذي ترأس بعثة علمية جادة عملت على مدى سته أسابيع في الجزيرة عام ١٨٨٠م، أساسية:

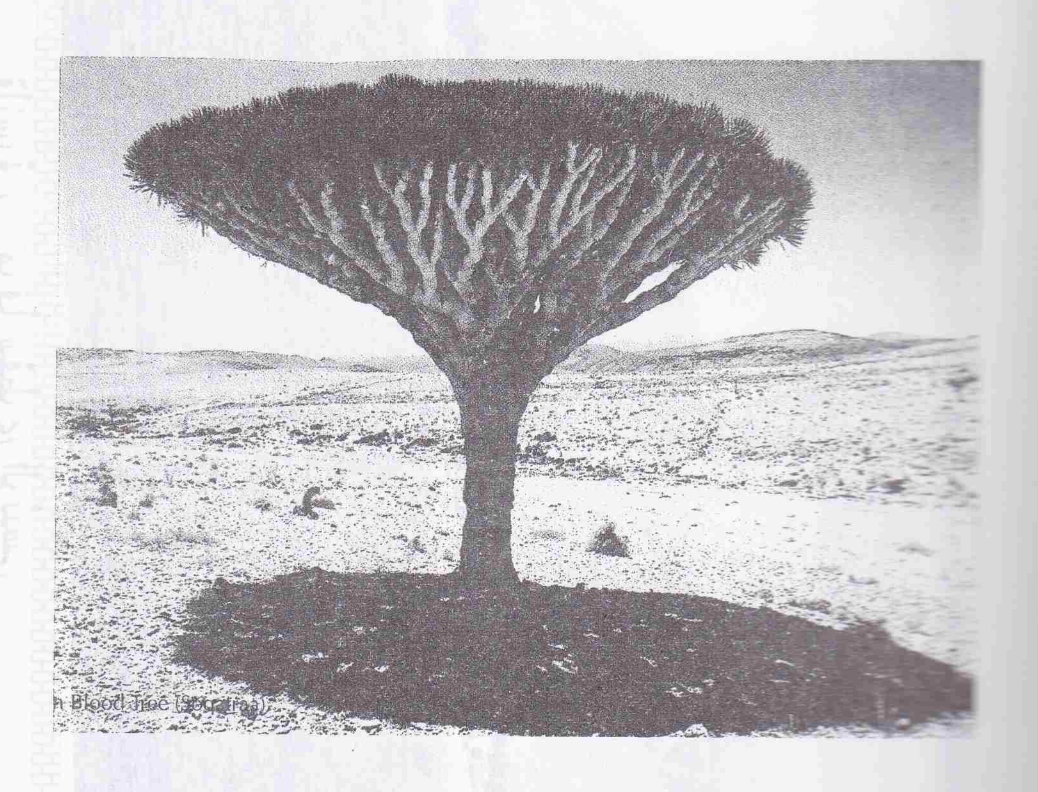
".. إن ماقامت به البعثة ليس الإ جزءا" مما ينبغي عمله.. إتفق أن وصلنـا مـن انجلترا الى الجزيرة بعد ثلاثة أسابيع.. يعيش هنا شعب ضاع أصله في الأساطير، ولغته لاتشير الى قرابتها المباشرة، وقد بلغ في الأزمنة القديمـة، كمـا ورد فـي المصادر المتوافرة، درجة حضارية في التطور، واعتنق المسيحية، ثم فقد هذا المسـتوى وعـاد القهقرى.. وتوجد في سقطرى وحدها في الوقت الحاضر وفرة لمواد البحث والدراسـة التي ستعوضها البعثات القادمة".

وفي العام ١٩٥٦م، وضعت بعثة اكسفورد إحدى مهامها، جمع عينات الدم للسكان المحليين بغية تحليلها لاحقا" في معهد ليسترون في لندن، وقد قـامت بـهذه المهمـة بنجاح، فقد وصلت الى لندن ٩٩ عينة في شكل مجمد (حملت البعثة معها إلى الجزيـرة ثلاجة كيروسين كبيرة أدهشت السكان المحليين)، وعادة فإن تحليل الـدم يعطـي، فـي بعض المؤشرات، موادا" واسعة لدراسة السمات العرقية وقرابة منشـأ هـذه أو تلـك المجموعة السلالية، لكن تحليل دم السقطريين لم يعط أية معلومـات مثـيرة، وأوضـح العلماء فقط ان تركيب دم السقطريين أكد على " نقاوة أصلهم العربي". وبغية الحصـول على معلومات متكاملة لابد من إجراء مقارنة في تحليل الدم لكل الجماعات السكانية فـي الجنوب العربي، وبشكل خاص المهريين والظفاريين، ومن المهم إثبات مستوى قرابـة السقطريين والمهريين والظفاريين إذ أن منشأ لغاتهم والوحدة التاريخية تؤكد أنهم أقوام قريبة النسب بعضها لبعض، ومع ذلك فليس بالمستغرب أن يحمل إلينا العلم مفاجـاءات أي كانت.

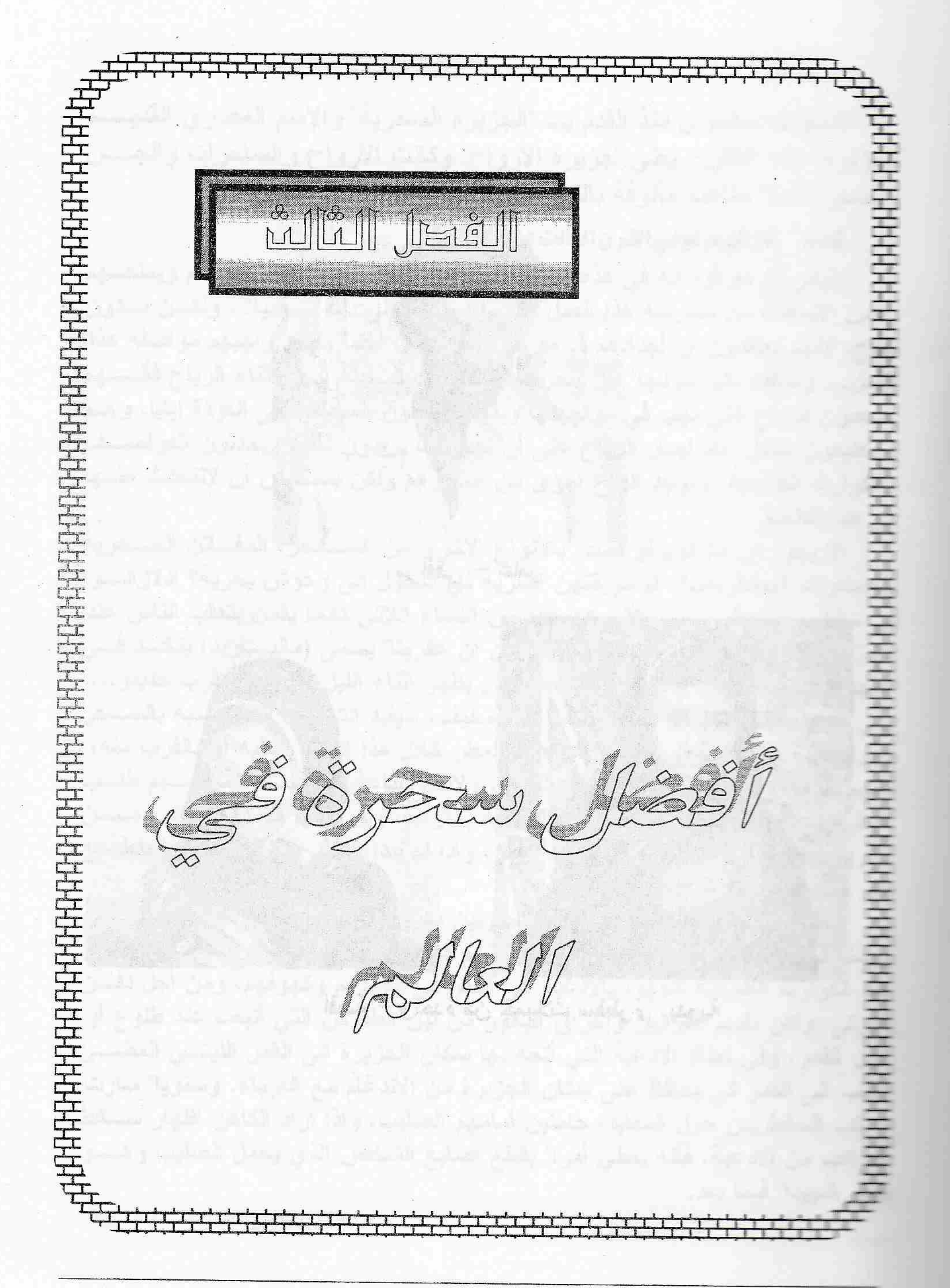
ذات مرة وقفت على ساحل البحر قبيل غروب الشمس، في الهور المحاط ببيـوت قرية سوق الصغيرة، أتأمل في التاريخ السقطري في مختلف العصور:

هاهي سفن قديمة عجيبة تبحر الى الشاطئ، يسمع منها الحديث المصري...إنـهم تجار البخور جاؤا من مصر القديمة إلى" بلاد بونط " .. الى الشـاطئ يذهـب حرسـهم وعبيدهم حاملين حزم البضائع.. وتمر القرون فتطأ الجزيرة أقدام المحاربين اليونـانيين والجنود الرومان... ومن الشرق تسارع السفن الهنديـة، تدفعـها الريـاح الموسـمية

السريعة، محملة بالحبوب والجاريات، وفي الشاطئ تنتظر الهنود دروع السلاحف وأكياس صمغ "دم الأخوين".. ومن جديد تتغير الشخوص، فهاهم البحارة العرب الذين لوحت سيماءهم الشمس، ينزلون في الأهوار، طافحين عزما" وحزما" لنشر الدين الإسلامي بين سكان الجزيرة.. هنا في الوقت الحاضر، مكان مقفر هادئ، وطبقات الماء الخفيفة تضطرب بالكاد في أمواج عند الشاطئ.. وببطء تميل الشمس للغروب وتصبح أرجوانية اللون وتنعكس على صفحة الماء فيصطبغ كل مايحيطها بلون قرمزي عميق، تذكرنا هذه الألوان بالماضي الدموي لجزيرة البخور.

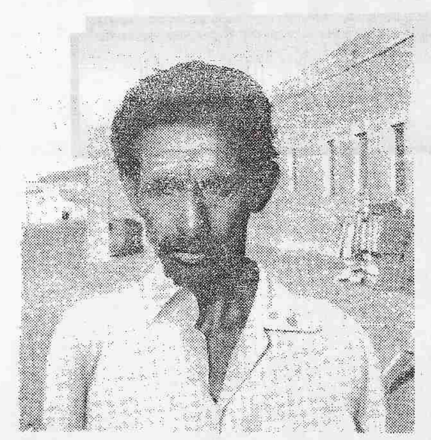

n Blood Tree (Socotra)

قلنسية ،   مرفأ سقطرى الرئيسي



الفصل الثالث

أفضل سحرة في العالم



مرافقي - عامر





أفينة - واحدة من جميلات سقطرى . بدوية

اشتهرت سقطرى منذ القدم بـ "الجزيرة السحرية" والإسم المصري القديم للجزيرة -با- انتش- يعني "جزيرة الأرواح" وكانت الأرواح والساحرات والجن والسحر دائما" مفاهيم مألوفة بالنسبة للسقطريين.

كتب ماركوبولو في القرن الثالث عشر الميلادي:

"ينبغي ان تعرفوا أنه في هذه الجزيرة يعيش أفضل سحرة في العالم ويمنعهم رئيس الأساقفة من ممارسة هذا العمل هنا ما أستطاع إلى ذلك سبيلا"، ولكن بدون نجاح، لأنهم يعتقدون ان أجدادهم قد مارسوا هذا العمل أيضا"، وان واجبهم مواصلة هذا العمل... وسأقدم لكم نموذجا" من سحرهم، فاذا كانت السفينة تبحر أثناء الرياح فأنهم يصعدون الرياح التي تهب في مواجهتها وبذلك يرغمون السفينة على العودة إيابا. وهم يستطيعون بشكل عام إجبار الرياح على أن تهب كما يريدون ذلك، ويحدثون العواصف والكوارث الطبيعية. وتوجد انواع أخرى من أسحارهم ولكن يستحسن أن لانتحدث عنها في هذا الكتاب".

ألا يجوز ان ماركوبولو قصد، بالأنواع الأخرى من السحر، المفاتن السحرية للحسناوات السقطريات؟! أم طريقتهن السرية في التحول الى وحوش بحرية؟ إذلازالوا في سقطرى يتحدثون حتى الآن عن عدد من النساء اللاتي كأنما يقمن بتعقب الناس عند حلول الظلام ويفترسنهم. ويعتقد السقطريون ان عفريتا" يسمى (ماليارِيد) يتخذ في الظهور هيئة خفافيش وطيور، وأن أحد الجن يظهر أثناء الليل في الهور قرب حديبو... وفي عهد ماركوبولو نفذ عمليا" حكم اعدام مخيف، إذ يقيد الشخص المشتبه بالسحر ويترك لمدة ثلاثة أيام في رابية، فاذا هبط المطر خلال هذا الوقت، عليه أو بالقرب منه، فانهم يقومون برجمه بالحجارة حتى الموت. ولاتقل شناعة عن ذلك مراسيم طلب المطر. فحين يحل الجفاف، يختارون الضحية بالقرعة، ويتركونها في وسط دائرة من الأقرباء، ويرفعون الدعاء والأبتهالات للقمر، واذا لم يبدأ المطر بالهطول، قاموا بقطع يدي الضحية.

وحتى في القرن التاسع عشر فأن البدويين ذكروا تفاصيل طقوس عبادة القمر التي وجدت في وقت ما لدى أسلافهم، ويروون انهم في بداية الصيام، في وقت الجفاف أو عند الكوارث الطبيعية اتجهوا بالأدعية الى القمر في معابدهم وكهوفهم، ومن أجل دفن الموتى. وكان تقديم القرابين وإحراق البخور من بين الطقوس التي أتبعت عند طلوع أو أفول القمر. وفي تعداد الأدعية التي أتجه بها سكان الجزيرة الى القمر الليلي المضئ الطلب الى القمر كي يحافظ على سكان الجزيرة من الأندغام مع الغرباء. وسنويا" سارت مواكب السقطريين حول المعابد، حاملين أمامهم الصليب، واذا أراد الكاهن إظهار سخط الكواكب من الأدعية، فأنه يعطي أمرا" بقطع أصابع الشخص الذي يحمل الصليب وهو يعتبر شهيدا" فيما بعد.

والى الآن بقيت في اعتقادات السقطريين وعاداتهم آثار عبادات الكواكب والنجوم التي كانت منتشرة في الزمن القديم بين سكان اليمن، من السبأيين والحميريين، وحتى الآن، فاذا ما وقع الجفاف فأن سكان القرى الجبلية يجتمعون عند الشفق في المروج، يرددون الأناشيد الأبتهالية وينحرون ضحية من الأغنام، ومع ان الجبليين يتجهون بدعائهم إلى الله لإنزال المطر، فأنه ليس من الصعب الحدس ان الله هنا يحل محل الألهة القديمة، القمر. وبالمناسبة فإن القمر يعتبر إلى الآن من الكواكب التي يجلها العرب، ورثة السبأيين والحميريين.

وفي سقطرى يوجد سحرة يحرزون البخت من خلال القمر والنجوم ، ويعتقد السكان المحليون، ان بأستطاعة هؤلاء السحرة معرفة مصير الأنسان وكذلك إستجلاب المطر أو إرسال الأمراض للأنسان والبهائم.

ويمكن تتبع آثار العبادات القديمة في طقوس أغاني السقطريين، فحتى الآن تحتل الأغاني مكانة هامة وكبيرة في حياتهم، وترافق الأغاني سكان الجزيرة في كل مكان، في الأعراس وفي المأتم، وفي أثناء هطول الأمطار وفي مواسم الجفاف. الحياة والموت، الأفراح والأتراح جميعها مصحوبة بالتغاريد والأغاني، ولكل حدث أغانيه الخاصة. ومن دون شك فإن دراسة الفلكلور السقطري يمكن أن تكشف النقاب عن ماضي اليمن، كواحدة من المناطق التي شهدت في الماضي ميلاد حضارات عظيمة. وبالتأكيد فإن الفلكلور السقطري قد تراكم خلال مختلف العهود، إذ يوجد فيه ماهو أكثر قدما، وذلك الذي جاء به المهريون فيما بعد ثم ماجاء به الوافدون الى الجزيرة في المراحل الأخيرة.

طلبت من مرافقنا عمير أن يغني لنا بعض الأغاني الطقوسية وكنت أعرف عن وجود أناشيد إبتهالية عن المطر يتجه بها السقطريون إلى الله، كما توجد أغاني للأعراس، وأخرى لدفن الموتى وغير ذلك من الأغاني المناسباتية، وافق عمير على الغناء بسرور مزهوا" بنفسه، وتصنع هيئة الرجل الضليع بالطقوس السقطرية القديمة، لكنه قال:

نحن لانحب أن نغني للأجانب، لأن لغتنا وأغانينا هي كل مانملك، ولانريد أن يعرف الغرباء لغتنا، وها أنت ترى الآن، إننا نستطيع العيش بهدوء وأن نتحدث فيما بيننا عن كل شئ دون أن يعرف غيرنا ماذا نقول.

بلى، حتى الآن لايوجد أوروبي واحد، بل ولا عربي واحد تمكن من دراسة اللغة السقطرية، فأحرفها غير الواضحة وغير الأعتيادية غريبة بالكامل، وتظل أيضا" سرعة الحديث السقطري غير مفهومة للآخرين.

ويخجل المتعلمون السقطريون بعض الشئ من لغتهم، بينما يعتزون بأجادتهم للعربية، وبحماس يجادلون انه مع تطور الجزيرة، وعلى الأخص، تطور النظام التعليمي في الجزيرة فأن كل السكان سينتقلون الى اللغة العربية. إنه مصير مؤسف ينتظر لغة مدهشة قديمة. وقد حاولت جاهدا" في كل مكان إقناع الأصدقا، بأهمية تدريس وتعليم

اللغة السقطرية في المستقبل في مدارس الجزيرة. وإيجاد كتابة سقطرية وعدم السماح لهذه اللغة بالإندثار.

... إستمرت أغنية عمير طويلا" بألحانها الرتيبة، ربما المملة بالنسبة للأوروبي، ويصعب التميز في كلماتها بين بعض الأصوات، وكأنما تتوحد جميعها في تيار صوتي معقد. وينطق البدويون معظم الأصوات في الغناء بفم شبه مغلق، تا- رام- را- را، تا- رام- را- را- را، ايقاع الأغنية واضح وبسيط، وهاهو عمير ينتهي من الغناء، رجوته أن يترجم الكلمات الى اللغة العربية، وبدا أن هذا الأمر صعب بالنسبة له، فعمير ليس قويا" باللغة العربية، ولذا اكتفى بشرح المضمون في عدة جمل.

وفي وقت لاحق تمكنت في عدن من الجلوس طويلا" مع آلة التسجيل وأثنين من السقطريين الشباب، العاملين في عدن، وقد سمعوا أغنية عمير، المسجلة في الشريط، بتوتر وجهد بالغ وطلبوا إعادة الأستماع للأغنية من العبارة الأولى، وحاولوا فهم كل كلمة وادراك الفكرة، ومع كل ذلك بقي الكثير غير واضح .

هذه لغة قديمة جدا"، قال أحمد، ومثل هذه الكلمات التي نسمعها في الأغنية، لايتداولها أحد تقريبا" الآن، وأنا لا أعرف ماذا تعني، لكنني أعرف تماما" ان أجدادنا تحدثوا هكذا.

والحقيقة ان الأغنية مهمة، وها أنا أحاول أن أقدم ترجمة تقريبية لها:-

من سيوبخ سوية معي هؤلاء الناس؟
عندما يموت أحد ما، يبكون عليه.
يصرخون "أواه"، "لقد مات" ويذبحون أغنامهم
لكن لماذا لايذبحون هذه النعجة من أجل المطر
الذي وهبه الله؟
من الأفضل أن يكون المطر هو ما تطلبونه بأسم كل الرسل
وليس تكريم الميت.
لماذا لاتتشفعون الى الله كي يهبكم المطر؟
اذا تشفعتم سيكون لديكم اللبن والسمن والحليب
كل من يتضرعون بأسم جميع الرسل، طيبون
لكن ليس أنتم يامن تنحرون الأغنام على الأموات
لأي شئ تعملون هذا من أجل الميت؟
اذا لم تضحوا بالأغنام من أجل المطر
سيبتلعكم البحر وتنشق الجبال من تحتكم
عندما قد نزل المطر، أنتم تقولون: لامطر
ينزل الله عليكم رحمته وانتم لاتقدرون ذلك
اذا ماوهبكم الله الرحمة
يجب عليكم أن تشكروه على ذلك

انني أنصحكم، أولادي
اذا ذهبت النعجة من هنا الى مكان بعيد
لاتوقفوها في الطريق لذبحها
فلتذهب الى مكانها
ربما ان قلبها مشدود الى ذلك المكان
هي ستجد الأعشاب لتأكلها
هي سترعى سوية مع البقرة
هي ستجد قطعة متشربة بالماء
فتمتص منها قليلا" من الماء وتركض.
اذا ما أوقفتموها في الطريق لتذبحوها
ان الله سيعاقبكم على هذا
ستموتون جميعكم، وتبقى النساء فقط بدون رجال
كل إنسان أعطي شيئا" ما من الخيرات
لذلك من يملك نخلة واحدة فأنها تعطي الثمار
في موسم الحصاد
وحين يحل المساء يقطعها هو
ويأتي أيضا" تسعة أشخاص ويقطعون الأغصان مع الثمار
يشبعون فيأخذون معهم ويحملون الى بيوتهم.
اذا كانت عند أحد هنا نعجة واحدة فقط
يعتبرها ناقصة
يحلبها هو فيملأ قربة من جلد جدي صغير
هو يرتوي منها ويرتوي جميع أهل بيته
وكل من يريد
حتى المريض يرتوي من لبن النعجة.

في هذه الأغنية كثير من الأشياء غير الواضحة، ولكننا نجد فيها ليس بالقليل مما يوجب الأهتمام، وهكذا، ففي مستهل الأغنية يدافع أحدهم، كما يبدو، عن وصايا الأسلاف، ويدعو الى عدم نحرالأغنام في ولائم تأبين الموتى، والأكتفاء بذبح الأغنام فقط عند صلاة الأستسقاء لطلب المطر (أو بمثابة شكر لله على المطر). ترى هل يمكن تفسير هذا بأنه إعتراض ضد العادات الوثنية القديمة، من قبل حملة العادات الأسلامية والأيمان بالله، وبشكل خاص ضد نحر الأغنام في ولائم الدفن ؟. ام ان مضمون الأغنية، دعاء قديم الى الله كي يهبهم المطر ؟.

الجدير بالإعتبار، إن هذه الأغنية تخاطب ضمائر السقطريين الجبليين، الذين انتشرت بينهم سرقة الأغنام والماعز في مواسم الجفاف. وهي تقنع بعدم حلابة أو ذبح

النعاج التي تأتي من بعيد، لأن الله يعاقب على ذلك، وإذا أردت ان "تستعير" فمن الأفضل حلابة أغنام الجار، لانه سيحلب في المرة الأخرى أغنامك.. هكذا هي أخلاق الجبليين.
وهناك أساس للأعتقاد في ان السقطريين عبدوا في العهود القديمة الأحجار، ونذكر ان الأحجار الكريمة، النيزكية والبركانية الأصل، كانت احد أشكال الأعتقادات العربية القديمة، وهذا مارواه المؤلفون الأغريق والرومان.
ومنذ زمن طويل، قبل ظهور الأسلام في القرن السابع الميلادي، إشتهر في الجزيرة العربية حجر النيزك الضخم "الحجر الأسود" الكعبة المقدسة، التي سجد لها سكان المحليون، وكان ايمانهم قوي للغاية في ربانية أصل الكعبة، حتى ان نبي الأسلام محمدا (ص)، الذي حرم كل الأوثان العربية القديمة، لم يشك في ألوهية "الحجر الأسود" وغدا إجلالها جزءا" أساسيا" في العبادات الأسلامية، وتتجه سنويا" الى الأماكن المقدسة في مكة في شهر الحج أعداد هائلة من المسلمين لأداء فريضة الحج والطواف حول الكعبة.
الرائد الأنجليزي صبنصركوك، الذي أمضى في سقطرى اثنى عشر شهرا" في الخمسينيات، أشار الى ان السقطريين حتى الى ذلك الوقت قد حافظوا على عادات عبادة الأحجار.
ويحتمل ان الدائرة الحجرية الغامضة، التي تعتبر حسب تقديرات دوو بقايا لنظام السقي، وكذلك أيضا" الأحجار والمعابد التي رأها الرحالة في غرب الجزيرة، ذوات صلة بعبادة الأحجار، وذلك لأنه لاوجود لأية آثار أخرى تدل على التطور الزراعي في الجزيرة، ومعروف أن الزراعة تتطلب بشكل خاص إنشاء منظومات الري. والتسليم بوجود الزراعة اعتمد أساسا" على أن السبأيين الذين انتقلوا الى الجزيرة، في زمن ما، كانوا مزارعين، وكذلك على حقيقة أن الظروف الطبيعية للجزيرة صالحة للتطور الزراعي.
إن لدى سكان الجزيرة إيمان راسخ جدا في نفوذ القوى الخارقة، ولذلك تسمى الجزيرة حتى الآن بـ"جزيرة الآرواح" أو "جزيرة الأساطير"، وبالطبع، يمكن هنا وباستمرار سماع الأساطير والروايات، عن الوجود الخارق للجن والأرواح وهي تسمى بالسقطرية ديدهين (في المفرد، ديدهي) ويعزون الى تأثير هذه الكائنات، الكثير مما حدث للناس، عدا ذلك فأن السقطريين يعتقدون ان بعض الناس لهم قدرة التأثير العجيب ويستطيعون التفاهم مع الأرواح وإخضاعها حسب إرادتهم.
لقد رووا لي انه في زمن الأنجليز (رابطت في الجزيرة على مدى عدة سنوات قاعدة القوات الجوية البريطانية) هجمت "روح" على أحد الأنجليز أثناء نومه في الجبال.
– ديدهي بترت له كل أطرافه، هكذا دون حتى ان يراها أحد – يقول لي شعرهر، رعوي مسن من حجهر – وأرسل الأنجليز لأنقاذ المسكين جرادة كبيرة (طائرة مروحية).
– أليس هذا الديدهي، أيوبي بي (ياوالد) من قريتك؟ قلت أنا ضاحكا".
لكن وجه الشيخ بقي مبهما"، وقال لي بعتاب:

- من يقدر أن يعمل ذلك غير ديدهي؟ ان رجالنا لم يتجرأوا الـــهجوم علـى الأنجليز.
- ولماذا؟ سألته أنا
- ان ذلك الشخص الذي يسئ معاملة الأنجليز يقتله السلطان، أجاب شعرهر
- وهل يمكن للسلطان أن يجد المذنب؟ أن من يستطيع الوصول اليكـم قلـة، قلت متعجبا".
- ماذا دهاك، ان السلطان محب للمشى، وقد تسلق الجبل مع كـل حاشـيته ولايمكن الهروب منه- أجاب الشيخ العجوز.

وحتى إلى اليوم، فإن السقطريين يعتقدون أن الشيطان يتجـول فـي الليلـة الهادئة في الجبل، وهم يخشون كذلك الجبال سيئة السمعة في جنوب شرقي الجزيـرة. وتنتشر في الجزيرة حكايات عن أناس مسخوا إلى حمير و" قطـط المسـك" وصقـور الجيف، وكذلك عن الموت والأمراض التي يستحضرها السحره ، وهم يخافون "الساحرة" بصورة جعلتهم ذات مرة يقترحون على ضابط بريطاني أربع بقرات حلوب وستة تيوس إذا قتل الساحرة.

وصف العقيد الأنجليزي إ. سنيل، المحاكمة الأخيرة للساحرات في سقطرى، الـذي أتفق له أن يكون شاهدا" لها عام ١٩٥٥م:

"كما يكون دائما" في تلك الأماكن، حيث الساحرات يعتبرن جزءا" متعارفا" عليه من السكان، ففي سقطرى يمكن ان يتهمون الإنسان بالسـحر ببسـاطة، بدافـع الحنـق أو الإنتقام والثأر أو الكراهية. وعلى هذا الأساس، ففي كل عام يقدم للمحاكمـة مـن ١٥-٢٠ شخصا"، وهم يعتقدون هنا أن الرجل يمكنه أن يمارس السحر مثله مثـل النسـاء، لكنني لم أسمع أبدا" أنه قد وقف أمام المحكمة ولو رجل واحد. تعرض الأتهامات أمـام زعماء القبائل وكبار القوم أو أمام السلطان نفسه، وتتم كـل المحاكمـات فـي حديبـو عاصمة الجزيرة.

بعد أن يضعوا المتهمات تحت الحراسة في حديبو، يدرس السلطان أو من ينـوب عنه في الحكم أثناء غيابه بكل اهتمام أسباب الإتهام وصحة الإثباتات والبراهين ، وبقدر الأمكانية أخلاق المتهم والمدعي، ومن ثم إذا رأى المسألة جادة بما فيه الكفاية، يكلـف شخصا" يتم أختياره بشكل خاص للقيام بالمحاكمة أوالأختبار.

ويتم إختيار هذا الشخص المختبر (لا أدري كيف نسمية أفضل؟) من بيـن نصـف درزينة آخرين ممن يعتبرون مشهورين. وبقدر ما أستطعت التحقق منـه فليـس مـن الضروري أن يكون هؤلاء مشهورين " بالوراثة " رغم إنهم يمكن أن يكونوا كذلك، ومع ذلك فإنهم ينبغي أن يملكوا موهبة "طرد الأرواح الشريرة من المجـانين" وعـادة فـأن هؤلاء الناس يعتبرون في ذات الوقت أطباء محليين (حكماء)، ويحصل الشخص الـذي يقوم بالأختبار على أربعين روبية مقابل عمله. ويتم في البداية استدعاؤه إلى بين يـدي السلطان، حيث يؤدي القسم على القرآن في مايلي:

أ- انه مسلم مؤمن.
ب- أنه بنفسه ليس ساحرا".
ت- أن لايقوم أثناء الأختبار بأي عمل يعرض مهمته للشك.
ث- أن يقوم بالإختبار بكل عدالة ودقة.

وهذا القسم، تحديدا"، يتناقض مع التعاليم الإسلامية، ويعطي أيضا" دليلا" آخر على تذبذب عقيدة سكان الجزيرة.

بعد ذلك يطلبون المتهمة ويسألونها هل تعترف هي بنفسها بتهمتها في السحر أم انها لاتعترف. وعلى العموم فأنها تستطع الأعتراف في أي وقت من الأختبار، وعلى هذا الأساس، تكون "أدانت ذاتها" واعفيت من الأختبار. واذا لم تعترف بذنبها، فأنهم يكلفون الشخص المحدد ليهيئها للأختبار الذي سيكون في صبيحة اليوم التالي بحضور كل سكان المدينة وكل من له الرغبة في التواجد. وأثناء الليل يقوم صاحب الأختبار ومن معه من المكلفين بتقييد المتهمة بالأيدي والأرجل بحبال قوية، ثم يثبتون كيسين في كل منهما خمسة أرطال من الحجارة، يضعون الأول على صدرها والآخر على الخصر، ويلفون في الأخير حول خصرها نهاية الحبل الطويل وتنتهي بهذا عملية التهيئة.

وفي الفجر يضعون المتهمة في زورق ويحملونها الى مكان محدد عند الشاطئ، مسافة ميل الى الشرق من حديبو، وهناك ينقلونها في القارب. وفي البحر يقودها صاحب الأختبار ومساعدوه الى ان تصل الى المكان المحدد، حيث عمق الماء بحدود خمسة عشر قدما"، وعمق البحر في هذا الموقع منحدر جدا"، ولذلك فأنهم يبعدون الى مسافة نصف ميل عن الشاطئ.

ويبدأ الإختبار، حيث يخرجون المتهمة من القارب ويرمونها في البحر، ويرخون الحبل الطويل الملتف حول خصرها، فاذا أتجهت مباشرة الى القاع، فأنهم يجرونها نحوهم الى القارب ويفحصون فيما اذا التصقت بها حبات الرمل من الأسفل، فاذا وجدوا أي أثر للرمل، يكررون تغطيسها مرتين، واذا أتجهت المتهمة الى القاع فهذا يعني انها اجتازت الأختبار، ويعلنون براءتها، أما اذا كانت ساحرة فأنها تعوم على سطح البحر بوضعية عمودية بحيث تبقى الرأس والكتفان جافة، وتتحرك ببطء نحو الشاطئ الى أن تصل الى مكان ضحل قليل العمق.

واذا تم الأقرار بتهمتها فأنها تقف أمام السلطان مرة أخرى للأستماع الى العقوبة. وفي الأزمنة القديمة نفذ دائما" حكم الأعدام على الساحرة، أما في الوقت الحاضر فينتظر الساحرة النفي من الجزيرة، فيرسلونها بسرعة، تحت الحراسة، الى مدينة قلنسية (ميناء غرب الجزيرة تمر فيه الزوارق غالبا") ويركبونها في أول زورق عابر بغض النظر عن وجهته، ويدفع أقرباء المحكوم عليها مقابل إبعادها، أو من أموالها، ويسمح لها بأخذ الأموال المنقولة، أما أبناء هذه المرأة فيبقون في الجزيرة.

في نوفمبر ١٩٥٥م جرت محاكمة ثلاث نساء، واحدة منهن عجوز في السبعينات من العمر، اعترفت قبل دقيقة من بدء الإمتحان على الشاطئ انها "ساحرة" وحسب

العرف فقد "حكمت على نفسها" وأعفيت من "التغطيس" في البحر، أما المرأتان الأخريتان فسبحتا" في الشاطئ وأعتبرتا مذنبات.

وبحدود معرفتي فلم تتخذ أية أجراءات ضد المدعين الذين يدحض الأختبار دعواهم، وسبب ذلك ينحصر في أنهم حقيقة لايعتبرون مدعين وانما فقط "أولئك الذين يخبرون عن الأعمال المشبوهة" أما فيما يتعلق بالأختبار الفعلي، فطالما أن كل التحضيرات له تتم سريا"، فيصعب الحكم فيما إذا أخفى صاحب الإختبار عوامة ما تحت ثياب رثة. ومن المحتمل جدا" أن صاحب الإختبار يستخدم عوامة ما إذا كان هو نفسه مقتنع بذنب المتهمة.

وفي كل الأحوال فإن هذه الممارسات لازالت توجد في الجزيرة، وأنا موقن أن النساء المنحوسات الحظ، اللاتي تم الأقرار بأنهن مذنبات، لايأسفن لأنفسهن، لأنهن مقتنعات أنهن ساحرات بذاتهن، ولذلك فإن العقوبة عادلة في نظرهن.

وأحيانا" تبرز ظروف معقدة حين يرجع موظف قنصلي حي الضمير السقطرية المبعدة مما يسبب الأسى والحسرة لدى السلطان الذي لايملك أية سلطات دولية لكي يعرقل هذا ".

وتتداول الكثير من الأساطير عن قدرات سكان الجزيرة على مخالطة القوى المشبوهة، وهاكم واحد منها:

تزوجت إمرأة من قشن من رجل سقطري، ولكنه هجرها فعاشت هي وحيدة سبعة أعوام، وأصبحت كئيبة حزينة، وذات مرة شكت مصيرها الحزين لصديقاتها التي كانت تستحم معهن في جدول للمياه، في يوم من أول أيام شهر محرم، ثم رقصت بعد ذلك على ضوء القمر. واقترحت عليها إحدى صديقاتها الذهاب عشية اليوم التالي لوحدها إلى شاطئ البحر، وقالت لها أنها ستجد هناك وحشا" بحريا" ضخما"، ينبغي عليها أن تركب عليه وسوف يحملها إلى زوجها. خافت المرأة ولم تقرر الذهاب. لكن صديقتها كررت نصيحتها مرة أخرى، وقالت لها إنها في هذه المرة لن تقابل وحشا" وانما طائرا" كبيرا"، عليها أن تجلس على جناحيه وسيطير بها الى الوجهة التي تتمناها هي، وهذا ماحصل، وقد قضت المرأة الليلة مع زوجها، وقبل أن تتأهب للعودة الى البيت، قررت أن تحتاط، على كل حال، بأثباتات ملموسة عن رحلتها تلك، فأخذت معها خلسة جنبية وخاتم الزوج، وبعد فترة قليلة أدركت أنها حامل، وكما توقعت، أغتاب جيرانها لهذا الأمر، وعند ذلك عرضت عليهم جنبية وخاتم الزوج.

ولقد وجد في الجزيرة "كاشف الكذب" لأختبار إستقامة وصدق الأنسان، ومن الواضح انه عربي الأصل، وقد إستخدم جمرة عادية. ففي لسان المتهم بالكذب يضعون الجمرة الساخنة، وإذا صدر عنه عويل أو صراخ، يعتبرونه مذنبا" ويحكمون عليه بالموت. أما إذا لم تؤلمه الجمرة فأنهم يقرون براءته ويطلقون سراحه. ومثل هذه العادات كانت منتشرة أيضا" في أوساط البدو في الصحاري المصرية.

غالبا" ما يسترعي الباحثون الأهتمام الى كثير من المسائل التي تميز سقطرى عن بقية الدول الإسلامية، فترقب الساحرات غير مشهور في الوطن العربي، لأن الاسلام

لايعترف بالقدرات السحرية للإنسان العادي، ويستخدم هنا برهان آخر، فانعزال الجزيرة ومقاومة التأثيرات الخارجية ولدت نزعات غير عادية. والتاريخ الديني لسقطرى، مزيج من الوثنية والمسيحية والإسلام. وعلى الأرجح فلا توجد ولا واحدة من هذه العقائد هنا بشكل نقي، بل تتداخل مع عناصر الأخرى دائما". والى الآن، ففي الوقت الذي يسود فيه بين كل سكان الجزيرة الاسلام، المذهب الشافعي، نجد هنا عدة خصوصيات.

إن الحياة الدينية وعقائد السقطريين، التي عانت من التأثيرات الكثيرة، لم تدرس بعد الا قليلا". وهي تعد لغزا" غامضا"، يفتح شهية منتهزي الفرص، الجرئيين جدا"، فالباحثون العرب يعتبرون أن السقطريين مسلمون منذ زمن طويل، ويبحث آخرون في ثقافة السقطريين عن آثار للديانة المسيحية وتقاليدها، وهناك طرف ثالث يعتبر أن الأعتقادات القديمة بقيت في نفوس السقطريين وانهم لم يأخذوا من العقائد الأسلامية الآ القشور الخارجية فقط، وحتى هذه ليست بالكامل، فالمساجد لاتوجد في الجزيرة الآ في البلدات الكبيرة مثل حديبو وقلنسية، وينعدم وجودها في الأرياف، ولاحظت مثلي مثل من سيقوني أيضا"، إهمال السقطريين إزاء عدد من الفروض الأسلامية وبشكل خاص الصلاة المنتظمة.

توجد وجهة نظر، فحواها أن المسيحية نجحت في أيجاد جذور عميقة لها في الجزيرة، وان الأسلام لم يتمكن من إزاحتها بالكامل. وتصف احدى الأساطير المنتشرة تقليديا"، طلبات السقطريين الكثيرة الى القديس فوما، الذي وجد نفسه في الجزيرة في الطريق الى الهند، لدخول المسيحية، ويروون ان سفينتة تعرضت لحادث تحطم، وتم بناء أول كنيسة مسيحية هنا من حطامها. وعندما وصل في العام ٥٢٤ قبل الميلاد الى سقطرى الراهب الأغريقي كوسما انديكوبليفست، قادما" من أثيوبيا، وجد أن المسيحية قد ترسخت في الجزيرة، وان المسيحيين السقطريين قد خضعوا للكاثوليكوس النسطوري في بابل. ومن القرن الثالث عشر الميلادي، ذكر ماركوبولو ان سكان الجزيرة مسيحيون، ولهم مطرانهم (رئيس الأساقفة) الذي لايخضع لروما، ولكنه يعترف بالسلطة العليا لرئيس أساقفة بغداد.

لقد عثر مختلف الرحالة على مدى مئات من السنين على بقايا الديانة المسيحية في الجزيرة، أحدهم هو مؤلف برتغالي ذكر في القرن السادس عشر "أن السقطريين يسمون أنفسهم مسيحيون ولكنهم لايعرفون المواعظ ولا الأدعية ولاالتعميد، وهكذا ليس لديهم من المسيحية سوى الإسم فقط"، وحتى ذلك الوقت فأن السقطريين إحتفظوا في محاريبهم الكنسية بالصليب وحملوه على صدورهم، وكان في كل قرية كاهنها الخاص الذي يردد الصلوات ويحرق البخور، وقد ردد السقطريون غالبا" كلمة "اليلويا" وهزوا خشخيشة خشبية بدلا" عن رنين الأجراس.

وفيما بعد قرن من الزمان عثر القس الكرملي فينشينتسو على آثار المسيحية في الجزيرة. وعلى الرغم أن السكان -كما يبدو- قد اعتنقوا المسيحية، فأنهم تقريبا" لايعرفون عنها شيئا"، واتبعوا في الممارسة مراسيم هي مزيج عجيب، فقد ألهوا القمر ومنعوا إستعمال المشروبات المسكرة والخنزير، واتبعوا الختان، ومع ذلك فقد احترموا

الصليب وحملوه في مقدمة كل نشاطاتهم. وأشار الأب فينشينتسو أنهم كانوا يجتمعـــون في كنائسهم الصغيرة المظلمة والوسخة ثلاث مرات في النهار وثلاث مرات في الليـــل. وأدهش القس الكرملي إحراقهم البخور في الكنائس وقيامهم بدهن المحراب الكنسي كـل يوم بالسمن البقري ووضعهم الصليب والشموع على المحراب. وبين السقطريين، كمـــا يشير، كان السحر منتشرا"، ومع تقدمهم في السن كانوا غالبا" ينهون حياتهم منتحريـن. وكانت لدى كل أسرة مغارة خاصة لدفن موتاها، وكان السقطريون متشددين في أحاديـة الزواج، أي الزواج من واحدة.

في عام ١٥٤١-١٥٤٢م،عند مازار سقطرى، فرانسيسك كسافي، خلال رحلته الى الهند، لم يكن هناك رئيس أساقفه ولا قساوسة، رغم ان شعائر الخدمة الدينية إستمرت أربع مرات يوميا" بأنتظام، وبقي القليل جدا" من آثار المسيحية، ووجـد فرانسيسـك ان السقطريين لايمارسون أكثر طقوس التعميد، رغم أنهم حفظوا إشارة الصليب.

ظلت بقايا آثار المسيحية في سقطرى حتى القرن التاسع عشـــر، وبـــالقرب مـن إيريوش عثر على أطلال بنايات مستديرة، ربما كانت كنائس.

ويعتبر بعض الباحثين أن المسيحية في الماضي لم تتجذر في سقطرى ولم تتمكـن أن تتأصل في الوسط السقطري ولا معنى الآن، مطلقا"، للبحث عن شئ ما من رواسـب وبقايا الطقوس والمعتقدات المسيحية في الجزيرة. ويـــرى بوتينـــج ان ديانـــة سـكان الجزيرة يمكن اعتبارها وثنية- اسلامية، ويبدو لي أن تصور ذلـــك أمـــر صعـــب، لأن الأسلام قد إحتوى على كثير من معتقدات سكان الجزيرة العربية ما قبل الإسلام. ولاحـظ بوتينج ان السقطريين ينطقون الصلاة بلغة عربية ركيكة مكسرة، ولايفهمون ماتعنيـــه، ولكن أليس كذلك تصلي الكثير من الشعوب الأسلامية التي تنطق الآيات القرانية ولاتفهم اللغة التي كتب بها القرآن.ومن جانب آخر فأن بوتينج على حق: إذ انه لم يتسن بعـد، وقد لايتسنى العثور على شئ ما من بقايا المسيحية في المجتمع السقطري المعاصر.أما فيمـــا يتعلق بالعادات والطقوس القديمة التي تعايشت في الجزيرة فأنها تحتاج الى دراسة خاصة.

الأرجح أن البحث عن آثار المسيحية ينبغي أن يكون في المعالم الأثرية للعصـــور القديمة، وليس في طقوس وعبادات الناس.

في خمسينات هذا القرن، ذكر س .كوك انه عثر في الجزء الغربي للجزيرة علــــى "معبد على غرار الدائرة الحجرية المفروكة بأرجل وأرداف كثير من الناس" هذه اللقيـــة تماثل كنيسة مسيحية صغيرة بدائية، رغم ان هذا المعبد يمكن ان يكون قد وجـــد قبـل المسيحية، ومهما كان ذلك، فمن الواضح ان هذا المعبد قد بني قبل ظهور الأسلام.

جاء المهريون بالأسلام الى سقطرى، وقد سيطروا على الجزيرة في عدة موجـات، ووجد البرتغاليون في العام ١٥٠٧م المسلمين في الجزيرة، وبعد خروجهم غلب الأسلام هناك نهائيا".

وفي عام ١٨٠٠م نزل الجزيرة اتباع المذهب الوهابي([1]) الذين أسسوا فيما بعد المملكة العربية السعودية، وهدموا كل الأضرحة والكنائس والمقابر على الشاطئ القريب من حديبو، وفرضوا رقابة مشددة على السكان، لأداء الفرائض والواجبات الدينية الملزمة على المسلمين، ولكن تفاصيل هذا النزول المفاجئ غير معروفة للأسف، رغم انه من المحتمل ان تكون المؤلفات الوهابية قد حفظت أية اثباتات وشواهد عن هذه الصلة وتأثيرها على سكان الجزيرة.

ومع ذلك فأن السقطريين لايعطون الآن للواجبات الدينية الآ القليل من الأهتمام، وقد حدثني سكان قرية دعرهو انه يعيش في منطقة رأس مومي "مسلمون سيئون يصلون ولايصومون أبدا"، رغم ان هذا يمثل الحد الأدنى من متطلبات الديانة الأسلامية من المسلمين المؤمنين.

ولم تؤكد بعد الأبحاث والتنقيبات الأثرية ان السقطريين المسيحيين قد عاشوا في الزمن القديم ليس فقط في جبال حجهر وانما في مناطق الهضبة الجبلية بالقرب من رأس مومي، ومن المحتمل ان تعرف البعثات اللاحقة شئ ما جديد عن هذه المنطقة.

خشي السقطريون بشدة "عين السؤ" وربما يوضح هذا فزعهم امام آلة التصوير، ومع ذلك فاذا وافق الرجال على التقاط صور لهم، فأن التقاط صورة للمرأة أمر مستحيل تقريبا. وحتى بعثة اكسفورد، التي مكثت طويلا" في الجزيرة والمجهزة جيدا"، لم تستطع أن تصور ولا إمرأة سقطرية واحدة. وذات مرة ترقب أحد أعضاء البعثة "القيمة" في زاوية الشارع، على أمل ان يلتقط لها صورة عند خروجها من الركن، من دون ان تدرك المرأة انه يصورها. ومع ذلك فأن السقطريات أظهرن رد فعل سريع حين رأين آلة التصوير، وركظن مسرعات قبل أن يتمكن المصور، سيء الحظ، من الضغط على ترباس آلة التصوير.

قبل بضع سنين، جاء الى الجزيرة الصحفيون الكويتيون، الذين رافقهم عمير أيضا" الى ناحيته في الجبال، الى دعرهو، وقد أراد مبعوث مجلة "العربي" سليم زبال أن يجعل من صورة الحسناء الأولى في القرية، جارة عمير "تمه" التي فتنته، " صورة الغلاف"، وبدون مساعدة عمير الذي تمكن من إقناع الفتاة كي تتصور، لم يكن باستطاعت الملايين من قراء واحدة من أكثر المجلات المصورة شهرة في الوطن العربي أن يروا الصورة الملونة للحسناء السقطرية. مرت بضعة أشهر، وعرفت تمة ان صورتها قد ظهرت على الورق ويشاهدها الكثير من الناس، وهكذا إهتزت الفتاة، حتى ان بشرة وجهها وصدرها إصطبغت بلطخات حمراء، ثم بدت تورمات فيما بعد وأصبحت الفتاة في حالة مشوهة يرثى لها، وغدا من المستحيل معرفة " نجمة الغلاف "... وحاليا" يستحيل إقناع فتاة ما من فتيات دعرهو للوقوف أمام الكاميرا والتقاط صورة لها، لأنهن متيقنات انه سيحل بهن مصير تمه.

---

[1] الوهابيون اتباع المذهب الديني- السياسي الذي ظهر في الإسلام في نهاية القرن الثامن عشر، يسعى الوهابيون تنقية الإسلام من البدع التي ظهرت خلال تطور الإسلام .

أما صورة أفينه الفتاة الرشيقة البيضاء، من حديبو، فقد تمكنا من التقاطها فقط، بعد ان أقسمنا لها اليمين (في غياب الزوج) ان صورتها ستذهب الى بلاد الشمال البعيدة، وان أحدا" من المواطنين لن يراها أبدا".

في الطريق من موري الى قلنسية وفي جوف سيارة نقل تمكنت من التقاط صورة لأمرأة أخرى، ومع تعجبي الشديد، وافقت بسرور على أن تتصور،وربما كانت أرملة أو عابرة سبيل، وتشابه بملامح وجهها الهنديات، وتميزت كثيرا"عمن حواليها من النساء، اللواتي ماإن ظهرت في يدي آلة التصوير حتى حجبن رؤسهن بالمناديل وسط ولولة وعويل.

ويتخذ الرجل موقفا" خاصا" تجاه مظهر زوجته، وقد حكوا لي كيف أن أحد الضيوف الأوربيين في الجزيرة، أراد ان يجامل شخصا" معروفا" في حديبو، قائلا" له ان زوجته جميلة بصورة غير عادية. وسرعان ما تغير الصاحب البشوش أمام عينيه.. لماذا زوجته جميلة؟... ماذا يعني ذلك؟ سأل الرجل ضيفه، ومن ثم أوحى اليه بأنه قد حان وقت الأنصراف. ان مثل هذه "المجاملة" وغيرها من ملاحظات الرجل الغريب الخاصة بمظهر الزوجة تعتبرها إهانة.

واحدة من الوساويس في سقطرى، والمعروفة للباحثين، ان سكان الجزيرة غالبا" يغطون أفواههم بشريط من القماش الموثق إلى الأذنين، وأحيانا" يجمعون اللحية ويحولونها الى مايشبه الكمامة في الفم، ومبعث كل هذا الخشية والخوف من الذبابة الأسطورية القاتلة (دي عسر) التي كأنما يموت الأنسان بمجرد ابتلاعها. ويؤكد السقطريون ان (دي عسر) ذبابة ولودة، تضع يرقات وليس بيضا"، ولكن لم يتيسر لأحد من الرحالة ليس فقط رؤية هذه الحشرات الضارة، وإنما حتى معرفة حادثة حقيقية لموت انسان من جراء إلتهام الذبابة. وفي حجهر قابلت أيضا" أناسا" بأفواه مغلقة مربوطة، وألقوا علي نظرات حب الأستطلاع، الى درجة الإقتحام لعدو غير مرئي. ولم يغط المسنون منهم أفواههم فقط ، وتفسيرهم لذلك، إن التجربة الطويلة علمتهم أن يسمعوا طنين الذبابة فيغلقون الفم في نفس اللحظة.

وقد ذكر بوتينج أيضا" عن ربطات الفم، كما حاول الطبيب المبعوث، أثناء فترة العمل في الجزيرة، اكثر من مرة الحصول على أثر ما لهذه الذبابة المشؤومة، ولكن بلاجدوى. وذات مرة وقع حادث مهم، إذ جاء تاجر اللؤلؤ راكضا" الى الطبيب وكأنما قد ابتلع ذبابة ضارة، إرتجف أهل الرجل من الفزع، وتأهبوا ليكونوا شهود موت شنيع. ترجى التاجر الطبيب لينقذه، ومع ذلك فأن محاولات الطبيب لم تسفر عن وجود أية آثار للذبابة في الكائن الحي المنكوب. إن تاجر اللؤلؤ لم يبق حيا فقط وانما اظهر صحة جيدة يحسد عليها. وهكذا فأن اعضاء البعثة أعتبروا، كل الحكايات عن هذه الذبابة مجرد شعوذة، ويرى طبيب البعثة أن السقطريين يعللون بذلك الألتهاب الرئوي.

ويبدو لي ان الدفاع من الذبابة هو وقاية خاصة وطقس سحري حكيم مرده إنتشار شيء ما، في الجزيرة، من الأمراض المعدية، على سبيل المثال فيروس الزكام أو مجموعة متكاملة من الأمراض، وهو ما يتأكد في كون السقطريين يعزون الى هذه الذبابة سيئة الصيت مختلف الأمراض. فمثلا" يعتبرون ان الذبابة يمكن أن تضع الترياق

في العيون أو الأنف أو في جوف فم الإنسان وعندها تصاب هـــذه الأعضـــاء بمختلــف الأمراض، وفي هذه الحالة فأن المرضى حسب نصائح الطبيب المحلي (الحكيم) ينظفـون الفم والحلق بصبغة منقوع التبغ أو يستخدمون وسائل أخرى للمضمضة بغية القضـــاء على " اليرقات "، ومن البديهي ان كل هذه الأمراض لا تتصل كليا" بالذبابة. وتوجد لـدى جميع الشعوب طقوس سحرية قديمة وتعاويذ لمواجهة الأمراض. وأحيانا" تحمـل هـذه الطقوس في ذاتها نواة عقلانية، على سبيل المثال، الأنذار من الأختلاط مـع المرضـى المعديين، وقلما لم تعد بفوائد ملموسة.

وتضاهي وقاية الفم من الذباب لدى السقطريين طقوس أخرى لدى مـــا يسـمون بعرب المستنقعات، الذين يعيشون جنوب العراق في الأراضي المليئة بالمستنقعات، وذكر الباحث المعروف ويلفريد تيزيجر، المتخصص بهذه الجماعة الأثنية، وقـد مكـث فـي المستنقعات عدة سنوات، انهم عندما يختنون الطفل يسدون فتحتي أنفه بخرقة، ويعلقون بصلة حول عنقه ولايأكلون السمك والزبادي والبطيخ، ويمتنعون عن شـرب السـوائل، ويقللون من جرعات الماء في اليوم طالما لم يشف الجرح، وهم يعتقـــدون ان رائحـة الخبز الساخن يمكن أن تضاعف التهاب الجرح. وهنا نفس الشروط الأولية: فعند غيـاب مواد التعقيم وعند المخالفة العامة لقواعد الصحة فأن أية جراح من السهل ان تتـــأثر، ويعالجون هذه الأمراض بالشعوذة ويستخدم المجتمع البدائي الطرق السحرية للوقاية منه.

هناك طابع تقليدي لأحد أنواع العلاج في سقطرى (الحجامة-المـــترجم) اذ يعمـل الطبيب الشعبي عدة حزوز في راس الشخص المريض ، ويمص الدم من خـلال قـرن خروف، وتصاحب العملية حركات إيمائية معينة وتعويذات (تستعمل قرون الخروف فـي التطبيب" المحلي، وهي تستخدم كذلك كأوعية يتم وضعها على جسم المريض، بعـد أن تكون قد بقيت مدة معينة فوق النار).

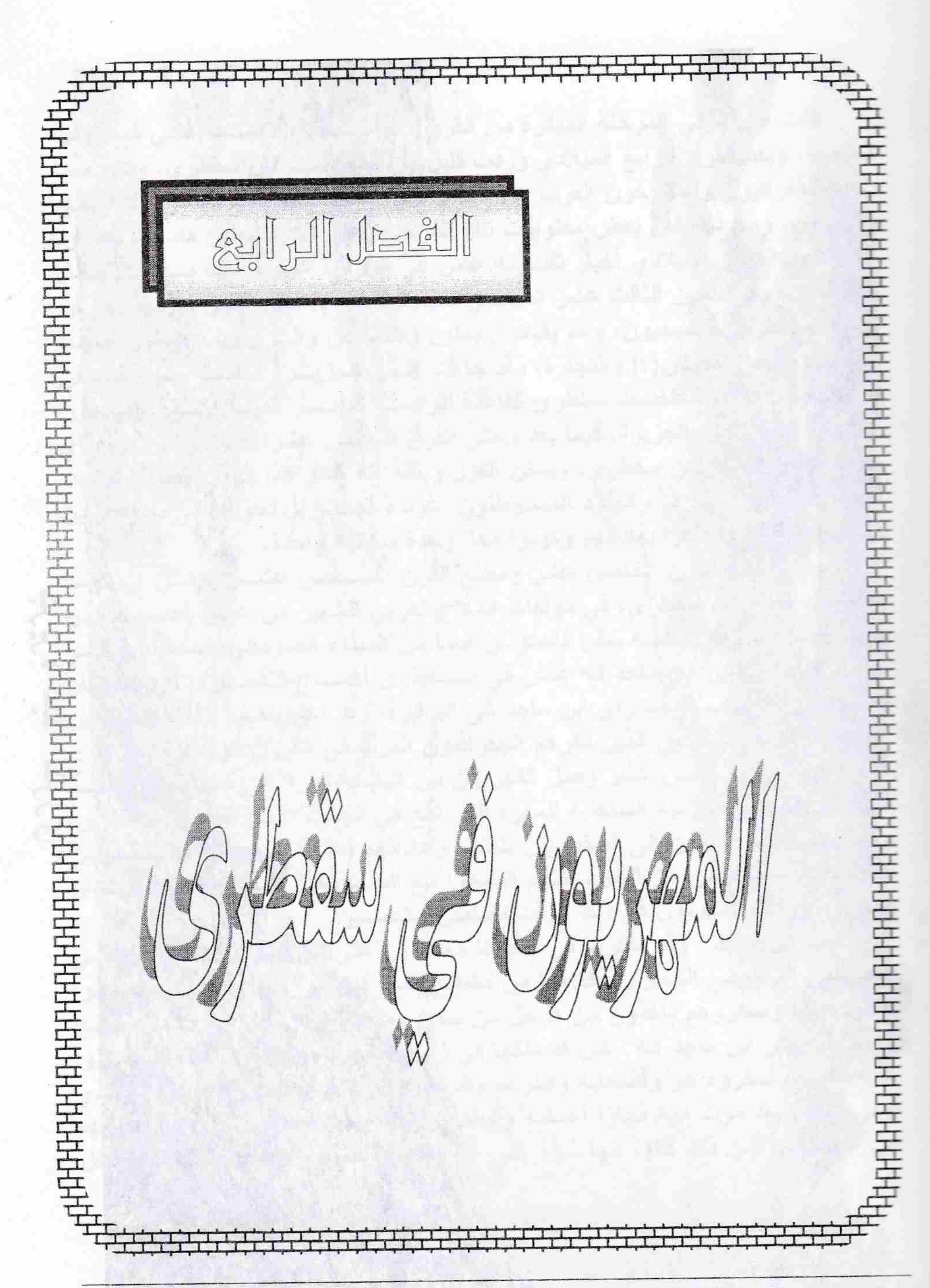
ذكر تقرير بعثة اكسفورد أيضا" طقسا" مزعوما" آخر للعلاج فـي سـقطرى، هـو الدهان بالطين الأبيض، لكن حين كنت في الجزيرة إتضح لي أن هذه الطريقـــة ليسـت سحرية على الأطلاق (وهي بالمناسبة لاتنتشر على نطاق واسع في الجزيرة). ببسـاطة، توجد بالقرب من حديبو رواسب الطين الأبيض، وتملـــك خـواص العـلاج النـاجع، إذ تستخدم في معالجة الأمراض الجلدية، وقد اشتبه هنا على علمـــاء اكسـفورد العـلاج العادي مع طقوس سكان الجزيرة.

ومن غير شك أن مراسيم الختان تعود الى العادات العربية العامة القديمـة جـدا"، ودراسة هذه الطقوس لدى السكان الأصليين في سقطرى مسألة في غاية الأهمية للبحث العلمي، وبشكل خاص لتحديد نمط الثقافة اليمنية القديمة وتأثيراتها في تكوين الحضـارة العربية الأسلامية. ولم يلق هذا التأثير حقه من البحث والتقييم في علم الأستشراق حتى الآن. لأن الحضارة القديمة في اليمن لم تدرس الآقليلا" بعد، ويعتقد بعض البـاحثين أن عادات الختان كانت منتشرة في اليمن منذ الأزمنة القديمة، وبـاحثون آخـرون يبـدون تحفظات على ذلك.

يتم ختان الطفل لدى سكان المناطق الساحلية في سقطرى في سن الخامسة الى السادسة، كما هو متبع في العادات الإسلامية، ومع ذلك حافظ الختان أيضا" على خصائص الطقوس الوثنية لأختبار الرجولة، التي تتم عادة مع بلوغ النضج الجنسي، من سن الثانية عشرة الى الرابعة عشرة، ويعتبر يوم الختان لدى الجبليين عيدا" كبيرا"، لأن الفتى الغض يغدو فيه رجلا"، وكنت قد سمعت منذ فترة عن خصوصية هذه العادة العربية القديمة على الطريقة السقطرية، واعطتني الرحلة الى الجزيرة إمكانية مشاهدة ذلك بأم العين. الجدير بالذكر ان الختان لم يعد يتم إجراؤه لدى العرب المسلمين بطريقة احتفالية، وفقد منذ زمن طويل صلته بالطقوس القديمة التي يعود اليها، فيما لازالت باقية طقوس مماثلة لدى القبائل الأفريقية. أما في كثير من الدول الاسلامية فإن الختان يقوم به الجراحون منذ زمن طويل، ومثل هذه العملية الطقوسية كما في سقطرى، لن تجدها اكثر في أي مكان من الوطن العربي.

كنت قد سمعت عن الصعوبات التي تصاحب زيارة الأجانب والتواجد في مراسيم مماثلة في أفريقيا، وتوقعت أن أجد معارضة كبيرة لرغبتي في مشاهدة هذه المراسيم، وعندما طلبت من أحد الشيوخ المسنين في دعرهو ان يدعوني في أقرب يوم تستعد فيه القرية لـ "اختبار الرجولة " لعدد من الفتيان، اعترض العجوز بتردد، بحجة ان هذا غير ممتع وان الطقوس لم تعد كما كانت، ثم انه لايعرف بنفسه متى سيحين موعد مثل هذه الطقوس. ومع كل ذلك وبعد أيام قلائل دعيت للحضور.

هاهو يوم الأحتفال قد حان، اجتمعت كل القرية في المرج، جلس الرجال في المقدمة في نصف دائرة، ثم النساء من بعد كذلك في نصف دائرة، ومن الخلف الأطفال الصغار، وفي الوسط، قرب الصخرة المخصصة التي سوف يجلسون عليها الفتى، يقف الطبيب المحلي، وهو احدى الشخصيات المعتبرة في القبيلة، ويأتون بالشاب، نجم الحفلة، الى ناحية الصخرة، ويجلس الفتى عليها مشبوك الأرجل وفي تلك اللحظة يبدأون بقرع الطبول، وعلى إيقاعها يغني الرجال والنساء تشجيعا" للفتى:" اليوم سوف تختن، وتصبح أنت رجلا".. اليوم سنذبح الكثير من الأغنام ونحتفل بميلادك " وتتسارع دقات الطبول، ويقترب الشيخ من الفتى بسكينة مشحوذة بحدة، هي ببساطة قطعة حديد مسطحة ركب لها مقبض من قرن الماعز، وبمثل هذه السكينة يذبحون الماشية ويقطعون الشجيرات، ومن خلال حركة أو حركتين تكون عملية الختان قد أنتهت، ويجلس الشاب بلا حراك، رغم الألم، لأن الشرط الرئيسي هنا هو الثبات ورباطة الجأش، وعدم الأرتعاش أو الصراخ، حتى لا يذاع صيته بأنه جبان أو طفل لم يبلغ مبلغ الرجال، وتساعده الأجواء الأحتفالية والأغاني والتغاريد التقليدية ودقات الطبول المرتفعة على الأحتمال، ولايوجد مايوقف الدم، وحين تنتهي المراسيم يأخذون الشاب الى الكوخ، وتنحر أسرته خروفا" وتدعو كل الجيران الى الضيافة، وبعد عدة أيام يكون الرجل حديث العهد يؤدي أعماله، يحلب ويرعى العنزات ويمخض السمن.


الفصل الرابع
المصريون في سقطرى



جزيرة عبد الكورى

ظلت أوروبا في المرحلة المبكرة من القرون الوسطى منهمكة في شؤونها الخاصة، وبعد القرن الرابع الميلادي وردت قليل من المعلومات عن سقطرى. وكان ما رواه الجغرافيون والمؤرخون العرب عن الجزيرة في الغالب إعادة لما ذكره الإغريق والرومان، ومع ذلك فأن بعض معلومات تلك المرحلة، على الأقل، تعتبر هامة. وتعود الى القرن العاشر الميلادي أخبار تفيد انه عاش في الجزيرة عشرة آلاف من الرجال المسلحين، وفي القرن الثالث عشر الميلادي كتب الرحالة الإيطالي الكبير ماركوبولو، أن جميع السقطريين مسيحيون، وهم يقتاتون باللبن والسمن والرز ويمارسون صيد الأسماك وقنص الحيتان(؟) والتجارة، وقد جاءت إلى الجزيرة الكثير من السفن التجارية، عدا ذلك استخدمت سقطرى كقاعدة لقراصنة البحار الذين كانوا يبيعون غنائمهم على سكان الجزيرة. فيما بعد وحتى القرن السادس عشر الميلادي لم يورد أي ذكر محدد أو دقيق عن سقطرى. ويمكن القول وبثقة انه خلال هذا الزمن الطويل لم يعد أحفاد اليونانيين والعرب والهنود المستوطنون "غرباء أجانب" بل تحولوا الى سقطريين وتحدثوا بلغتهم وتخلقوا بعاداتهم وكونوا معا" وحدة سكانية واحدة.

وفي نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر يمكن ان نجد معلومات هامة عن سقطرى، في مؤلفات الملاح العربي الشهير من عمان أحمد بن ماجد (فيما بعد رافق بنفسه سفن فاسكودي جاما من الميناء الصومالي ماليندي الى ساحل الهند)، يشير ابن ماجد انه عاش في سقطرى أهماج النصارى أي السكان المسيحيون، الأقرب حسب رأي ابن ماجد الى البرابرة، وقد اعتبر هؤلاء السقطريين "البرابرة" أحفاد الأغريق الذين ذكرهم الجغرافيون العرب في القرون الوسطى.

في القرن الخامس عشر وصل المهريون من اليابسة بحرا" الى سقطرى، وهم قبيلة في المناطق العربية الساحلية للمهرة التي تقع في الجانب الآخر المقابل لسقطرى. وكما يبدو فأنهم قريبون الى السقطريين بلغتهم وعاداتهم (على الأرجح ان السقطريين كانوا كذلك مستوطنين من اليمن، لكنهم اندمجوا مع المستوطنين المتأخرين من البلدان الأخرى)، وكان المهريون في ذلك الوقت مسلمين متحمسين.

كتب ابن ماجد: "وقد ملكوها في عصرنا محمد بن علي ابن عمر بن عفرار وبني عبد النبي السليماني الحميري وكلاهما من مشائخ المهرة، وبنوا فيها حصنا" وحكموا بعض أهلها وسخروهم يأخذون من الرجل من سمن ومن الامرأة شملة([1]) من نسج بلدهم" ثم يذكر ابن ماجد انه " كان قد ملكها في زمان العباسية رجل من العجم فأحتالوا عليه أهلها وأسكروه هو وأصحابه وقتلوهم وقد قتلوا أحمد بن محمد بن عفرار الذي تولى عليهم بعد موت أبيه فجاؤا أعمامه وقبيلته وأخذوا بثأره وسخروهم وولوا عليهم ابن عبدالنبي، فمن ذلك قالوا انها شؤم على من ملكها، وهم قوم وطيين الجانب اذا دخل

([1]) شملة– تسمية سقطرية للحاف ، وتعتبر من اهم المواد التي تنتجها الجزيرة الان .

عليهم الغريب يعرضون عليه الماء والزاد ويعرضون عليه ثيابهم ونساءهم ومن ملاحظات هذا الملاح الشهير، يتبين انه في عام ١٤٨٩م كانت سقطرى قد وقعتوحاكمة عليهم امرأة، وأما تزويجهم بيد قسيس النصارى الذين يسكنون الكنايس ويقيمون بها بمشورة تلك الأمرأة فأنقضى ملكها في عصرنا وضعفت ".

في قبضة المهريين. ولعلهم لم يتمكنوا من فرض رقابة مباشرة على كامل الجزيرة (عن هذا كتب ابن ماجد، وتؤكد كثير من الأحداث اللاحقة فيما بعد أثناء الأحتلال البرتغالي) ولذا إكتفوا فقط بفرض الضريبة العينية على السكان. ولقد وجدت بين المهريين والسكان الأصليين عداوة معينة يؤكدها مقتل الشيخ المهري على يد السكان الأصليين، وليس غريبا" وصف ابن ماجد للسيادة الخاصة للأم. فقد كان ذلك طبيعيا" في درجة معينة من تطور المجتمع، وكما يذكرون فلا زال الزواج حتى الآن لدى بعض القبائل الجبلية في الجزيرة يتم حسب رغبة وخيار المرأة.

انطلقت للسيطرة على سقطرى قبيلة " بني عفرار" المهرية التي عاشت في منطقة المدينة الحالية " قشن " على شاطئ الجزيرة العربية، كتب البرتغالي باروش انه حتى الأحتلال البرتغالي، أي حتى عام ١٥٠٧م كانت سقطرى قد خضعت ستة وعشرون عاما" لحكم سلطان قشن. وعلى هذا الأساس فأن السيطرة المهرية قد تمت تقريبا" في العام ١٤٨١م. وكان الحصن العسكري المهري، سوق، مركز سقطرى أنذاك، يقع الى الشرق من العاصمة الحالية للجزيرة حديبو، وكان قد بني قبل عام ١٤٨١م وأعيد بناؤه بعد الأحتلال البرتغالي. وكان الحصن يقع على بعد ٣٥٠-٤٠٠ مترا" من المرفأ في الرأس الذي سماه البرتغاليون تارة سوكو وتارة سوتو أو كوسو (كما يبدو ان الصيغة الأسبانية والبرتغالية مأخوذة عن العربية "سوق"). واستنادا" الى البرتغاليين وكذلك الى حقيقة ان المؤرخين العرب قد سموا هذا المكان أيضا" "سوق" فأن كل الباحثين (بما في ذلك العالم الأنجليزي المتخصص في دراسة المدونات التاريخية الحضرمية في القرون الوسطى ر.ب سيرجنت) يعتبرون ان هذه التسمية أصلية. وفي اللغة السقطرية فان كلمة سوق قد أقتبست في الحقيقة، من اللغة العربية، وربما انه قد وجد سوق بالقرب من المرفأ، ومع ذلك فأن السقطريين أنفسهم يسمون هذا المكان "شيوك" وهو مالاصلة له بالسوق في أي حال من الأحوال، وكما يبدو لي فهو يماثل إما الكلمة السقطرية "شكو" أي المسلح أو الجذر "شيوكي" أي "كن قريبا"- إقتراب" (وفي الحالة هذه الأقتراب من البحر).

لقد أشار المؤرخون العرب في القرون الوسطى، على سبيل المثال ابن المجاور والهمداني، ليس فقط الى المرفأ، وانما الى وجود مدينة بأسم " سوق" ويصف ابن المجاور هذه المدينة. وعن الحصن في سوق، الواقع الى الشرق من حديبو، يذكر في العام ١٥٤١م البرتغالي جوان دي كاسترو، حتى انه نشر رسوما" له، كما حدد أيضا" ت- بينت ان سوق الى الشرق من حديبو.

بقي من الحصن الآن فقط كومة من الأحجار وجزء من بناء قرميدي، ولكنه كان في القرن الخامس عشر للميلاد منشأة دفاعية ضخمة بمقياس ذلك الزمن. وكما لاحظ

الكثير من المتخصصين في الهندسة المعمارية في اليمن، فأن الأطلال المتبقية تشابه طراز الحصون " اليافعية" التي لاتزال باقية حتى الآن في يافع([1]) وفي حضرموت، ويعد القصر السابق للسلطان الكثيري في سيئون، الى الشمال من عاصمة حضرموت، نموذجا" رائعا" لهذا الطراز المعماري. وحصون يافع مربعة الشكل أو مستطيلة وفي أركان جدرانها المستقيمة شيدت أبراج محصنة أسطوانية الشكل تعلوها فتحات صغيرة، ويسميها اليافعيون بناة هذه القلاع "حصن بمعاصيره" أي ذو ابراج.

ان أول من اكتشف حصن " سوق" حسب معطيات علماء بعثة اكسفورد هو مدير مصلحة الآثار القديمة في مستعمرة عدن د. ب. دوو، وكان طوله بحدود ٢٥ مترا" وعرضه ٢٠ مترا". على بعد مئة متر الى الجنوب الشرقي من الحصن الرئيسي، كان يوجد مبنى آخر على نفس الطراز، بقي منه، كما هو حال الحصن، جزء من البناء فقط.

كان البناء مثبتا" بمحاليل كلسية، ويبلغ قطر البرج في الزاوية الشمالية الشرقية للمبنى ٦،٣ مترا"، ويعتقد ان هذا ربما كان مسجدا"، وذلك وفقا" لأتجاه الحائط الشرقي للمبنى المستطيل الشكل أيضا". والى الشمال من خرائب المسجد المفترض، تقع بقايا كنيسة السيدة العذراء، التي بناها البرتغاليون في الحصن الشهير الذي احتلوه، بنيت هذه الكنيسة في موقع آخر لعمارة اكثر قدما"، ربما كانت كنيسة أو مسجد (رغم انها كمسجد غير صحيحة التوجه) ويعزز هذا بقايا أرضية كنيسة صغيرة قديمة وجدها علماء الآثار تحت الأولى. ولم يتبق من الأعمدة التسعة التي بنيت في البدء الا الأسس المبنى من الأحجار والمثبت بمحاليل كلسية، والعجيب انها كانت تمتلك مقاطع مختلفة (أي ان الأعمدة كانت مختلفة الشكل). ومع ذلك فأن الأعمدة تتكون من حيث الشكل من مربعات وأخرى من ثمان زوايا وثالثة بنجمة وعمود دائري، وقد احتفظت صورة هذه البناية في الرسومات التي وضعها في عام ١٥٤١م جوان دي كاسترو، والرسوم دقيقة جدا"، رغم إنها تتبع القواعد العصرية في المنظر والأبعاد، ويمكن حتى التعرف على قمم جبال حجهر، ولاتتبين فقط سوى القلعة عند جبال خواري وهي الجبال التي ترتفع فوق سوق.

كتب ت. بينت في عام ١٨٩٧م عن بقايا قلعة أخرى في وادي فيراجي الى الجنوب من حجهر، وبالقرب من القلعة خرائب واضحة لمدينة قديمة، ويتكون حائط القلعة من صخور ضخمة تبلغ ٣٠ مترا" بالطول، ومتر ونصف المتر بالارتفاع، وصل سمكها الى ثلاثة أمتار، ومن المحتمل ان البناة قد عرفوا كيفية رفع ونقل الأحجار الثقيلة، ومن المتوقع ان فيراجي كانت في القديم أشبه بمركز هام: فإما إنها وجدت في عام ١٩٥٦م

([1]) يافع منطقة جبلية في اليمن تسكنها قبائل اشتهرت منذ القدم بروح القتال والقوة، وتنتصب حتى الآن في جبال يافع ابراج الحراسة العالية ،التي بنيت تقريبا عند كل بيت ، وقد شيدت هذه الابرج بطرق بدائية ، ولكنها تدهش بدقة شكلها الاسطواني الذي يدل على المهارة الرائعة اليافعين محترفي البناء بالوراثة .

وصل الى تلك الأطلال، التي وصفها بينت، كل من ج. ويكلي، ب. هناك مزارع الأشجار التي يستخرج منها الصمغ او إنها كانت تزرع هناك نباتات عطرة الرائحة.

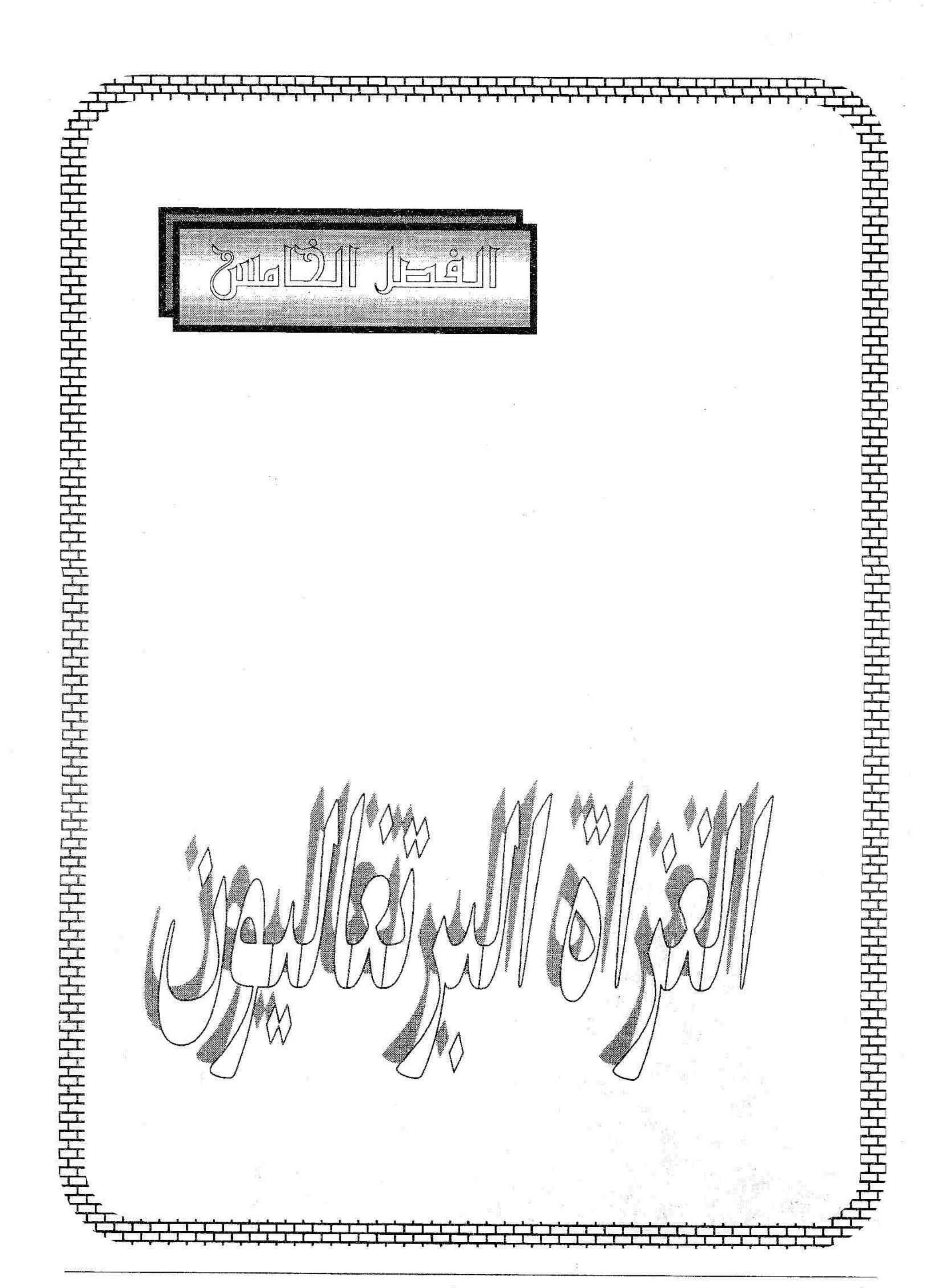
شيني. وكان الحصن يقع في نفس المكان حيث يضيق الوادي، شيدت البنايات من قطع أحجار غير ممهدة والقلعة في المخطط تشابه المثلث. ترتفع مجموعة الجدران ٣،٦-٥،٤،٥أمتار من الصخور الجرانيتية الضخمة ذات اللون الأحمر، توصل بين برجين ، وكان يقع تحت أحد الحيطان حوض صناعي، استخدم كما يبدو كخندق. وحين كانت المياه في الوادي كان يمتلئ منها. أما البرج الثالث فكأنما كان يقع على ارتفاع مثلث وبجانبه وجدت بقايا غرفة صغيرة وفناء داخلي وجزء من الحائط.

يرى أحد الرحالة ان هذه الأطلال بقايا قلعة برتغالية، ولكن شيني وصل الى إستنتاج يؤكد ان لا وجود لشيء من الخصوصية البرتغالية في هذه الخرائب. ومع ذلك يمكن القول، وفقا" لهندسة البناء وموقعه، وبثقة انه كانت هنا قلعة حصينة، ربما أستخدمها المهريون في زمن سيادتهم على الجزيرة كنقطة اسناد خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد. وتشرف القلعة بالكامل على الطرق الرئيسية من شمال الجزيرة الى جنوبها، وارتفعت في قلب أراضي السكان الأصليين، ولذلك كانت قاعدة نموذجية لتغلغل المهريين الى العمق أو للقيام بالحملات التأديبية المفاجئة. والحقيقة اننا لانعرف مدى فعالية مقاومة السكان ضد المهريين الذين ظهروا في الجزيرة، ويمكن التوقع ان السيطرة قد تمت بسلام تقريبا". والأهم من ذلك أن السقطريين لم يكونوا متعصبين للمسيحية حتى يمكن ان يقاوموا بفعالية وحزم إنتشار الأسلام.

ومع ذلك فسرعان ماقدر للشيخ المهري أن يعيش أوقات عصيبة، وهاهي "المذكرات التاريخية لشانبل" تذكر الأحداث الرئيسية لعام ١٥٠٧م:

" في هذا العام أستولى الكفار الفرنج على سقطرى وقتلوا هناك ابن الطوعري الزويدي مع خمسين من المسلمين وشيدوا هناك القلعة ".

وكما هو معروف لنا ان هذه الأحداث قد جرت في أبريل ١٥٠٧م، وبذلك إنقطع حكم شيوخ آل عفرار بضع سنوات بعد ستة وعشرين عاما" من حكمهم.



الفصل الخامس

الغزاة البرتغاليون



جزيرة دارسة وفي الخلف، جزيرة سمحا

كشف مطلع القرن السادس عشر عن مرحلة في تاريخ الجزيرة، عـرف عنـها، ربما، أكثر مما عن غيرها من المراحل. كان هذا زمن التوسع البرتغـالي فـي بلـدان حوض المحيط الهندي، وفي تلك الأعوام بـالضبط أنشـأ البرتغـاليون إمبراطوريتـهم الأستعمارية الواسعة، لكن قصيرة الأجل، في الهند وأفريقيا والخليج العربي.

إن البرتغال، التي كانت في القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميـلاد، إلـى جانب إسبانيا، القوة البحرية العظمى في العالم، قد بحثت ولزمن طويل عن طريق يوصل أوروبا بالهند، وطيلة القرن الخامس عشر شقت السفن البرتغاليـة رحـاب المحيطـات ووصلت الى أقصى الجنوب على طول الشاطئ الغربي لأفريقيا، وفي آخر الأمـر، فـي فبراير ١٤٨٨م، كان بارتولوميودياش أول برتغالي دار حول الطرف الجنوبي لأفريقيـا وولج المحيط الهندي.

وفي العام ١٤٩٧م جهز البرتغاليون حملة فاسكودي جاما، وفـي يوليـو ١٤٩٧م أبحرت من لشبونة سفنه الثلاث " سان- جبريل" و "سان- رفائيل" و "بـيريو" وسـفينة نقل صغيرة، وقد عبرت على طول الساحل الغربي لأفريقيا ووصلت الـى رأس الرجـاء الصالح، وواصلت الأبحار على طول الساحل الشرقي، وفي العام ١٤٩٨م وصلت الـى الميناء الصومالي ماليندي. وعلى هذا النحو كان البرتغاليون أوائل الأوروبيـين الذيـن اكتشفوا الشواطئ الجنوبية الشرقية لأفريقيا، وزاروا عددا" من المراكز السـاحلية فـي تلك الشواطئ (حتى ماليندي).

لكن شرف المأثرة العظمى في تاريخ الملاحة العالمية -عبور المحيط الـهندي- لا يعود، بمقدارما، لفاسكودي جاما، بقدر ما للملاح العربي الكبير أحمد بن ماجد، فقد أخـذ ابن ماجد موقعه على متن سفينة القيادة البرتغالية في ماليندي وبأرشاداته الملاحية قـاد السفن البرتغالية الى الميناء الهندي كالكتـا. وفـي نهايـة أغسـطس ١٤٩٨م، أقـام فاسكودي جاما صلات مع حاكم كالكتا واستقبل على ظهر السفينة شحنة توابل، ثم رحـل في طريق العودة.

لقد إكتسب اكتشاف الطريق البحرية المنتظمة إلى شواطئ مالابار الهندية أهميـة تاريخية كبرى للعالم أجمع، وجعلت البرتغاليين يستعمرون الكثير من دول آسيا. في عام ١٥٠٢م إتجه فاسكودي جاما من جديد الى الهند على رأس أسطول بحري مكون مـن عشرين سفينة، ووضع حجر الأساس لعدد من الحصون على شاطئ مالابـار، ونـهب الكثير من المدن، وأخضع بقسوة وفظاظة مقاومة السكان المحليين، ثم عاد الى لشبونة بالغنائم الثمينة الوفيرة. ولكن لم يكتشف البرتغاليون سقطرى لأنفسـهم إلا فـي العـام ١٥٠٣م فقط، على يد القبطان فرنانديش بيريو.

في العام ١٥٠٥م غادر ميناء لشـبونة أسـطول برتغـالي آخـر، تحـت قيـادة فرانسيسكودي الميدي، وكان على متنه الف وخمسمائة جنديا". وقاد الميدي أيضا" حملة إستعمارية اكثر إتساعا" في شرق أفريقيا. فقد تسلم أمرا" لأنشاء سـت قواعـد إسـناد عسكرية- تجارية في الطريق بين شرق أفريقيا والهند، وحقق الميدي السيادة الكاملـة للبرتغالين في المناطق الساحلية شرق أفريقيا.

استهل البرتغاليون علاقاتهم مع الدول الواقعة في هذه المنطقة من خلال التجـــارة وصولا" الى احتلالها فيما بعد. وفي ٥ أبريل ١٥٠٦م، وحسب أمر ملك البرتغال مـــانويل أبحر الأدميرال البرتغالي الشهير تريستان دي كونيا من لشبونة، على رأس أسطول مـــن أربع عشرة سفينة، متجها" الى الهند. وفي اليوم التـــالي رفـــع مســـاعده الفونســـودي البوكيرك العلم ولحق به أيضا" مع ست سفن، ثم اجتازوا طريق رأس الرجـــا الصـــالح، ولكن ما ان وصلوا الى ماليندي حتى أدركوا أن الوقت قد أصبح متأخرا" هـــذا الموســـم لأجتياز المحيط والأبحار الى الهند. وكلفت قيادة الأسطول البرتغالي جواسيســـها لجمـــع المعلومات عن الأماكن المناسبة للتوقف في موسم العواصف، وبعد مشاورات قصـــيرة قرروا الأتجاه الى سقطرى، والأنتظار هناك عدة أشهر حتى تتحسن حالة الطقس، عـــدا ذلك ان البرتغاليين اعتبروا سكان الجزيرة مسيحيين، وقرروا إنشاء حصـــن عســـكري هناك يمكنه ان يحمي الطريق البحري الى الهند. وهاهو ماحدث في يناير ١٥٠٧م، بعد إنقضاء عشرة أشهر على أبحار الحملة من البرتغال[1]:

" لقد أبحروا دون أن يمروا في أية بلاد، وأرسوا في سوكو (سوق-المؤلف) التـــي كانت الميناء الرئيسي في الجزيرة، وحيث عاش السكان الأصليون، وفي يوم عيد، مـــع الرايات الخفاقة على كل السفن، حيوا الجزيرة بالمدفعية، طالما ان سكانها مســـيحيون. ولكن ما أن شاهد تريستان دي كونيا القلعة التي بناها العرب هناك، والمحاطـــة بســـور وابراج محصنة مع برج مرتفع في الوسط، وهو مايختلف كثيرا" مع المعلومـــات التـــي حصلوا عليها من الملك مانويل، حتى أرسل في طلب الفونسو دالبوكيركي وكل قباطنـــة الأسطول، وأخبرهم أن سيده الملك قد أمره بتشييد قلعة في هذه الجزيرة ويكون قائدهـــا الفونسو نورونيو للمحافظة والدفاع عن المسيحيين الذين عاشوا في الجزيرة منذ عـــهد القديس فوما، وان الملك أمرهم بنشر أسم الرب في كل الأراضي التي سيطروا عليها".

كانت القلعة العربية في الجزيرة مفاجأة غـــير ســـارة للبرتغـــاليين، وبـــاءت كـــل محاولات التفاهم مع الشيخ، قائد القلعة، بالفشل، ولم يرفض العرب مغادرة القلعة فقـــط، بل ورفضوا بشكل عام التفاهم مع البرتغاليين، الذين لايعرفون من أين جاؤا. وعند ذلـــك قرر الأدميرال تريستان دي كونيا، مهاجمة القلعة، اعتمادا" على الحامية قليلـــة العـــدد (وعلى الرب أيضا")، كان الأنزال صعبا"، والبحر عاصفا"، ولاوجود لأيـــة حمايـــة مـــن الشاطئ، وقام الفونسودي البوكيركي باستطلاع الشاطئ بنفسه علـــى زورق و " وجـــد خورا" بجانب دغل النخيل حيث البحر اكثر هدوءا"، ورغم بعده نســـبيا"، قـــرروا الـــنزول هنـــاك ".

" أمر الفونسو ديلبوكيرك الكبير ابن أخيه دون الفونسو دينوروني أن يجعل زورقه على إستعداد، مع أربعين مقاتلا" من حملت المسكيت، وان يأخذ معه مدفعية وبارودا لها وقذائف واثنين من رماة المدفعية، وكذلك آلة رافعة وأثنين سلالم من الحبـــال لأقتحـــام

([1]) استخدمت هنا ويتبع لاحقا مواد كتاب الفونسو البركيركي:
Commentaries Of The Great Alfonso Dalboquerque , ed. By W. de Gray Birch . London , 1875 .

سور القلعة، اذا كان ذلك ضروريا"، وأعد نفسه للأبحار ورائهم على متن زورق مع انطونيودي نوروني، ودون جوان ليما وأخيه دون جيرونيم دي ليما وغيرهم من الفرسان الصغار ".

مع اطلالة النهار أبحر المهاجمون نحو الجزيرة، كان تريستان دي كونيا في المقدمة. وفي المؤخرة الفونسو ديلبوكيركي، ولاحظ ديلبوكيركي عندما أبحر على إمتداد الساحل ان البحر هادئ تقريبا" وان بأمكانهم النزول هناك. وشاهد كيف خرج من القلعة شيخ عربي مع مئات من الناس، اتجهوا ناحية سياج من الخوازيق كانوا قد نصبوه لعرقلة البرتغاليين من النزول في الهور، عند ذلك أعطى البوكيركي أمرا" لنوروني ليبدأ الأنزال وبسرعة. ولكن لحظهم الشيخ قبل أن يتمكن البحارة من تنفيذ ذلك، فأرسل ثمانين شخصا" عادوا الى القلعة وبقي هو وعشرون شخصا" لأعتراض سبيل نوروني.

" وعندما اصطدموا ببعضهم، نشبت معركة أستخدموا فيها خطاطيف السفن والحراب، وأصيب عدد من الثمانين. وخاض الفونسو نوروني معركة فردية مع القبطان العربي، وكادت ضربات الخطاطيف أن تصرعه، وظهر الفونسو دلبوكيركي مع رجاله الأخرين وتخلص من الشيخ".

وحين رأى المقاتلون العرب ان زعيمهم قد قتل أسرعوا الى القلعة. " ما ان وصلوا الى القلعة- يكتب مؤرخ برتغالي- حتى قتل رجالنا ثمانية منهم، ولاذ الباقون في الفرار، إذ تجاوزوا القلعة وأختفوا في الجبال، أما العرب الذين كانوا يتابعون من برج المراقبة إقتراب رجالنا نحو القلعة، فقد أخذوا يقذفون بالحجارة من الأعلى حتى أضناهم ذلك. ولقد قذفوا في حلكة الظلام الفونسو دلبوكيركي بحجرة كبيرة مع الأفريز وسقط في تلك اللحظة على الأرض في حالة مخيفة، ولكنه مع ذلك لم يفقد وعيه، فأمر الناس أن يحيطوا بالقلعة مباشرة، وأرسل نونوفاج كاستيلوبرانك للحصول على القذائف وآلة رافعة وسلالم وفؤوس وكبوش لكسر بوابة القلعة، وعندما جاء نونوفاج بالسلم أمر الفونسو دلبوكيركي بأسناده على الحائط وأخذ رجالنا بالصعود عليه، وكان أول من رفع رايته جاشبار دياش ديكاسيري ونونوفاج مع راية جوب كيمادو، ثم حذا الآخرون حذوهم ".

في المعركة حامية الوطيس عند أسوار وأبراج القلعة فقد كثير من المحتلين حياتهم، ولكن نهاية المعركة كانت حتمية، لأن القوة لم تكن متكافئة، وقد لجأ العرب، بعد أن تكبدوا خسائر جسمية، الى البرج الرئيسي، وشق البرتغاليون طريقهم الى داخل القلعة بمساعدة الفؤس والكبوش، وحاصروا البوابة المؤدية الى البرج في انتظار وصول تريستان ديكوني. أما عند سياج الخوازيق فواجهوا مقاومة ضعيفة فقط من قبل العرب الذين قتل الكثير منهم ولجأ الباقون الى الجبال، ثم أنضم ديلبوكيركي ودخل القلعة، ومن بين مئة وخمسين من المقاتلين العرب لم يبق على قيد الحياة سوى خمسة وعشرين، كانوا في مأمن في البرج الحجري المغلق باحكام، حاول البرتغاليون السيطرة على البرج من خلال الأقتحام وصعدوا على السلم النقال الى الأعلى، لكنهم سرعان ما أدركوا أنهم سيكونون هدفا" رائعا للسهام التي ستنهال عليهم من الأعلى. وكاد العرب

أن يصيبوا رأس انطونيو دينوروني لولا ان ديلبوكيركي قد صد الضربة بدرعه في الوقت المناسب، وعند ذلك قرر تريستان ديكونيا ان يبدأ المفاوضات مع من تبقى من العرب، طالما انه لافائدة لهم من مواصلة القتال، لأن القلعة عمليا" قد كانت في يد البرتغاليين.

ورغم ذلك رد العرب انهم (مدينون كثيرا" للسيد الكريم على رغبته في الأبقاء على حياتهم، ولكن مان أخبرهم عن مصرع زعيمهم حتى قدم لهم السبب الكافي لرفض العطف، وذلك لأنه ليس من عادة الفرتكيين (بمعنى المهريون من رأس فرتك الواقعة على ساحل المهرة- المؤلف) العودة الى بيوتهم أحياء وترك زعيمهم ميتا" على أرض المعركة، والأكثر من ذلك انه كان ابن سلطانهم، ولأنهم لم يقبلوا الأستسلام فقد تصوف على هواه).

وعندما سمع الأدميرال الرفض وبكبرياء للأستسلام، بعث وصيفه جوان فريدي ونونوفاج ديكاستيلو- برانكو وكذلك ثلاثة فتيان جسورين لتسلق شرفة البرج بغية الأستطلاع، وهل يمكن التسلل من هناك الى الداخل. كان أول من تسلق جوان فريري، لكن ما ان قفز من سور البرج الى الشرفة حتى لمحه العرب وفتحوا الباب المؤدي الى الشرفة وقتلوا ذلك المقتحم.

كان لدى نونوفاج بندقية واحضروا من الزورق "خازوقين بسكيين" ووراء ذلك الستار تسلق البرتغاليون في السلم، رغم ضربات الحراب والسهام العربية، واقتحموا في النهاية البرج وقتلوا كل العرب بأستثناء أحدهم، عمل فيما بعد لديهم كملاح في الرحلات على إمتداد الشاطئ العربي.

بدأ هجوم البرتغاليين في الساعة السادسة صباحا" ومع الساعة الواحدة ظهرا" احتلوا القلعة بالكامل، وظهرأن الغنائم هناك كانت قليلة، بعض الغلال والمؤن وسيف كتب عليه باللاتينية " ليساعدني الرب".

الى جانب المقاتل المذكور عاش كذلك عربي آخر، هو شيخ أعمى وجده البرتغاليون عند البئر، قال لهم عندما اقتادوه " انني استطيع أن أرى شيئا" واحدا"، الطريق الى الحرية" وقد تم إطلاق سراحه.

وهكذا بدت المعركة عند أسوار القلعة السقطرية عنيفة بصورة غير متوقعة، وتذكر البرتغاليون طويلا" مقاومة المدافعين عن القلعة، وقد بقيت حتى الآن في أحد متاحف لشبونة لوحة " إقتحام سقطرى" للفنان جورجي كولاسو كتذكار عن هذه المعركة.

" في صباح اليوم التالي اتجه تريستان ديكونيا مع رجاله الى مسجد العرب، وهو الذي تحول الى الكنيسة الرئيسية واطلقوا عليها اسم السيدة عذراء النصر، وقام بخدمة القداس فيها الأب أنطوينو ديلوريرو من الأخوية الفرنسيسكاوية".

بعد الخدمة الدينية تحادث تريستان ديكونيا مع المسيحيين من السكان الأصليين، وذكر ان الملك الفاضل بعثه مع المقاتلين لحماية السكان من استبداد العرب، وأن عليهم أن لايخافوا بعد الآن شيئا"، وطلب من سكان الجزيرة مقابل هذه الحماية الحفاظ على

السلام والأمان في علاقاتهم مع الحامية البرتغالية، وتزويدهم بالمواد الغذائية وتعلم أسس وطقوس العقيدة المسيحية التي نسوها منذ زمن بعيد.

قام البرتغاليون بترميم القلعة وأسموها حصن القديس ميخائيل، وظلت هناك حامية من مئة شخص تحت قيادة دون الفونسو دينوروني. وفي الأول من أغسطس ١٥٠٧م أبحر اسطول تريستان ديكونيا الى الهند، كما اتجه أيضا" بعد عشرة أيام الفونسود يلبوكيركي مع سفنه الست الى هرمز في منطقة الخليج العربي، وترك رجال الحامية لأنفسهم.

وعندما عاد الفونسو ديلبوكيركي الى سقطرى بعد سبعة أشهر وجد ابن أخيه رئيس الحامية الفونسود ينوروني مريض مرضا" خطيرا"، وقد مات أربعة من رجاله، وكان الباقون في حالة سيئة جدا" يرثى لها. وتمكن العرب، الذين لاذوا بالجبال، من إقناع السكان المحليين ان الفرنج (هكذا يسمون كل الأوروبيين) جاؤا من أجل إستعبادهم، وتحويلهم الى عبيد. فأنتفض سكان الجزيرة ضد البرتغاليين ونهبوا القلعة وقتلوا عدة أشخاص، وتوقفوا عن تموين الحامية بالمواد الغذائية، ونتيجة لذلك كابد البرتغاليون أنواع الفاقة والحرمان، وأضطروا أن يأكلوا لحاء أشجار النخيل والثمار البرية ونخرت زوارقهم واحتاجت سفنهم للصيانة. وقام ديلبوكيركي بتقسيم كامل المواد الغذائية التي كانت لديه بالتساوي، ودفع للحامية كذلك رواتب كل الأشهر الثمانية.

وفي مايو توقفت جميع سفن الأسطول البرتغالي توقفا" موسميا" في سقطرى. " وقتئذ قام الفونسو ديلبوكيركي بالحرب ضد السكان المحليين وضربهم بصورة لايستهان بها جزاء" لهم على قتل رجالنا، وقد طلبوا الأمان، فوافق هو على طلبهم على شرط أن يدفعوا سنويا" لرجالنا في القلعة تعويضات هي ٦٠٠ رأسا من الأغنام، ٢٠ رأسا من الأبقار و ٤٠ كيسا" من التمور" .

بعد إنتهاء الحملة التأديبية بنجاح، أبحر الفونسو ديلبوكيركي من سقطرى. وفي نوفمبر ١٥٠٩م أصبح نائب ملك الهند ولم يعد بعد ذلك الى سقطرى. وجاهدت الحامية لمدة عام أو عامين من أجل البقاء، وبسبب الأمراض المضنية وسوء التغذية غادرت الجزيرة. وبعد هذا الشتاء الأول، حينما لم تحمل الرياح الموسمية الجنوبية الغربية الأسطول البرتغالي في البحر إلآ بالكاد، لم يعودوا يستخدمون الجزيرة للتوقف الشتوي، رغم ان السفن البرتغالية التي جابت المحيط في الأعوام اللاحقة قد مرت في بعض الأحيان في سقطرى للتزود بالمياه.

وبصرف النظر عن الحرارة الأستوائية فأن البرتغاليين توغلوا في كل مكان بخوذاتهم ودروعهم، فأحرقوا وهدموا من أجل توسيع حدود الأمبراطورية البرتغالية العظيمة، التي سرعان ما قدر لها أن تموت. ولقد تعرضت جوا، هرمز، عدن، ملكه، والمدن الأفريقية لهجمات عنيفة من قبل الغزاة البرتغاليين.

كان الفونسو ديلبوكيركي واحدا" من الغزاة الناجحين فقد شارك في احتلال ساحل مالابار الهندي، وبقيت لفترة طويلة مستعمرة جوا، التي أنشأها البرتغاليون في الهند (أعيد توحيدها مع الهند في عام ١٩٦١م، واعترفت البرتغال رسميا" باستقلالها فقط الآن بعد الإطاحة بالنظام الفاشي)، ولم يسمح دلبوكيركي بتغلغل الأتراك العثمانيين في

الهند، وقصف عدن مرتين بمدافعه، وتم احتلال سقطرى وكذلك هرمز في الخليج العربي تحت قيادته، وعقد مع أثيوبيا اتفاقية تعاون في الكفاح ضد بلدان العالم الإسلامية، ولكن كل هذا لم يساعد الغزاة، فسرعان ما أنتهت نجاحاتهم.

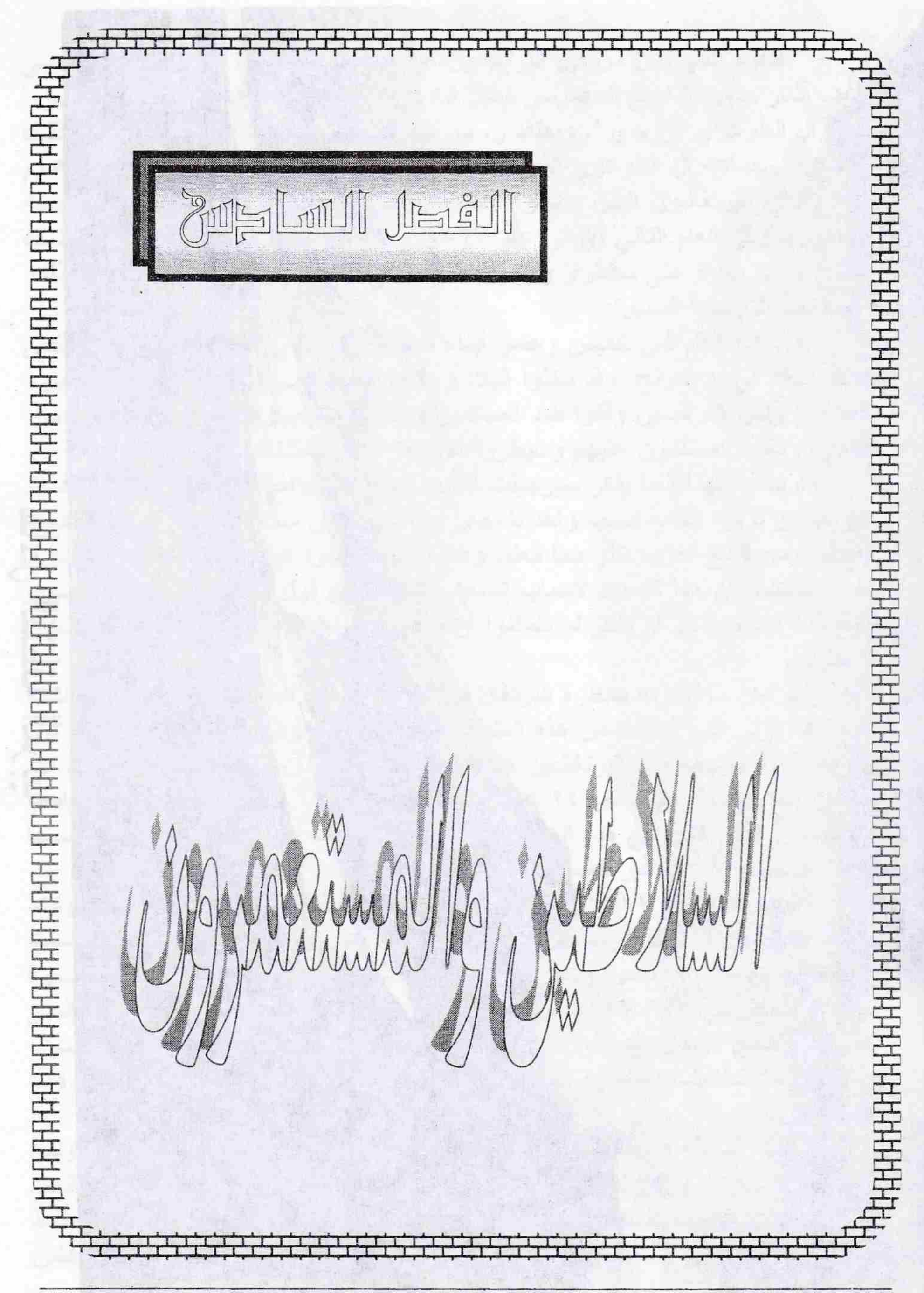
وقليل الآن مايذكر بالبرتغاليين في الجزيرة. فمن تلك العهود بقي المسجد الذي حولوه الى كنيسة السيدة عذراء النصر وخرائب القلعة (حسب المصادر العربية فإن المهريين هدموا القلعة بعد أن غادرها البرتغاليون، وبنوا قلعة أخرى في مكان آخر)، وأشجار البرتقال التي جاؤوا بها من البرتغال (تسمى بالسقطرية تينجي- من البرتغالية لارينجا)، وكذلك بعض الأسماء:جالاسونا، يمكن ان تكون، قلنسية، جبال ديلافونتي، الواقعة الى الشرق من سوق (بالسقطرية-شيوك).

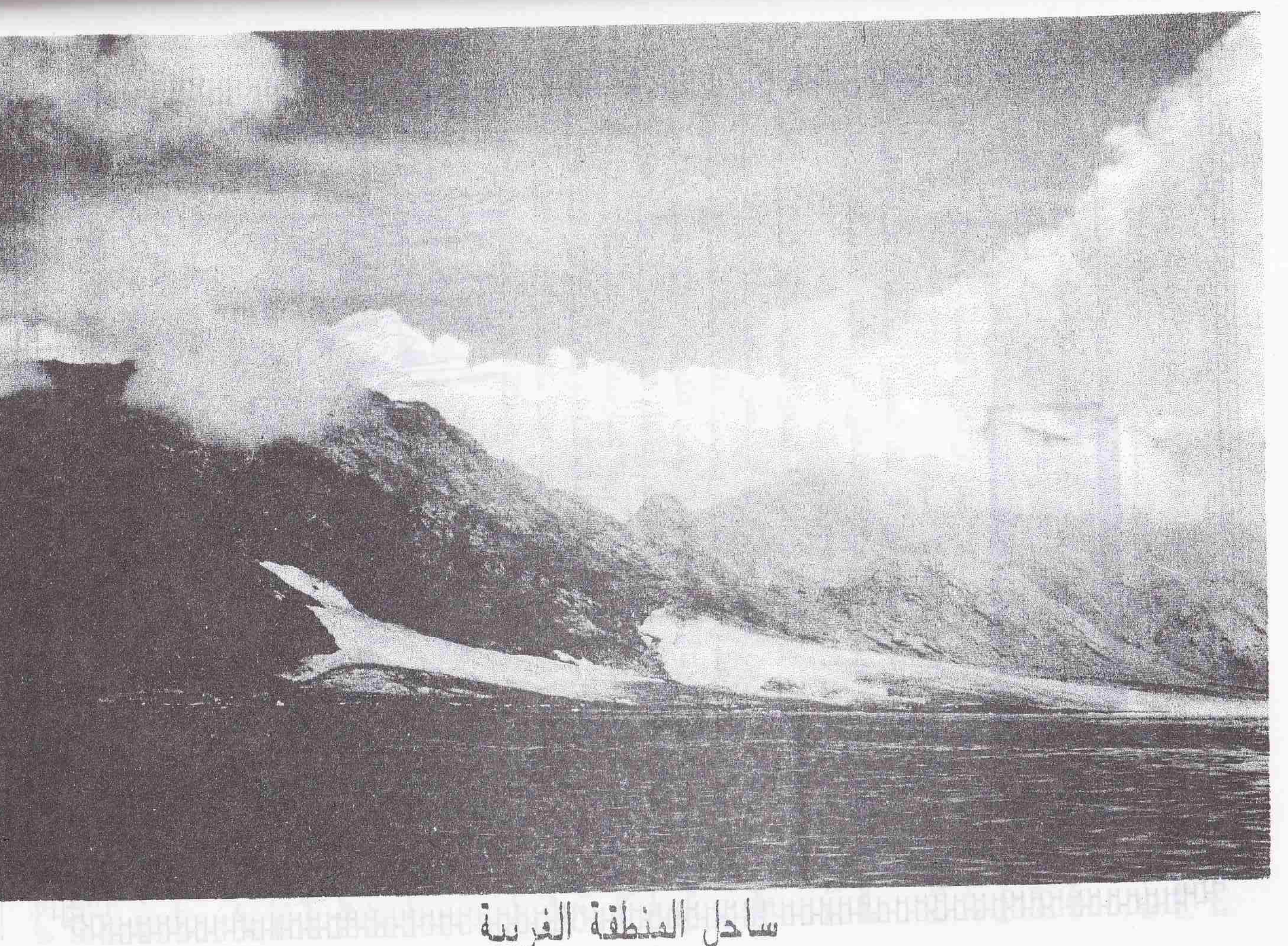
هل بقي شئ ما في ذاكرة السقطريين عن تلك العصور الغابرة؟ كلا، فالسكان المحليون لايتذكرون عن ماضيهم. وتوصل كل الباحثين إلى إستنتاج مفادة أن الغزو البرتغالي كان " حادثة عابرة " في تاريخ الجزيرة.

ومع ذلك فقد أتفق لي أن سمعت من شيوخ القبائل الجبلية، الذين سألتهم عن أغانيهم القديمة، إنه في زمن ليس ببعيد عرفوا في بعض مناطق الجزيرة أغان تتحدث عن جبليين، في زمن ما، عاشوا في أقاليم أخرى، حيث كانوا هناك أحرارا" وأغنياء وسعداء، ولكنهم أبعدوا من تلك البلاد السعيدة " بسبب الذنوب " وجلبوا الى الجزيرة حيث يعيشون منذ أعوام كثيرة. ترى من أين جاءت هذه الموضوعات في الفلكلور السقطري؟ وهل من المحتمل أن البرتغاليين، وفقا" للمارسات التي كانت شائعة في القرون الوسطى، قد نفوا إلى الجزيرة رعايا الملك المغضوب عليهم والقراصنة الذين وقعوا في الأسر؟ لقد حكوا لي أن مثل تلك الأغاني كانت منتشرة في منطقة رأس مومي، وهي واحدة من أكثر مناطق الجزيرة مناعة، وهناك بالذات يوجد السكان الأقرب إلى الأوروبيين، ويحتمل أنهم أحفاد المبعدين البرتغاليين.

ولايعرف بالضبط أين شيد المهريون قلعتهم في القرن السادس عشر، ويرى د. بينت أنها كانت في منطقة تل حصون في الوادي القريب من حديبو. كما كتب توماس روو عندما زار الجزيرة في عام ١٦١٥م أنه رأى هناك قلعة، ولكن لم يسمحوا له بالإقتراب من أسوارها. وحسب كلمات روو فأن هذه الأسوار بدت سميكة جدا"، وكانت القلعة نفسها تقع على إرتفاع يطل على كل الوادي وكانت بالفعل قلعة حصينة. وفي عام ١٩٥٦م حاول ب. شيني أن يصور بقايا الأسوار وقياسها، لكن أعاقته الرياح الشديدة الإندفاع التي هبت على الرابية، وبكلمات شيني فأن سرعة الرياح بلغت ٩٦كم في الساعة.

إستمرت الأمبراطورية البرتغالية مدة قصيرة، وحاولت الدول الأوروبية الأخرى المشاركة في احتلال واقتسام الثروات الشرقية، ولكن قدر لسقطرى أن يطويها النسيان من جديد، وفي هذه المرة لمدة ثلاثمئة سنة، ولم يعرف شئ تقريبا" عن الجزيرة منذ الربع الثاني للقرن السادس عشر وحتى أواسط القرن التاسع عشر الميلادي. ويمكن التوقع فقط أنه خلال هذه المرحلة بالذات، من الإنغلاق النسبي، تشكلت نهائيا" المجموعات الرئيسية للسكان الذين نجدهم اليوم هناك.


الفصل السادس
السلاطين والمستعمرون



ساحل المنطقة الغربية

إنهزم المهريون من قبل البرتغاليين، ومع ذلك فلم يقرروا وداع سقطرى الى الأبد. أشار مدون التاريخ الحضرمي شنبل انه في ١٥٠٩-١٥١٠م مات في قشن" شيخ آل الطوعري الزويدي "، ويعتقد ر. ب. سيرجنت أن الحديث قد يكون عن ابن ذلك الشيخ من جماعة آل الطوعري الذي قتله الغزاة البرتغاليون في عام ١٥٠٧م (المؤرخون البرتغاليون الذين وصفوا الأستيلاء على القلعة المهرية أسموه "خواجه ابراهيم")، وفي العام التالي أي في عام ١٥١٠-١٥١١م قام الأبناء الآخرون لذلك الشيخ أيضا" بغارة على سقطرى ووجهوا ضربة الى القلعة البرتغالية، وتتحدث عن ذلك "المدونات التاريخية لشنبل":

" في هذا العام شن خميس وعامر أبناء سعد بن الزويدي غارة على سقطرى التي كانت أنذاك في يد الفرنج، وقد دخلوا البلاد وعقدوا معهم اتفاق (ربما السقطريين- المؤلف) ولكن الفرنجيين وقفوا ضد المسلمين وتقاتلوا معهم، وقتل مايقارب العشرة من الكفار، وتغلب المسلمون عليهم وسيطروا على جزء من ممتلكاتهم.. ".

وارتباطا" بهذا النبأ يذكر سيرجينت أنه حسب قول المؤلف البرتغالي كستنيدي فان البرتغاليين تركوا القلعة لسبب واحد ينحصر فيما يلي: " ان سكان البلاد بشكل عام تعاملوا بمودة مع العرب اكثر مما معنا، وغالبا" ما انتفضوا عندما اندفع العرب للقتال". ومن المحتمل أن هذا التحديد لأسباب إنسحاب البرتغاليين قول مبالغ فيه بعض الشئ، ومع ذلك فأنهم بشكل أو بآخر لم يتمكنوا أن يجدوا لهم لغة مشتركة مع السكان المحليين.

وسرعان ما اهتزت سيطرة البرتغال في منطقة الخليج العربي، وخمد مجد الدولة البحرية الأولى التي أزاحت من هذه المنطقة البحارة العرب والفرس والهنود. إن أول ضربة قوية موجهة ضد البرتغاليين هنا وجهها جيش سلطان عمان ناصر بن مرشد بن سلطان (حكم عمان على مدى ٢٤ عاما" بدءا" من عام ١٦٢٤م) وارغم السلطان ناصر البرتغاليين الذين كانوا في هذه المنطقة على دفع الجزية له (وهي ضريبة يفرضها الحكام المسلمون على غير المسلمين) وطردهم من عدة مراكز وقيد تجارتهم.

وهكذا ففي العام ١٥١١م إضطر البرتغاليون الى مغادرة سقطرى ومنذ ذلك الوقت أصبح المهريون الأسياد الرئيسيين في الجزيرة، وقد أعيد بناء القلعة من جديد وهدمت كنيسة السيدة عذراء النصر، وشكل المهريون سلالة السلاطين التي حكمت الجزيرة حتى الأستقلال في عام ١٩٦٧م، وبدأوا بالتدريج في إزاحة السكان الأصليين إلى الجبال، واندمج السكان السابقون في المناطق الساحلية مع مربي الماشية الجبليين، وسرعان ما استكملت السيطرة المهرية وعادت الجزيرة إلى تلك الحالة التي نجدها عليها الآن.

إنتقلت السلطة في سلطنة المهرة وسقطرى (أو قشن وسقطرى كما أسمى الدولة أيضا" السلاطين المهريون) بالتناوب من أحد فروع القبيلة المهرية " بني زياد" الى الآخر، وكانت عاصمة السلطنة مدينة قشن في المهرة (حاليا" محافظة المهرة) ومنذ زمن غير محدد عاش السلطان بصورة مستمرة في جزيرة سقطرى، وناب عنه في قشن

أقرباؤه ونادرا" ماغادر السلطان الجزيرة، ربما لزيارة الأماكن المقدسة في مكة، وقد إقتنى العبيد من بلدان شرق أفريقيا للعمل والخدمة العسكرية والجاريات للزواج والشؤون المنزلية.

في عام ١٨٣٤م أجرى الملازمان في أسطول المستعمرة الهندية ويلستيد وكراتينيد أول فحص ومسح طبوغرافي للجزيرة من البحر، وفي تقريرهما تحدثا عن الجزيرة بشكل مشجع، فقررت الحكومة البريطانية إنشاء قاعدة هناك لتزويد السفن المتجهة الى الهند بالفحم، واقترحوا على السلطان بيع الجزيرة للتاج البريطاني، لكن السلطان رفض بيع الهبة التي وهبها الله للمهريين. وفي المفاوضات مع الأنجليز قال السلطان لرئيس المجموعة: " نحن كلنا ملزمون أن ننفذ واجباتنا: أنت- أمام حكومتك، وأنا- أمام قبيلتي، والله هو الشاهد- وداعا ".

وبعد رفض السلطان العنيد التنازل عن الجزيرة للأنجليز مقابل ثمن ملائم، تم احتلال سقطرى من قبل القوات الأستعمارية الأنجليزية، ولكن بعد فترة قصيرة أصبحت محطة التزود بالوقود غير ضرورية، خاصة وان الأنجليز قد حصلوا في عام ١٨٣٩م على غنيمة أفضل، بعد ان أصبحت عدن مستعمرة انجليزية، وفي عام ١٨٧٦م عقد الأنجليز مع السلطان اتفاقية، يلزم بموجبها بضمان حماية بضائع وركاب السفن الأنجليزية في الجزيرة، وأن لايقدم الجزيرة لأية دولة أجنبية أخرى، وان لايسمح للأجانب بأنشاء مستوطنات هناك دون الموافقة على ذلك من الحكومة البريطانية. وبعد عشرة أعوام، في عام ١٨٨٦م أصبحت سقطرى تسمى محمية بريطانيا العظمى، واختارها سلطان قشن وسقطرى للأقامة الدائمة.

المؤلفون الأنجليز، المدافعون عن مصالح الأستعمار البريطاني، يكتبون ان سقطرى " من المشكوك فيه ان تتمكن من المحافظة على استقلالها " وان قدرها قد كتب عليها مصير الدولة التابعة " تحت الحماية" ذلك لأن السلطان لايملك جيشه الخاص ولاحلفاء له ولا أموال، وسكان الجزيرة قليلون، وليس بأستطاعتهم أن يقفوا لوحدهم تجاه آية دولة أخرى. ومع ذلك فلم يقدم المستعمرون للجزيرة أية شئ، واحتفظوا بها فقط كمركز إستراتيجي إحتياطي في حالة الحرب أو الحالات الأخرى. وحددت كل " مساعدات" بريطانيا العظمى للسقطريين " تحت الحماية " بعطاءات نادرة لسلطان الجزيرة في حالة المجاعة والأوبئة، هي كميات من الأدوية والمواد الغذائية.

في نهاية القرن التاسع عشر أشتهرت الجزيرة كواحدة من اكثر الأماكن خطرا" على البحارة المارين، وكان الأبحار خطرا" بشكل خاص بالقرب من رأس مومي، لأن تيارات الرياح وقوتها كانت كبيرة بصورة غير عادية. وكانوا ينذرون خصوصا" السفن المبحرة من قنال السويس الى الهند لتبتعد اكثر من الطرف الشرقي للجزيرة، وقد يؤدي إقتران التيارات و الرياح الى أن ترتطم السفن بالشاطئ الصخري، المغطى بصورة مستمرة بالضباب والسحب. وتحت الماء تختفي صخور بحرية مخيفة تمتد تضاريسها من الرأس الى البحر، وكثير من السفن أصيبت بحوادث تحطم وغرقت في اتجاه تلك الصخور البحرية، وفي نهاية القرن الماضي حصل أثنان من أكبر حوادث تحطم السفن.

في عام ١٨٨٧م، في ليلة حالكة الظلام، اصطدمت الباخرة الألمانيـــة " أودلـــير" بالصخور البحرية في رأس مومي وكان على متن الباخرة نمر نقلوه من حديقة الحيوان في برلين، وحين غادر ظهر السفينة من بقي على قيد الحياة، خرج النمر بصعوبة مـــن القفص، وانتظر السكان الأصليون طويلا" على الشاطئ، على أمل أن يشقوا طريقهم الى الباخرة للأستفادة من الأمتعة المتروكة، لكن النمر ظل يسير على سطح السفينة وكأنـــه حارس، وأخذ ينحل ويضمر أمام الأعين ومع ذلك يواصل الزئير، وفي النهاية صعـــدوا الى الباخرة بعد ان بقي من النمر فقط الهيكل العظمي وغلاف الجلد.

وبعد عشرة أعوام، وفي ذلك الموقع أيضا"، حدثت كارثة اكثر رهابـــة، فالســـفينة البريدية ذات الدرجة الأولى "عدن"، وبحمولة ٣٩٢٥ طنا"، وتقل ١٣٨ راكبا" والطـــاقم وحمولة ثمينة (شاي، قصدير، حرير والبريد أيضا")، خرجت من كولمبو في مطلع يونيو في ذروة الرياح الموسمية الجنوبية الغربية القوية الى حدما، ومع ذلـــك فقـــد تـــأخرت السفينة ٢٧ يوما"، حتى ظهرت أنباء في الصحافة عن " سفينة غير معروفة" شـــوهدت في حالة خطر عند الطرف الشرقي لسقطرى، وفي اليوم التالي وفي موعـــد الإحتفـــال بيوبيل الملكة فيكتوريا تأكدت صحة الأنباء، فقد أصيبت " عدن " بحادث تحطم نتج عنـــه ضحايا بشرية كثيرة، وأصبح اسم الجزيرة الذي طواه النسيان ردحا" طويلا" من الزمـــن، موضوعا" لأهتمامات بلدان كثيرة، وكدرت التراجيديا الأحتفالات بيوبيل الملكة، وبـــدأت في البرلمان الأنجليزي مناقشات عن أسبابها ولماذا لم يشيد في سقطرى فنـــار لأرشـــاد السفن، طالما انه بالقرب منها يمتد خط الملاحة المنتعش؟ وعبرت الملكة بنفسها عـــن مواساتها لأسر الضحايا.

إرتطمت " عدن " بالصخور الجلمودية في رأس مومي، ليلـــة ٩ يونيـــو ١٨٩٧م وفقدت إمكانية التوجيه والرؤية لأنها كانت طوال يومين مغطاة بالضباب الكثيف، وتـــم فقط في يوم ٢٦ يونيو انقاذ القليل ممن بقيوا على قيد الحياة، الذين تمكنوا من الأمساك بالحطام طوال هذه المدة، وهم تسعة ركاب وثلاثة ضباط واربعة بحـــارة هنـــود، وفقـــد حياتهم ثلاثة وتسعون شخصا".

في الحرب العالمية الثانية كانت في سقطرى قاعدة جوية حربية انجليزية، وبعـــد انتهاء الحرب أجليت القاعدة لعدم الحاجة اليها، وعند مغادرتهم سقطرى، أخذ الأنجلـــيز معهم كل شئ كان في القاعدة، حتى المحرك النقال الوحيد في الجزيـــرة، وبقيـــت فـــي الجزيرة فقط حطامات الطائرات وبقايا المعسكرات المشيدة من الأحجار الخام.

عندما وقعت في يدي صورة آخر سلاطين سقطرى، عيسى، تمعنت طويـــلا" فـــي القامة النحيفة، المحدودبة الظهر للسلطان، كانت الصورة قد التقطـــت للســـلطان عنـــد عودته من زيارة المقدسات الأسلامية لأداء فريضة الحج في مكة، كان عليه ثوب أبيض طويل وكوفية بيضاء (شال الرأس) يحفظها من السقوط عقال (طـــوق الـــرأس) أســـود اللون، كتلك التي يلبسها أيضا" الملوك السعوديون. والى جانب الســـلطان عبـــد أصلـــع الرأس، عاري الجسم الى الخصر، ضخم البنية، هو عبدالله حارس وســـفاح الســـلطان، وقد حدثني السقطريون ان العقوبات الخطيرة نادرا" مانفذت في الجزيـــرة، وأن أقســـى

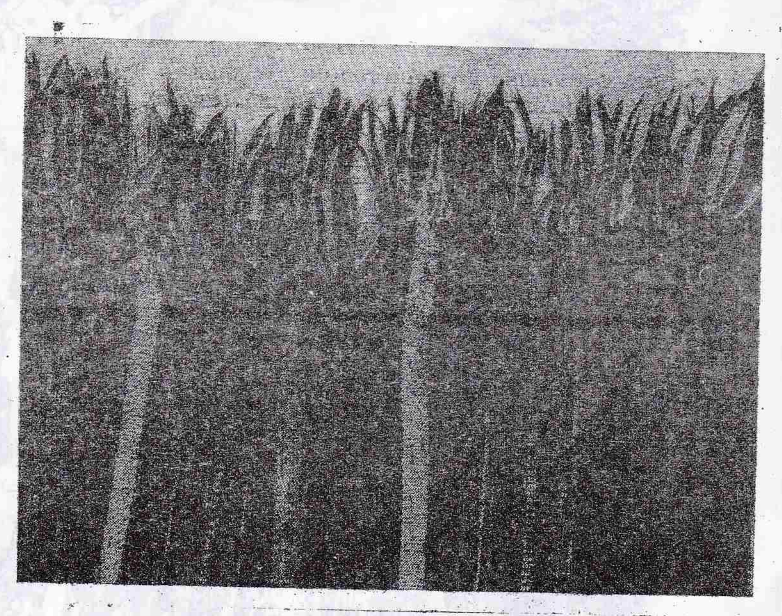
عقوبة هي قطع راحتي اليدين، وهو العقاب الذي فرضه الأسلام ضد السرقة، وعقوبة الأعدام التي يفرض الأسلام تنفيذها عن طريق القطع التدريجي للرأس (هكذا جرى مؤخرا" في الساحة الرئيسية لعاصمة المملكة العربية السعودية الرياض وبحضور حشد ضخم من الناس اعدام قاتل الملك فيصل- الامير فيصل). ولقد أشار بينت الى ان عقوبة الأعدام في الجزيرة كانت نادرة جدا"، وان السلطان حدد عادة أسلوب العقاب بما يتوافق والجريمة، أنطلاقا" من القانون القديم، العين بالعين والسن بالسن: ومن خنق يخنق ومن قطع الرقبة تقطع رقبته. وقد جرى في حديبو قبيل وصول بعثة اكسفورد الى سقطرى خنق بدويا" كان قد خنق زوجته بسبب الغيرة.

في زمن الجفاف والمجاعة، كان لدى عبدالله الكثير من الأعمال- لقد مارس سكان الجزيرة، الذين عانوا من الفاقة والجوع، السرقة بغض النظر عن خطورة العقوبة الرهيبة التي تنتظرهم، ويقول السقطريون ان كل سكان حديبو اجتمعوا عند تنفيذ العقوبة. أخذ عبدالله واقتلع زند المحكوم عليه ومن ثم بسكينة عادية وعلى مهل قص الجلد ثم ألا نسجه والعظم فاصلا كف اليد اليمنى، وبعد ذلك يغمس القطع في زيت سمك مغلي. ومن تتخذ بحقه العقوبة لايفقد الوعي ولايصدر عنه أي صوت، بل إنه يبتسم - هكذا يؤكد البدو، لأنهم أناس ذو عزة وكبرياء. وتربط الأكف المقطوعة على سارية وتعلق في الساحة. ومثل هذه الطريقة القاسية للعقوبة تستخدم حتى الآن في بعض دول المشرق العربي الأكثر تخلفا" ومحافظة، وإذا ماكرر الرجل مبتور اليد السرقة مرة أخرى فأنهم يقطعون راحة يده اليسرى، ويقولون إن الذين عوقبوا بسبب السرقة قد أبعدوا الى المكلا (ميناء في حضرموت) أو إلى مسقط، ولكن رواية أخرى تفيد أنهم أرسلوهم قافلين الى الجبال، ومع ذلك فلم يتسن لبعثة اكسفورد ولا لي كذلك الألتقاء برجل بدون يد في سقطرى، مع ان مثل هؤلاء الناس في ظروف الجزيرة يكون مصيرهم الموت السريع، ولكنني رأيت في إحدى المحافظات اليمنية يمنيا" كان قد غادر للعمل في المملكة العربية السعودية واتهمته السلطات المحلية هناك في عام ١٩٧٣م بسرقة خطيرة وفقد على إثرها يديه الاثنتين وأبعد من السعودية عائدا" الى اليمن.

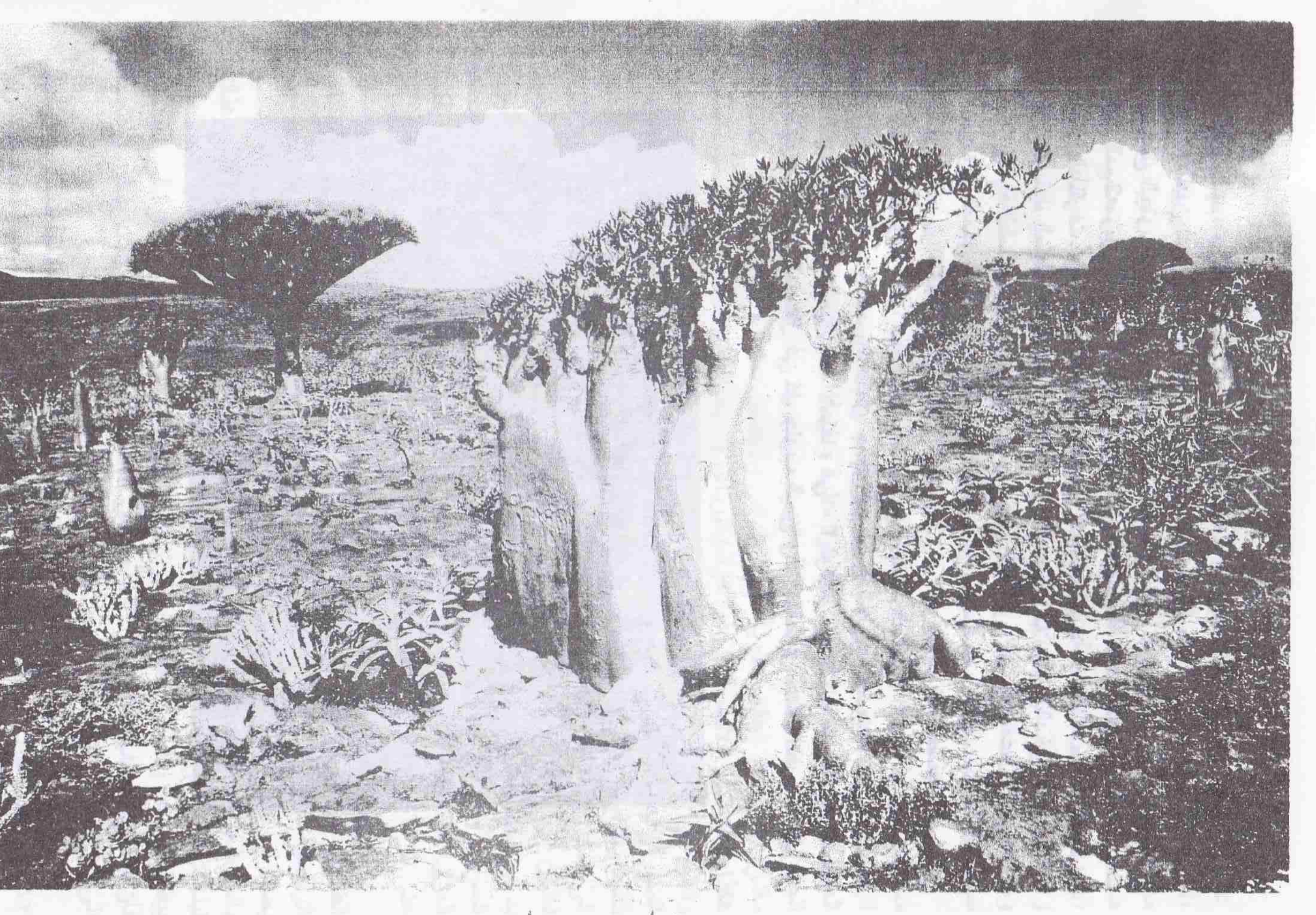
وكان ضرب المذنبين بالسياط لدى السقطريين أمرا" عاديا"، وقد كانوا يوثقون الضحية الى ماسورة قديمة لمدفعية برتغالية، لازالت باقية حتى الآن في الساحة الرئيسية في حديبو. كما عوقبت وبقسوة المرأة المتهمة بالدعارة، التي كانت منتشرة بصورة واسعة الى درجة ما في الجزيرة، وكانوا يعرون المرأة الى الخصر ويجلدونها بالسوط، ثم يجرونها في شوارع المدينة ويلقونها بعد ذلك في بئر جافة ويتركونها هناك ليلة كاملة، وفي الصباح ينتشلونها من هناك ويدهنون شعر الرأس والأهداب بعصارة بيضاء سامة، وتقوض العصارة جذور الشعر فيتساقط، واذا وقعت العصارة في العين فأن الضحية تصاب بالعمى، وكانوا يطردون المعاقبات الى المكلا، وهناك يمكن أن تجد الى الآن إمرأة بدون شعر أو حواجب.

بدأت صفحة جديدة في تاريخ الجزيرة، وبداية الطريق الى نهضتها في أكتوبر ١٩٦٣م عندما بدأت في اليمن من على جبال ردفان الثورة المسلحة ضد المستعمرين

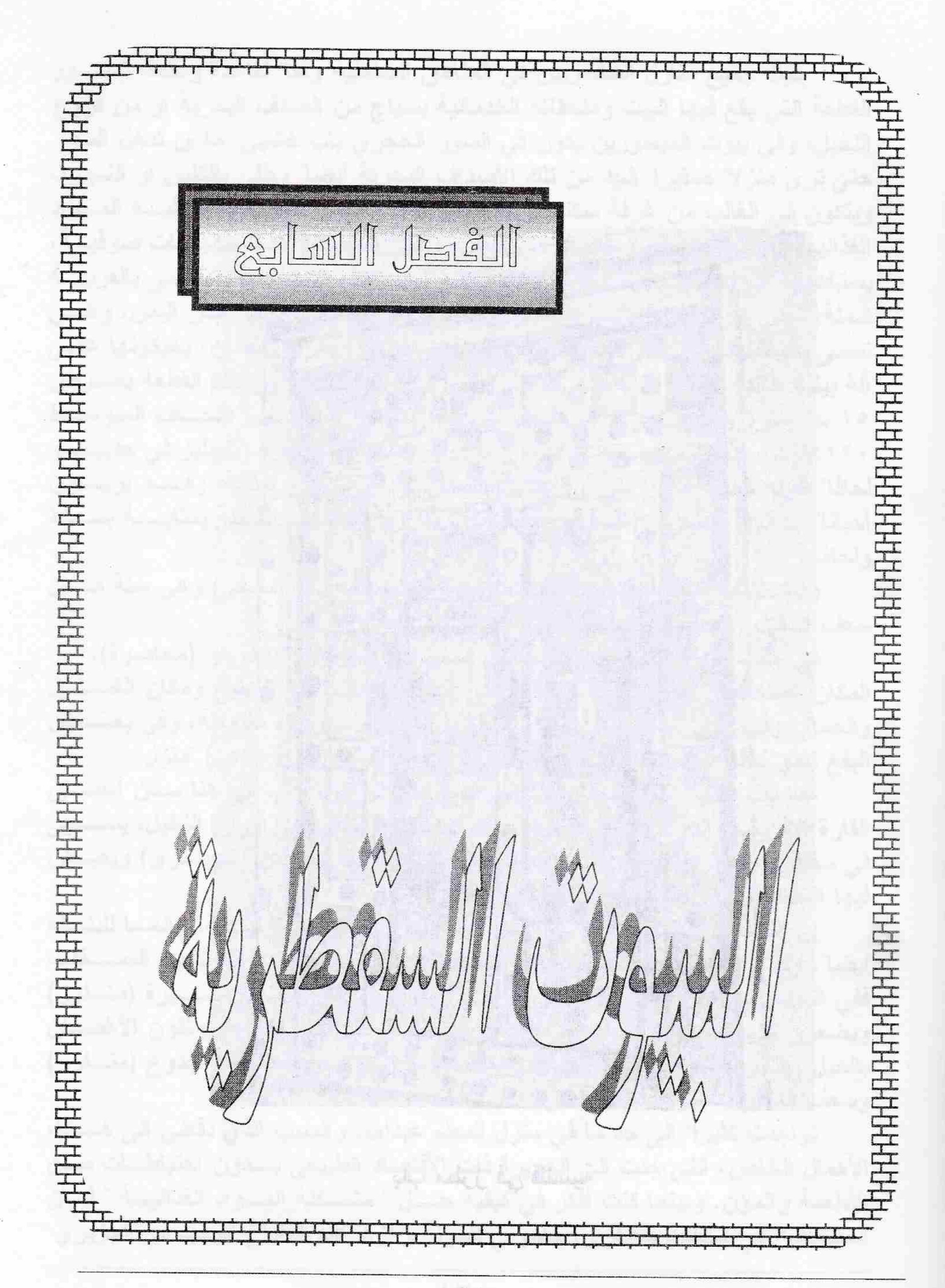
الإنجليز وعملائهم، من قبل الجبهة القومية، المنظمة الثورية التي وحدت في صفوفها كثيرا من الوطنيين في جنوب اليمن، وقد وضعت الجبهة القومية على عاتقها مهمة تحرير مناطق الجنوب اليمني وقيام الدولة المستقلة، وخاض الوطنيون وبنجاح نضالا" شاقا" ضد المستعمرين، الذين استخدموا لقمع الثورة الأسلحة الأكثر عصرية كالدبابات والمدفعية والطائرات. وفي يونيو ١٩٦٧م سيطر مقاتلو الجبهة القومية لمدة عشرين يوما" على كريتر، المنطقة الرئيسية في عدن، ولم يسمحوا للأنجليز بالدخول الى هنالك، وتم تحرير إمارة الضالع أيضا"، وحتى سبتمبر حقق الوطنيون إشرافهم عمليا" على كل إمارات الجنوب اليمني، بأستثناء الدويلات الصغيرة في حضرموت والمهرة، وحتى ٢٩ نوفمبر تم تحرير كافة اراضي جنوب اليمن وفي ٣٠ نوفمبر وتحت ضغط مقاتلي الجبهة القومية الذين وصلوا من حضرموت والمهرة سقط السلطان الأخير في جنوب اليمن، ودخلت سقطرى المتحررة ضمن جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية التي أعلنت في ذلك اليوم. ومنذ ذلك الحين يتم الأحتفاء في ٣٠ نوفمبر كيوم للأستقلال وخلال أعوام التطور التقدمي المستقل في كل جنوب اليمن وفي سقطرى حدثت تغييرات كبيرة.



صناعة اللحاف أو " الشمله " السقطرية

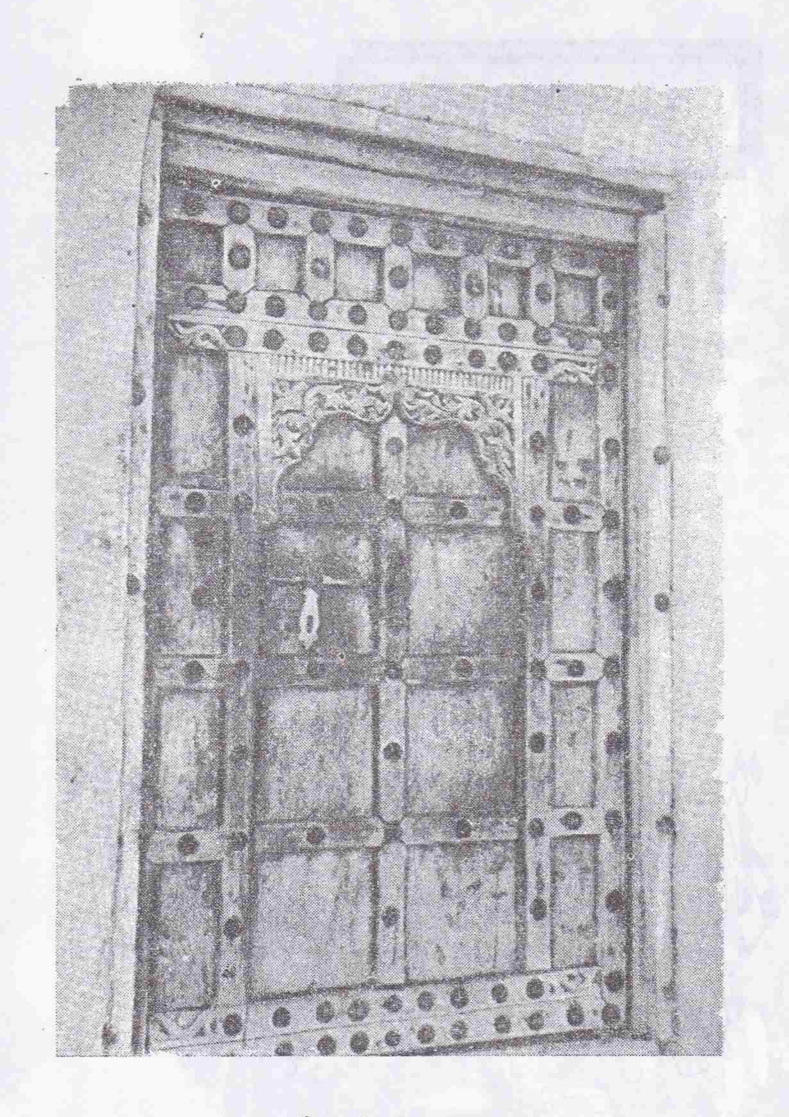


سقطری وسطی



الفصل السابع

البيوت السقطرية



باب مطرز في قلنسية

بنيت جميع منازل السقطريين في المناطق الساحلية وفقا" لقاعدة واحدة، تسـور القطعة التي يقع فيها البيت وملحقاته الخدماتية بسياج من الصدف البحرية أو من فروع النخيل، وفي بيوت الميسورين يكون في السور الحجري باب خشبي. ما أن تدخل السور حتى ترى منزلا" صغيرا" شيد من تلك الأصداف البحرية أيضا" وطلي بالكلس أو النـورة، ويتكون في الغالب من غرفة سكنية واحدة (دارفين) ومخزن للمؤنة تحفظ فيـه المـواد الغذائية، وفرشت الأرضية بحصير من النخل، وعلى الحصيرة عدة بطانيـات صوفيـة، يستخدمها في وقت النوم كل سكان الجنوب العربي، وهذه الألحفـة، تسـمى بالعربيـة شملة، يمكن أن نجدها في أسواق عدن والمكلا وسيئون وغيرها من مدن اليمن، وهـي تسمى بالسقطرية (خلهل)، ويصنعونها من شعر الماعز ومغزول الضان، يحيكونها علـى آلة بيتية بدائية كقطعة مستطيلة غير عريضة، وكل لحاف حبك من تلك القطعة بعـرض ١٥ سنتيمترا" وبطول متر واحـد وثمـانين سـنتيمترا"، وقيـاس اللحـاف المتوسـط ١٢٠×١٨٠ سم، لكنني سمعت، كأنما إشترى أحد الضباط البحارة الأنجليز في حديبـو لحافا" طوله خمسة عشر مترا". ومعظم الألحفة سوداء اللون ورمادية، وقـد يزينـون أحيانا" جوانبها بقطع من الصوف المصبوغ بالألوان، وتستخدم الشملة بمثابـة بسـاط ولحاف.

وبأستثناء الألحفة والحصائر وكذلك اللوازم البسيطة مثل (مسفي) وهي سلة مـن سعف النخيل (بالعربية- زمبيل) فلا يوجد شئ آخر في الغرفة.

في جانب من الفناء يقع كذلك مسكن صغير، من غرفة واحدة، هو (محاضرة)، أي المكان المخصص لأستقبال الضيوف، وعلى الجهة المقابلة يقع المطبخ ومكان الغسـيل والحمام، وفي ركن البيت هناك بستان صغير الى جانبه بئر مياه مفتوحة، وفي بعـض البقع تنمو نخلة أو نخلتان، وما يحيط بالبيت يسميه السقطريون (قاعر) "منزل".

عدا ذلك الطراز من المساكن، يوجد أيضا" صنف آخر، جلب الى هنا مـن أعمـاق القارة الأفريقية، انه الكوخ الدائري، المشبوك بالكامل بأغصان وأوراق النخيل، يسـمى في سقطرى (استري) وقد رأيت قرية كاملة تتكون بيوتها فقط من (اسـترى) ويعيـش فيها المنحدرون من أفريقيا.

إن النخلة هي المادة الرئيسية ليس فقط لأنتاج اللوازم المنزليـة، وإنمـا للبنـاء أيضا"، وحتى في البيوت المشيدة من الأصداف فإن النخلة تستخدم في تشييد السـقف، ففي البداية ينصبون على الحائط من الأعلى عوارض مـن سـيقان شجرة (متـئرر) ويضعون عليها شبكة متماسكة من أغصان النخيل (زفنه دي مجرد) ويوثقون الأغصان بالحبل (حتمي) وهو مصنوع أيضا" من ألياف النخيل، وهكذا بغطاء من جذوع (متـئرر) وسعف النخيل يشيدون سقف المنزل.

تواجدت كثيرا" الى حد ما في منزل المعلم عبدالله، والسبب الذي دفعني الى هـذا، الأهمال الخاص، انني جئت الى الجزيرة ذات الأقتصاد الطبيعي بـدون احتياطـات مـن الأطعمة والمؤن. وبينما كنت أفكر في كيفية حـل " مشكلـة المـواد الغذائيـة " فـأن المضيافين في سلطات سقطرى، سلموني للمؤنة والزاد عند الطباخ الوحيد في الجزيري

الذي يخدم... السجن، يحضر الغذاء للمسجونين، وقد أعجبني غذاء السجن. في كل صباح يحضر لي الطباخ الأسود رغيف خبز من الدقيق الغليظ، وفي الغداء عصيدة من الرز المهروم والسمك المشوي وأحيانا" حتى اللحمة. ولكن سرعان ما ان قررت السلطات السقطرية إبداء عناية اكبر تجاهي، وأوضح لي أحد مساعدي المحافظ ان الطباخ ليس سيئا" بالطبع، لكنه نادرا" مايغسل يديه، ولذلك وجهوني لتناول الطعام عند أحسن طاهي في الجزيرة، المعلم عبدالله، الذي جاء الى الجزيرة قبل اثنى عشر عاما" مضت، من حضرموت، ترك عبدالله الأسرة الأولى في المكلا، وتزوج من سقطرية وبقي هنا الى النهاية. وفي المدرسة المحلية علم عبدالله أسس الديانة الأسلامية، وهكذا أصبحت أزور منزل الشيخ عبدالله ثلاث مرات في اليوم، وأتيحت لي فرصة التعرف ولو قليلا" على "الحياة الداخلية" للسقطريين.

على الرغم ان أسرة عبدالله، شأنها شأن معظم الأسر السقطرية، بالكاد تسد احتياجاتها، ألا انهم مع ذلك إقتاتوا في هذا البيت بصورة جيدة. ولجنا المنزل، وتبادلنا التحية التقليدية، وفي النهاية جلسنا في زاوية الغرفة، متكئين على الوسائد المسندة الى الجدار، وعندما تفحصت رأيت الحصائر التقليدية لأية منزل والبطانيات، وبجانب النافذة جهاز راديو ترانزيستر. ومن السقف تدلى حبل يسند قطعة كبيرة من القماش لفت مرتين، انه مهد محلي، ان أحمد إبن عبدالله قد بلغ الخامسة من العمر، لكنه مع ذلك ينام في مثل هذه الأرجوحة. الباب مفتوح على مصراعية من الغرفة الى الفناء الداخلي، حيث يسير العمل على قدم وساق، جلست المرأة الصغيرة الوسيمة في الركن تطحن البسباس للغداء، وهو فلفل أحمر حار، بدونه لايمكن تصور أية طعام لسكان اليمن، وهم يضعون البسباس بين حجرتين ويطحنونه حتى يتحول عجينة، وعلى شعلة لهب من جذوع الأشجار يغلي الأرز في الدورق، وكل الأواني في البيت فخارية ومصنعة محليا".

كتب بينت ان البعثة أبدت اهتماما" كبيرا" تجاه الصناعة الفخارية في الجزيرة، التي تبدو قديمة جدا"، وقد لاحظ أعضاء البعثة انه لايوجد شئ في مغارات الجبليين عدا جلود الماعز والقدور الفخارية، ولكن لم يتيسر للبعثة جمع مواد كافية عن تطور الصناعة الفخارية عند سكان الجزيرة. لقد رسمت أشكال الأواني في كثير من منازل السقطريين وسجلت أسماء كل واحد منها، ويوجد تقريبا" في كل بيت في سقطرى: (صفلحة) وهي طنجرة كبيرة، يتم فيها طباخة الأرز واللحم. ويجلب الماء في (جسفو) وهي جرة ليست كبيرة ولها رقبة ضيقة. ولأعداد الشاي والقهوة هناك آنية صغيرة بمقبض وبزبوز تسمى (كير) ومن الفخار صنع أيضا" وعاء للإغتسال اسمه (صافية) ويكون موقعه على الأرض، ويطهون أحيانا" في ذلك الوعاء مرق الغنم. ويوجد في البيت بالضرورة (صرباد) وهو دورق كبير لحفظ الماء، وتستخدم لغلي اللبن طنجرة تشبه صفلحة في الشكل تسمى (فوتي). وفي احدى المناطق الداخلية في أعماق الجزيرة شاهدت ملعقة خشبية كبيرة تستخدم للأغراض المنزلية، رغم ان كل سكان الجنوب العربي يأكلون بأيديهم فقط.

ومن الطريف أن الأواني الفخارية لاتصنع في كل مكان، وإنما في قرية محددة فقط، وحسب ملاحظاتي فأن سكان قلنسية يجلبون الدوارق الفخارية من حديبو، لأنه لاوجود لهذه الصناعة في مدينة الصيادين، قلنسية، ولقد عاد معي صياد شاب سافر للعمل في حديبو في إنشاء الطريق، وذلك على ظهر سيارة نقل عسكرية الى قلنسية، وكان مع كل هزة قوية وفي كل مرة يربت على ركبتي ويرجوني البقاء بعيدا" عن قدوره الفخارية الثمينة، التي تنتظرها زوجته في البيت بفارغ صبر، وكان تلبية هذا الرجاء أمرا" صعبا" لاسيما وان الركاب إزدحموا في جوف السيارة كأزدحام السمك المكبوس، وفي الطريق صعد الركاب من جديد وجديد، لأن السفر على السيارة حتى قلنسية أبهة وترف نادر.

وجبليو سقطرى يصنعون القدور أيضا"، لكن محيطهم الفخاري غير مشهور، وهم يصنعون اوانيهم بطريقة يدوية من الكلس ثم يقومون بأحراقها فوق النار.

هاهي الآن نور زوجة عبدالله تطهو على النار طبيخا" لذيذا" في (صلفحة) كبيرة.

-أنا عشت في الجزيرة في عهد السلطان أيضا" -يحدثني عبدالله- وعندما تزوجت هنا أصبحت سقطريا" نهائيا"، الحياة هنا هادئة، لكنها مع ذلك صعبة، وأنا أضطر أن أرسل جزءا" من مرتبي الصغير لأسرتي الأولى في المكلا.

يحدث في أحيان كثيرة أن لايستورد أي شئ الى الجزيرة ولمدة طويلة، ومن كل بد فبدون الأرز والدقيق والسكر لايمكن أن تعيش.

يريني عبدالله ولديه من زوجته نور، وهما أحمد وفتحية، بعد قليل يحضرون الغداء، في البداية فرشوا على الأرض حصيرة دائرية كبيرة (ميرحت) ثم وضعوا عليها الطعام بالرز المهروم (القصقص) وفي الأعلى وضعت قطع من لحم الضان. بعد أن غسلنا الأيدي، جلسنا نحن الرجال لوحدنا حول الحصيرة وبدأ كل منا يتناول حفنات الرز من ناحيته، وأعدت مقدما" صلصة طيبة من الفلفل الأحمر، ولحدة الأكل فأنهم يشربون الماء. ويأتيني صاحب الدار برأس الخروف، وهو يعتبر طعاما لذيذا جدا هنا، أخذ عبدالله يقسم الرأس، بصورة بهيجة، مد لي في البداية عيني الخروف، ثم اللسان بعد أن قطع منها الأطراف، وفي النهاية الأذنين، بعد ان اكلنا بقي من هذه المائدة الغنية على الأطباق فقط العظام المقروضة وقليل من الرز، والى الفناء تؤخذ الأطباق حيث تأكل النساء البقايا، وللأسف هكذا هي العادات المتبعة في بعض الدول الأسلامية.

في اليوم التالي تابعت بأهتمام كيف تقوم نور بطحن الحبوب في المطحنة الحجرية، وهذه الطريقة البدائية حافظت على وجودها في سقطرى، ربما منذ زمن المشاعية البدائية، العمل ليس سهلا"، لكن المرأة تقوم به بخفة وحذاقة. المطحنة في حقيقة الأمر عبارة عن قطعتين حجريتين، في وسط السفلى، وهي كبيرة ودائرية بسطح أمس، ثبتت بقوة عصا تحمل عليها الأخرى، الحجر الأصغر مع فتحه في الوسط، ويتلامس السطح المستوى للقطعتين الحجرتين الواحد بالأخر كالرحى. وفي طرف الحجر الأعلى جوفت أيضا" فتحة أخرى صغيره وضع فيها مقبض طويل، ومن خلال هذا المقبض تقوم نور بلف الحجر الأعلى على الأسفل بأنتظام، وتضيف بين الفنية والآخرى

حفنه من الحبوب من خلال الفتحة الموجودة في الوسط، وتقع المطحنة علــى حصــيرة نخيل دائرية ويهال عليها الطحين من أطراف الحجرة.

إرتبكت نور من شدة إهتمامي، فمن غير المعتاد أن يتفحص الرجل الغريب المــرأة أثناء قيامها بهذا الواجب المنزلي الخاص. كانت من جانبها تغض النظر على اســتحياء، وترمقني بسرعة في الخفاء، وفي النهاية سألتني:

- ماذا، الأ تطحن زوجتك الحبوب هكذا؟
- لا أجبت مرتبكا بعض الشيء- في عدن يمكن شراء الدقيق جاهزا" بأستمرار.
- جيدا" في عدن- تتنفس نور وتواصل بحيوية لف الرحى، يبدو الآن ان تفاهما" متبادلا" بيننا قد وجد.

بعد التعرف الأول على البيت السقطري، سرعان ما أتيحت لي فرصة ثانية، فمــع أصدقائي من الحامية العسكرية في موري، الذين جئت لزيارتهم، حصلت على الدعــوة الثانية.

أخذت سيارتنا " لاندروفر" تميل بنا من هذه الناحية الى الأخرى، وسياقة الســيارة ليلا" في الطريق الحجري، الذي يربط موري بقرية كدح في الشاطئ الشمالي للجزيــرة، ليس بالأمر الهين، حتى على سائق مجرب مثل حسن. إننا ذاهبون في ضيافــة سـكان كدح، إذ دعتنا للعشاء، حليمة، واحدة من أكثر النساء إحتراما" في القرية. ينتزع ضــوٴ المصباح من حلكة الظلام المناظر الطبيعية البديعة للجزيرة، أغصان الشجيرات المسدلة، التي تشبه شبكة من الأسلاك الشائكة، مبعثرة الألوان ذات الحمــراء والصفــراء فــي السهول السطحية، والأشجار الشبيهة بالقناني بسـيقانها ذات اللــون الرمــادي البنــي الساطع، تبرز منها أغصان كثيرة مجردة من الأوراق، وبين الفنية والأخرى تلوح فــي دفقة الضوٴ " قطط المسك" الأنيقة بألوانها الرمادية- البيضاء، تبهرها أنــوار الســيارة. وأخيرا" عاندت أشعة المصابيح عناد المستميت في السور غير المرتفع، والمبنــي مــن الأحجار المثبتة بالكلس، انه " السور الحصين" لقرية كدح. نخرج نحن من السيارة على دوي: " القهب!" ("مساء الخير")، إنهم يســتقبلوننا. وعلــى ضوٴ المصبــاح تصــافح المستقبلون -وهم هنا رجالا" ونساء"- مع الوافدين بالأيدي، أما مع عامرفعلى الطريقــة السقطرية، إذ تلامسوا بالأنوف عدة مرات، وملامسة الأنوف عادة تتكرر ثــلاث مــرات بالنسبة للأقرباء، وقبل احتكاك الأنوف، يلامسون الأنف بيد بعضهم البعض، بين راحــة اليد والمرفق، وكتعبير عن الإحترام الخاص للكبار، ينحني الفتى الصغير حتى يلامــس انفه ركبة الكبير. هكذا يحييون بعضهم بعضا" في بعض قبائل اليمن والخليج العربي.

نطفئ المصابيح فإذا نحن في ظلام حالك. يد صلبة ودافئــة تــأخذ بيــدي، انــهم يتجهون بنا الى القرية.

اكواخ سكان كدح مثل غالبية بيوت المناطق السهلية والساحلية في سقطرى، بنيت من الأحجار المثبتة بالطين ويغطيها سقف من النخيل، يصطرع الباب الصغير ونلج فــي فناء صغير حيث أعد كل شئ لمائدة العيد. فرش الفناء بالحصير، عند الحائط كمية مــن الوسائد، إن هذا هو مكان الضيوف، وتبدأ التحايا والترحيب.

- القهب بيثي بكن جاعر؟ تقول لنا صاحبة البيت، حليمة، المرأة اللطيفة ذات الأربعين عاما". وهذا يعني " مساء الخير، هل يوجد بينكم مرضى؟ " والسقطريون يسألون هذا السؤال دائما" بعد تحية الضيوف، طمأنا ربة البيت إننا بصحة جيدة على الأطلاق. نصافح مريم الشابة السقطرية، ذات العينين المعبرتين، على أذني مريم قرطان فضيان كبيرين بشكل دائري، ولف شعرها في جديلتين تدلتا على الصدر. تسلك النساء هنا بغير تقييد ولاتكلف، وهذا أمر معروف، لأن المرأة في سقطرى تقوم بكل الأنواع الرئيسية للنشاط الأقتصادي. فهي ترعى وتحلب الأغنام والماعز وتجلب الماء من البئر وتعد الطعام وتخض السمن وتطحن الحبوب على الرحى الحجرية وتربي الأطفال وتحيك الشملة.

ويرعى الرجال الماشية أيضا" مع النساء، وهم يصطادون الأسماك، وفي الصيف يجمعون التمور، حيث يصعدون ساق النخلة بمساعدة حزام من سعف النخيل يحيط بظهر الرجل الذي يجمع التمر وموثق بالساق، ويبني الرجال كذلك الأكواخ وتساعدهم النساء في هذا العمل. ويحدث ان يعاد بناء الأكواخ كثيرا" الى حدما، لأن مواسم الأمطار تزيل اجزاء من الطين الذي يثبت الأحجار فتتهدم كثير من المنازل، ولقد ألمح الى الدور الرئيسي للنساء السقطريات في إقتصاد الجزيرة أحمد بن ماجد، ملاح فاسكودي جاما عند وصفه لزيارته للجزيرة.

وليس من المصادفة أن تخصص للمرأة مكانة مميزة في الأعتقادات التقليدية والأسطورية لسكان الجزيرة، وهي كثيرا" ماتكون ذات قدرة خارقة وذات صلة بالجن والأرواح المخفية.

كانت المرأة ربة البيت، هناك حيثما عملت: في قبائل الجبليين، وفي أرياف الرعاة في المناطق السهلية في الجزيرة، ولكن وضعها مع كل ذلك كان صعبا" للغاية، طالما وجدت في الحياة الكثير من العادات التي تمتهن المرأة وتذلها، وحاليا" فإن الحكومة والجبهة القومية، التنظيم السياسي الحاكم، يقودان النضال من أجل تحرير المرأة، وتشكل في المدن والقرى في الجزيرة اللجان النسائية، وفي حديبو حيث كان وضع المرأة صعبا" بشكل خاص، فإنها تلعب الآن دورا" نشيطا" في الحياة الأجتماعية.

ان السقطريات، مثل غيرهن من نساء الشرق، يملكن كثيرا" من الأطفال، وفي المناطق القريبة انتشرت في سقطرى، وبالذات في حديبو، عادة تسليم الأطفال للأسر البدوية لتربيتهم، وبعض الأسر تفعل ذلك حتى الآن. وقرار إعطاء الطفل لأسرة أخرى يتخذه الأب والأم قبل فترة الحمل، ويتم أخذ الطفل مباشرة بعد الولادة ويتم إطعامه حتى سن السادسة تقريبا"، وفي السابق أعطى البدويون أطفالهم بأنفسهم لأسر أخرى لتربيتهم. وحين تتخذ المرأة مثل هذا القرار تقوم بأشعال النار عند مدخل المغارة، ليتبين للجميع ان الأسرة مستعدة لأعطاء الطفل.

بعد التحايا الطويلة وتمنيات الصحة، نستقر عند الحائط، متكئين على الوسائد، ومن ثم يجلس الجميع، صاحبة البيت والرجال والنساء في نصف دائرة. النساء جميعهن متزينات، ومعطرات بروائح شذية، وبشرتهن مدهونة بزيت أصفر- أخضر يلمع

بوضوح في ضؤ مصباح الكيروسين (الفانوس) ونقشت راحة اليد وحوافي القدم بأصباغ الصبر الساطعة، وخصلات الشعر بأشرطة منقطة. وتختلف هذه الزخارف لأرتباطها بالوضع الأجتماعي والأسري فالمرأة المتزوجة تزين بالكامل السلاميات الأخيرة لأصابع اليدين. وفي الأعلى منها تمتد خطوط رسمت بينها صفوف من النقاط، وتغطي باطن القدم بالأصباغ وتزين الأقدام من الأعلى بالنقاط. والنساء السقطريات معجبات بالزينة، ولاتوجد واحدة منهن لاتحمل الفضة، كما تلبس الميسورات الحلي الذهبية، ويلبس الأطفال، وفي الجبال الرجال أيضا"، الأساور الفضية على اليد فوق الزند بقليل . أما في المناطق الساحلية فلا يستخدم الرجال الزينة، ومع ذلك فأن النساء قررن تعويض ذلك التواضع، بوفرة الحلي المعلقة عليهن. قبل كل شئ تلفت الأنظار الأقراط، حلقات كبيرة بنتؤات من الأسفل، وأغشية مشكلة، وهي هكذا تسوف الأذن. ان معظم النساء الجالسات معنا حول المائدة قد خرمن في شحمة كل أذن ثقبين، وأدخلن في كل ثقب قرطين اثنين! ولقد رأيت في سقطرى إمرأة كانت قد خرمت كل حوافي الأذنين من الشحمة الى الأطراف العليا. وذات مرة قيض لي أن أشاهد في الجبال " إمرأة قياسية" فعلى كل أذن يوجد لديها اثنى عشر قرطا" تلامس الجنب تقريبا".!

تلبس النساء السقطريات الثياب السوداء، والخضراء المائلة الى السواد، والصفراء أو الحمراء، ويتم حشوها من الأطراف بخيوط فضية اللون، الثياب فضفاضة، تلتف مشدودة حول الخصر بحزام من الحراشف المعدنية، ينتهي بحلقة تضم عدة مفاتيح عادية صغيرة، كتلك الخاصة " بالأقفال الأنجليزية" وهذه المفاتيح لاقيمة حقيقة لها، لأن الأقفال لاوجود لها هنا والأقرب انها للزينة وهي جزء لابد منه من الملابس والأدوات النسائية التي تجلب السعادة. ولدى بعض النساء ترن على الخصر بضع عشرات من المفاتيح، وعلى الأيدي يلبسن أعدادا كثيرة من الأساور، أحيانا" بالعشرات على كل يد وخواتم، وعلى الرقبة عقد غليظ معمول من الفضة المستوردة من حضرموت، وتبدو غالبا" في المناخير أقراط من الذهب، ويلبس الكثيرون، بما في ذلك الرجال (خاصة الجبليين) حروز وطلاسم حول العنق، تصونهم من " عين السؤ " أو من الأمراض.

يتواصل الحديث الذي تعززه النساء بحيوية، الروائح العطرية الشذية تمتزج مع رائحة مرق الماعز المنبعثة من المطبخ، حيث تم الأنتهاء من طباخة ماعزين ذبحا خصيصا" للضيوف، وهي ضربة محسوسة في ميزانية الأسرة. يضحك الرجال بتهكم اكثر وهم يلقون النظرات الى النساء اللاتي يتحدثن مع الضيوف، ونادرا" ماينطقون ببعض كلمات فقط، تتحدث النساء عن صعوبة الحياة وعن كثرة الأعمال التي تقوم بها المرأة وكم سيكون رائعا" لو ان أطفالهن سيعيشون بشكل أفضل، وهنا لايعرفون الزراعة كما هو حال المناطق الأخرى من الجزيرة، وتوجد في بعض المنازل فقط احواض صغيرة تنمو فيها بعض الخضروات، كوخ حليمة كان خاليا" تقريبا"، على الجدار علقت حصيرة مضفورة بشكل دائري وهي تقوم بدور طاولة الطعام وبعض الأثاث المنزلي، على الأرض الحفة وبعض الوسائد، الغريب رؤية ماكينة خياطة "زينجر"

في هذه العشة، لولا انها تتواجد في سقطرى بصورة كثيرة الى حدما، لأن السقطريات يخيطن ثيابهن بأنفسهن من الأقمشة التي تستورد من حضرموت.

بعد وقت قليل جاؤا بالأطباق، مع عصيدة من الرز المهروم، يسمى هنا قصقص وعلى القصقص تدخن قطع اللحم، نبدأ الأكل، يقدمون للضيوف أفضل قطع اللحم: الكبدة واللسان. ينبغي ان نلف الرز المرشوش بالمرق في حفنات صغيرة، ومن الضروري باليد اليمنى، ومن ثم القائها في الفم. أما اليد اليسرى فليست سعيدة، ولذلك لايتم غسلها عند الأكل ولا يأكلون بها. أخذت أجمع العظام المقفرة الخالية من اللحم بأنتظام على الصينية المكسورة التي يقع عليها طبق الطعام، وذلك لأن ربة البيت لاترمي هذه العظام بعد العشاء، وانما يتم تكسيرها قطعة قطعة ويمتصون منها المخ بكل دقة ويهرأون البقايا أيضا"، انهم هنا يأكلون اللحم مع الرز بصورة نادرة، لكننا الآن في وليمة، مع الطعام الوفير يشربون الماء، ثم يقدمون بعد الأكل الشاي بلبن الشياه. وقد أصبح سكان سقطرى في الفترة الأخيرة يعتادون على هذا الترف، لأن الشاي والقهوة يستوردان من اليابسة، وهناك في الجبال كثيرون لم يتذوقوا لا هذا ولا ذاك حتى اليوم.

بعد تناول الشاي يدخن الرجال. مستخدمين غليونات من عظام ساق الخروف، يتم حشو أحد طرفيها بتبغ هولندي رخيص جاء به الى الجزيرة التجار الحضارمة.

تحدثني حليمة عن رحلتها الى حديبو، عاصمة الجزيرة، عندما حل البحارة السوفيت ضيوفا" هناك . ولعلة من المستبعد أن يكون ستانيسلاف الكسيفيتش بلوتينسكي، قبطان سفينة البحث العلمي " زمرد " التي جنحت لعدة أيام في فرضة عند سواحل سقطرى، قد تصور بالقدر الكامل مايعنيه أول عرض للأفلام السينمائية، التي جاء بها الشباب معهم من السفينة الروسية، بالنسبة لسكان الجزيرة الذين بالكاد اطلوا على رحاب الحضارة المعاصرة خلال العامين الأخيرين. في الساحة الرئيسية في حديبو، بالقرب من بناية القصر السلطاني السابق، ثبتت الشاشة على الحائط، وعلى الأرض مباشرة جلس الرجال، وعندما بدأ العرض جلست النساء من ورائهم على شكل نصف دائري. وعلى مدى ثلاثة أيام جاء لمشاهدة " المرآة الحية " حتى رعاة الماشية من المناطق البعيدة في الجزيرة. ولكم أن تتصوروا هذه اللوحة: بناية طينية قديمة مع أسيجة على النوافذ، الساحة مغطاة بالتراب، ومنها تتفرع مختلف الشوارع المتعرجة الضيقة، تتمدد في وسط الساحة ماسورة مدفعية قديمة، من بقايا الحصن العسكري البرتغالي في القرن السادس عشر الميلادي، وقد قامت في عهد السلطان بدور منصة الاعدام. وحول ذلك جمهور متنوع من الناس، كثيرون منهم لايعرفون شيئا" ليس فقط عن الأتحاد السوفيتي البعيد، ولكن وبشكل عام حتى عن أية منطقة أبعد من حضرموت... وها هي الأفلام السوفيتية على الشاشة!! لقد حظيت بنجاح خاص اللوحات الخاصة بالحرب الوطنية العظمى، التي نالت الأعجاب، ومن الصعب التصديق ان السينما في وقتنا الحاضر يمكن أن تثير مثل هذه الدهشة. لقد كانت بالنسبة للسقطريين شيئا غير معروف البته، وبين الفنية والأخرىأطلقت النساء صرخات " يامحمد، يامحمد" وهذه

الصرخة، هي استغاثة بالرسول محمد (ص) ويطلقها السقطريون لأي سبب كان، ويمكن أن تعبر عن الرضى والسرور أو الخوف أو الأعجاب وتردد أيضا" في التعاويذ.

ما أن سمعت حليمة عن "المرآة الحية" حتى ذهبت مع آخرين من سكان كدح مشيا" على الأقدام، لمدة أربع ساعات كاملة، لمشاهدة السينما. وهاهي الآن تروي لي:

– كان جميل جدا". الا ان ما أرعبنا بشدة، حين عرضوا ذلك الأنسان الضخم، رأسه هكذا بحجم هذا المنزل، ولله الحمد ان ذلك لم يطل، لأننا كنا قد أردنا الهروب من الخوف وفيما بعد ظهرلي ذلك الجني الكبير في الليل، ولكن محمد (ص) أنقذني منه.

لقد اتضح ان هذا " الجني الكبير" ليس الآ أوليغ بابوف في فيلم عن السيرك الروسي، عرضه بحارتنا لسكان الجزيرة ، وقد ظهر وجهه البسيط في لقطة مكبرة على الشاشة وهو ما أفزع النساء المستقلات.

نغادر المنزل المضياف، فتودعنا النساء حتى السيارة ويوجهون لنا الدعوة بالمجيء أيضا"، ان ضيافتهم على مايبدو لاتعرف الحدود.

بعد عدة أيام نذهب الى الشرق، باتجاه رأس مومي، في الطرف الشرقي للجزيرة. السيارات تمر هنا في النادر، وبشكل عام فأن أول سيارة ظهرت في الجزيرة كانت فقط منذ ثلاثة –أو أربعة أعوام. في الطريق نشاهد من حين لآخر بدويين ما أن يلمحون السيارة من السهول البعيدة حتى يقتربون الى الطريق ملوحين بأيديهم طالبين نقلهم، وسرعان ما اكتظت سيارتنا " لاندروفر" المكشوفة حتى النهاية، وبصعوبة تثب السيارة فوق الأحجار، وتثير فوقنا الغبار الرملي الأحمر، بذراته الصغيرة التي تستقر فوق الشعر وتملاء الحواجب والأهداب، ويتحول الكل الى اللون الأشقر الملتهب. وبين الحين والآخر يطلب البدويون التوقف لشعورهم بالغثيان طوال الوقت، لعدم تعودهم ركوب السيارات، وحتى اليوم فإن البدويين الذين ينزلون من الجبال الى الوديان أو الشواطئ يهابون السيارات لأنهم يرونها للمرة الأولى، ومع ذلك فإنهم يقفون أمام هذا الشئ الغريب بثقة.

احد هؤلاء الجبليين صادفناه بالقرب من رأس مومي. رأى سيارتنا " اللاندروفر" على شاطئ البحر (كنا قد توقفنا لقضاء الحاجة قرب مغارة للرعاة) وأخذ الشيخ السقطري يقترب ممسكا" رأسه الحليق بكبرياء، وبشجاعة إقترب من السيارة، ولحقت به بوجل إمرأة صغيرة بثوب أخضر وبين يديها طفل، وطفل آخر يمسك بيدها، محلوق الرأس، برزت فوق هامته ذوائب من الشعر، وحول الرأس بقيت فقط هالة رفيعة من الشعر، انه يستطلع بفضول هذا "الكائن" غير المعروف. إقترب البدوي من السيارة وتوقف عند المحرك، وبدأ الحديث مخاطبا" "اللاندروفر":

– من أوي؟ مي أوأو جيدحك؟ ("من أنت؟ ومن أين جئت؟").

حصل لنا تعريف أسرة بـ "الأجانب" وحين تنزهنا بالسيارة على طول الشاطئ، أصبح البدويون على مايبدو مسرورين رغم انهم لم يعبروا عن أعجابهم جهارا".

في الطريق الى الشرق، على بعد بضعة كيلو مترات من العاصمة، تتراى عدة بيوت، شيدت كما يبدو حديثا"، وبالقرب منها يجلس بعض الرجال الملتحين تحت مظلة

من الأغصان، يشابهون اليمنيين، ويلبسون "الفوطة" وهي تنورة رجالية يمنية، بـل ان احدهم يلبس البنطلون، نخرج من السيارة، ونتعارف معهم، والحقيقة ان النطق يمنـي، وقد اتضح انهم نفس " مجموعة التطوير" التي سمعت عنها كثيرا" فـي عـدن، هكـذا يسمون المبعدين الى الجزيرة من محتالي القمار، الذين يسرقون الأمتعة في مقاهي عدن الرخيصة، من خلال لعبهم الورق والنصب على الوافدين الى المدينة من " المنهمكين في الملذات" (أي المخدرين بالقات الذي يمضغه جميع اليمنيين في الأعياد) مـن الفلاحين وغيرهم من أبناء المحافظات، وتقود الحكومة حملة ضد هذا الصنف من الناس، وترسل النصابين والمحتالين الى سقطرى، حيث يكون عليهم خلال بضع سنوات حفـر الآبـار، لأن المياه في الجزيرة غير كافية، بصورة مفجعة. ويأتون لمحتالي القمـار السـابقين بالمعدات والغذاء (تؤخذ قيمتها من رواتبهم) وحتى لايستأون سموهم " مجموعة تطويـر الجزيرة " وأعتقد ان هذا القرار حكيم. يضيفنا لاعبو القمار بالقـهوة اليمنيـة اللذيـذة، ويشكون لنا من مصيرهم ومن طعامهم الردئ ومن الرز المهرم الذي يأتونهم به عوضا" عن الرز. وهاهم يحسبون ومن جديد، عدة مرات، الوقت المطلوب لأنهاء العمل، وخلال عدة أشهر سيعودون إلى بيوتهم.

قيل لي أنه يعيش في جبال رأس مومي أناس لايزالون أسوأ مـن غـيرهم، فـي حضيض درجات التطور وهم أكثر من غيرهم شبها" بالأوروبيين، فهم بيـض البشـرة، رشيقون وعيونهم زرقاء وشعرهم أشقر، ويعتقد سكان الجزيرة أن أجمل نساء سـقطرى يعيشن بشكل خاص هناك، لكن المناطق الجبلية في رأس مومي صعبة الوصول، وهـو السبب الذي جعلنا نلغي رحلتنا إلى هناك، لأنها تتطلب إستعدادا" جادا" في مرة قادمة.

والآن أمامنا رحلة إلى قلنسية، ويعتقد أن اسم قلنسية مشتق مـن أسـم مدينـة بالينسيا في أندلس القرون الوسطى، أسبانيا الأسلامية. ومن المحتمل ان يكـون هـذا الاسم وكثير من الأسماء الأخرى في الجزيرة، موري، ديشس، جالاسونه وموري، قـد جاء بها البرتغاليون الى هنا. لكن هناك رواية أخرى ترجع اسم المدينة الى " إقليسـيا " الأغريقية.

وقلنسية هي المدينة الثانية من حيث الكبر بعد حديبـو (يعيـش الآن هنـا ألـف وخمسمائة من السكان) وتقع في الطرف الغربي للجزيرة، وهي مدينة صيادين.

إن مايلفت النظر هنا هو النظافة التي لاشائبة فيها للبيوت المبنيـة مـن الطيـن الأصفر المائل الى الحمرة، بجدرانها البيضاء الساطعة، المطلية بالكلس المنتج محليـا" (النورة) وهي تحضر من شظايا الشعب المرجانية، التي يحرقونها هنا، كما في حديبـو وفي المناطق الساحلية للجزيرة العربية، في حفرة دائرية، بنيت من الداخل بالأحجـار، ويضعون طبقات من أغصان النخيل بين قطع الشعب المرجانية ثم يحرقونها. كذلك تلفت الأنتباه أبواب البيوت القلنسية، وهي خشبية من قطـع ذات نقـوش جميلـة مطـرزة بتورمات معدنية تزينها.

وقلنسية اكبر منتج للحوم أسماك القرش المجففة في الجزيرة، وهي تسـمى هنـا (لخوم) ويصطاد الصيادون المحليون أسماك القرش بزوارقـهم الصغـيرة (هـوري أو

صنبوق) وهناك أيضا" على الساحل يقطعونها ويخرجون مابداخلها ويفصلون زعانفها ثم يضعونها في تجويفات عملت في الأرض، ويسكبون عليها محاليل محلية. ويتم تمليح اللحم وتجفيفه في الشمس من شهر الى أربعة أشهر، حتى يصبح شبيه بالخشبة: صلب وذو لون بني أسود، ومرأه غير صالح للأكل. وعند إستخدامه للأكل يقطعون وصل لحم القرش المجففة ويغلونها.

ومن كبد القرش يتم إذابة الزيت الذي يطلون به الزوارق، ويعتقدون أن زيت سمك القرش يوقف الدم جيدا"، ويبيع الصيادون بضاعتهم في أفريقيا وفي حضرموت حيث تحظى لحوم أسماك القرش بأقبال كبير في الأسواق، وهي تعتبر واحدة من المواد الرئيسية للتغذية سواء في حضرموت أو في المناطق الساحلية لليمن وشرق أفريقيا.

يصطادون أسماك القرش بوسائل متعددة، أو على الأصح بمساعدة مختلف الأدوات والأعتدة. والشباك التي تعني بالسقطرية (لويوخ) هي نادرة الوجود في الجزيرة. وللأصطياد يستخدمون في الأساس عدة تسمى (شكله) بين عوامتين (بويه)، يشدها حبل (قيد) تتدلى منه خطاطيف (اكلها). وتزود احدى العوامات بالحبال مع المرساة (بروصي)، ويتركون عدة الصيد مع طعوم محضرة من الأسماك في الخطاطيف طوال الليل. وفي الصباح يركب الصيادون البحر على زوارقهم (الهوري) لتفقد عدة الصيد وجمع الغنيمة. ويصيبون القرش أيضا" بمساعدة المسلة وهي حربة مع الحبل لصيد الحيوانات المائية، يسددونها في سمك القرش عندما يسبح قرب الزورق حول الطعوم المتروكة فوق الماء، فيجهزون عليه، وبضربة قاضية في الرأس يقضون عليه ثم يأخذونه الى الساحل.

وفي قلنسية يصطادون كذلك أنواعا" كثيرة من الأسماك الأخرى، ويقع الصيادون أحيانا" على سلاحف بحرية ضخمة، وهذه الحيوانات غير المؤذية لم يبق منها في العالم إلآ القليل، ومع ذلك فان لحم السلاحف وبيضها ليس أكلة حلوة، وانما طعام عادي تستطيع الأسرة أن تتغذى به عدة أيام. وتتناثر على الساحل كثير من دروع السلاحف وجماجمها، وهذا هو كل مايتبقى من هذه الروائع البحرية، التي يبلغ طولها اثنين أمتار.

في زمن ما اشتهرت القرى الساحلية في سقطرى بصيد اللؤلؤ، الحرفة القديمة للسقطريين. وكان المصريون القدماء قد جلبوا اللؤلؤ من " بلادبونط ". أما الآن فلم يبقى في الجزيرة إلآ القليل من صيادي اللؤلؤ، وهم يغوصون في البحر في مواسم الربيع والصيف ويتجهون على زوارق كبيرة إلى أعماق بعيدة الى حد ما، وفي البدأية يلاحظ الغواصون قاع البحر من الأعلى، من خلال علبة صفيح يعملون فيها فتحة مغطاة بالزجاج، وحين يرى الغواص اللؤلؤ يسد فتحتي الأنف بملقاط من قرن الضان أو الأبقار، ويستنشق أكبر كمية من الهواء ويأخذ حمولة الغوص الثقيلة التي تسهل نزوله سريعا" الى القاع، وفي الأعلى يكون هناك شخص يؤمنه من خلال الإمساك بالحبل الذي يربط الغواص بالزورق. وإجمالا" فإن اللؤلؤ السقطري أقل جودة من البحريني (المقصود ذلك الذي يصطادونه في الخليج العربي) وهو في العادة صغير الحجم، ولاوجود تقريبا" للؤلؤ الكبير، وتقل أيضا" الألوان غير العادية ضمن كمية اللؤلؤ

المصطاد: الوردي، الأزرق، والذهبي، ويكون الحصول على أثمن صنف، وهو مـــايعرف باللؤلؤ الأسود من الأمور النادرة جدا". ويبيع الغواصون اللؤلؤ لتاجر سمسار، وبـدوره يبيعها لتاجر عدني أو لصائغ مجوهرات، وفي الكثير من الحالات فإنه يقايض صيـــادي اللؤلؤ بمواد غذائية يتم الحصول عليها من اليابسة، وفي النتيجة يحصل الغواصون على حصة ضئيلة من تسعيرة السوق للؤلؤ الذي كانوا قد استخرجوه. ومع كـل ذلـك فــإن مستوى معيشتهم مقبول الى حد ما، مقارنة بخلفيـــة الفقــر العــام لسكان الجزيــرة، وبالمقابل فإن ديمومة حياتهم، أو متوسط أعمارهم، أقل بكثير، لأن الغـــوص المضنــي والبقاء طويلا" في المياه المالحة دون وجود أدوات مســـاعدة يؤثــر تـــأثيرا" مضــرا" بصحتهم. ويصاب صياد اللؤلؤ بضعف البصر وتشقق وتقرح الجلد، ومن جراء ضغـــط المياه على طبلة الأذن تصاب الأذن والرأس بالمرض.

في الماضي وجد اللؤلؤ -كما يقولون- في كل عشر صدف أما الآن فقد أصبح ذلك نادرا" جدا". وحين يعرف صيادو اللؤلؤ أن احدا" من الأجانب قد وصل الى الجزيرة فإنهم يعرضون عليه قليلا" من اللؤلؤ لشرائها منهم، على أمل أن يربحـــوا منـــه اكثــر مــن السماسرة. وفي حديبو سار ورائي طويلا" رجل كهل بعيون محمرة، محاولا" أن يـــدس لي حفنة من اللؤلؤ الصغير الردئ النوعية كان قد لفها بنظام في خرقة حمراء.

كتب الرحالة العربي الشهير ابن بطوطة (١٣٠٤-١٣٧٨م) عن صيد اللؤلؤ فـــي الخليج العربي يقول:

" فاذا كان شهر إبريل وشهر مايو تأتي اليه القوارب كثيرة وتجار فارس والبحرين والقطيف، ويجعل الغواص على وجهه مهما أراد أن يغوص شيئا" يكســـوه مــن عظــم الغيلم، وهي السلحفاة، ويصنع من هذا العظم أيضا" شكلا" شبه المقراض يشــده علــى انفه، ثم يربط حبلا" في وسطه، ويغوص. ويتفاوتون في الصبر في الماء، فمنــهم مــن يصبر الساعة والساعتين فما دون ذلك، فاذا وصل الى قعر البحر يجد الصــدف هنــالك فيما بين الأحجار الصغار مثبتا" في الرمل، فيقتلعه بيده، أو يقطعه بحديدة عنــده معــدة لذلك، ويجعلها في مخلاه جلد منوطة بعنقه، فإذا ضاق نفسه حرك الحبل، فيحــس بــه الرجل الممسك للحبل على الساحل، فيرفعه الى القارب، فتؤخذ منـــه المخــلاة ويفتــح الصدف، فيوجد في اجوافها قطع لحم تقطع بحديدة: فإذا باشرة الهواء جمدت فصــارت جواهر، فيجتمع جميعها من صغير وكبير فيأخذ السلطان خمسه والباقي يشترية التجــار الحاضرون بتلك القوارب ، واكثرهم يكون له الدين على الغواصين فياخذ الجوهــر فــي دينه أو ما وجب له منه ".

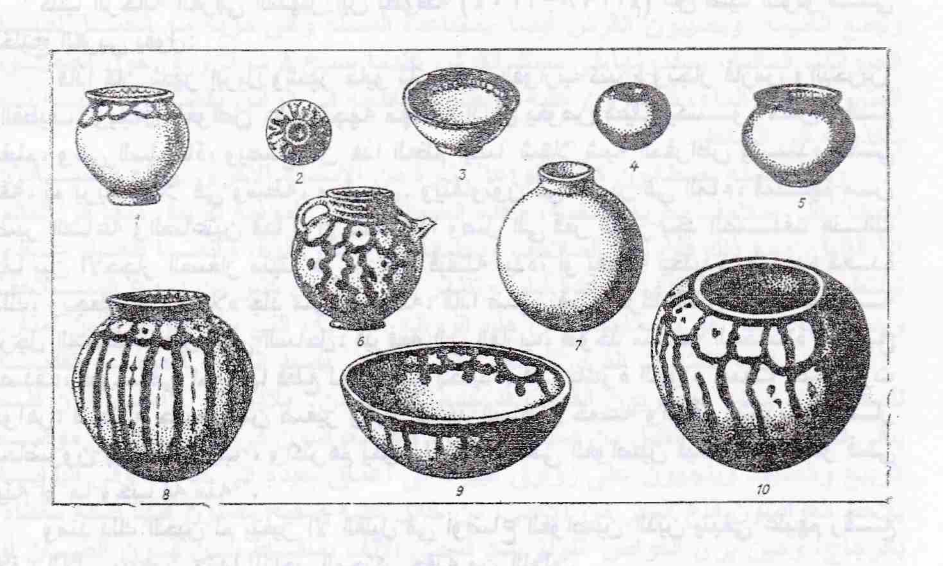
ومنذ ذلك الحين لم يتغير الآ القليل في أوضاع الغواصين الذين ينبغي عليهم رفــع الآف اللآلي يبيعون منها للتاجر المحتكر حفنة من اللؤلؤ.

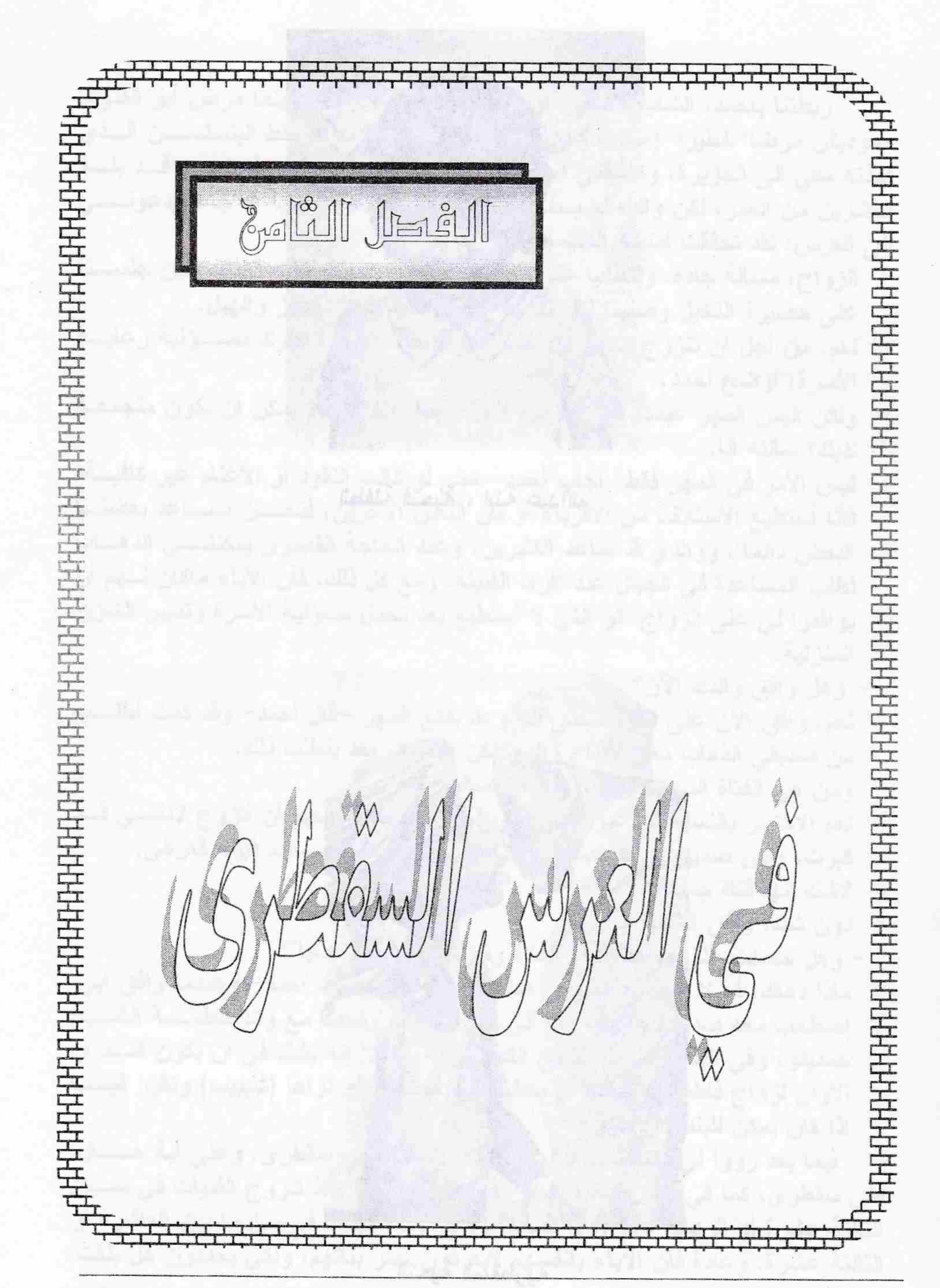
تذوقنا لحم سمك القرش مع الرز المرشوش بمرق السمك، نحن نجلس في كــوخ الصياد القلنسي أحمد، نستمع الى أحاديث عن حرفة الصيد، لقد بدأ موسم الرياح، لذلـك تهمد الحياة الآن هنا، الصيادون لايذهبون الى البحر، والساكنون يلزمون بيوتــهم، لآن

الرياح تبلغ من القوة أحيانا" بحيث يستحيل السير في مواجهة عواصفها المحملة بالغبار والحصى الصغيرة التي تسوط الوجه وتصفع الجسم بشدة.

في الأطلس البحري للأدميرال إ. س. إيساكوف، تتميز سقطرى في يونيو – أغسطس ضمن المناطق الأخرى في العالم بصبغة قاتمة: هنا تهب واحدة من أقوى الرياح المحيطية، وتخطف مواسم الرياح والسيول الجارفة والجفاف حياة الكثير ليس فقط من الحيوانات، بل ومن الناس.. وفي هذا الموسم ينقطع كل اتصال بسقطرى، حتى الطائرات يمكنها أن تهبط في المطار الترابي في موري فقط في ساعات الهدوء النادرة، التي لاتحل كل يوم، بين الساعة الثالثة والخامسة نهارا".

بغض النظر عن الرياح التي تشتد بوجه خاص بعد الساعة الحادية عشرة مساء"، ومع حلول الظلام، تدوي هنا أصوات الطبول، وهي الآلة الموسيقية الوحيدة عند سكان الجزيرة تقريبا". هاهي الشبيبة تجتمع في الرقصة الليلية (رمسسه). على الضربات الإيقاعية للطبل وتصفيق الأكف يرقص الشباب والشابات في الظلام الكامل أو على ضوء القمر منتشين بالإيقاعات، تارة يتحركون صفوفا" لملاقات بعضهم بعضا" وتارة يتباعدون وهم يدقون الأرض بأقدام حافية وبجنون. وتتواصل رقصة (رمسه) أحيانا" الى انبلاج الفجر، فالعمل في كل الأحوال غير ممكن.





الفصل الثامن

في العرس السقطري



الطفلة فتحية ، ابنة عبدالله



التحية السقطرية

ربطتنا بأحمد، الشاب الصغير من حديبو، صداقة قديمة، فحينما مرض أبو الفتى، حموديش مرضا" خطيرا" (أصيب كما يبدو بالتهاب رئوي) ساعد فقط البنسلسن الذي أخذته معي الى الجزيرة، وكاشفني أحمد انه منذ فترة يريد الزواج، إذا انه قد بلغ العشرين من العمر، لكن والده لم يسمح له. وهاهو أحمد في النهاية قد جاء ليدعوني الى العرس: لقد تحققت أمنيته القديمة.

- الزواج، مسألة جادة، وتتطلب على الأرجح إستعداد كبير؟ سألت الشاب حين جلسنا على حصيرة النخيل وصبينا لكل منا قدح شاي لذيذ بلبن الماعز والهيل.
- نعم، من أجل ان تتزوج ينبغي أن تقف على قدميك، لأنها تنتظرك مسؤلية رعاية الأسرة، أوضح أحمد.
- ولكن أليس المهر عندكم في الجزيرة قليل، ربما عشر أغنام يمكن أن تكون متجمعة لديك؟ سألته أنا.
- ليس الأمر في المهر فقط -أجاب أحمد- حتى لو كانت النقود أو الأغنام غير كافية، فأنا أستطيع الأستلاف من الأقرباء أو من الناس الآخرين، فنحن نساعد بعضنا البعض دائما"، ووالدي قد ساعد الكثيرين، وعند الحاجة القصوى يمكنني الذهاب لطلب المساعدة في الجبال عند افراد القبيلة، ومع كل ذلك، فأن الآباء ماكان لهم أن يوافقوا لي على الزواج، لو إنني لا أستطيع بعد تحمل مسؤلية الأسرة وتدبير الشؤن المنزلية.
- وهل وافق والدك الآن؟
- نعم، وافق الآن على الفور، حتى إنه وعد بدفع المهر -قال أحمد- وقد كدت أطلب من صديقي الذهاب معي لأقناع والدي لكن الأمر لم يعد يتطلب ذلك.
- ومن هي الفتاة التي اخترتها، أجبلية؟ تسالت أنا.
- نعم الاختيار بالنسبة لي غير مهم -قال أحمد ببساطة- المهم أن أتزوج لأنني قد كبرت، وكان صديق لي قد نصحني بفتاة هي بنت حمدينو، مقدم قبيلة قعرهي.
- لاشك إنها فتاة جميلة؟
- دون شك، وافق الشاب بسرور.
- وهل حصلت على موافقة آباء الفتاة وموافقتها هي شخصيا"؟
- ماذا دهاك، أنا لا أستطيع الظهور هناك قبل الزفاف -أجاب أحمد- وعندما وافق أبي إصطحب معه صديقي واتجها معا الى أسرة الفتاة، وتحدثا مع والد فاطمة الشيخ حمدينو، وفي البداية تشبث الشيخ الكهل برأيه، قائلا" إنه يشك في ان يكون قد آن الأوان لزواج فاطمة، ويمكنه أن يعطي الرد فقط بعد أن تراها (شيبيب) وتقرر فيما اذا كان يمكن للبنت ان تتزوج.

فيما بعد رووا لي بالتفصيل عن هذه العادة المتبعة في سقطرى. وعلى أية حال، ففي سقطرى، كما في اليمن غالبا" مايتزوجون مبكرا" جدا"، اذ تتزوج الفتيات في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، و أحيانا" يزوج الآباء البنات في سن ما بين العاشرة أو الثالثة عشرة. وعادة فأن الآباء بأنفسهم لايعرفون عمر بناتهم، ولكي يحددون هل بلغت

الفتاة يستدعون عجوزا مجربة (شيبيب) وهي التي تحدد هل حان موعد زواج الفتاة وتشهد على عذريتها. أما الشباب فيتزوجون في سن متأخر، ولكن الأسر الميسورة يزوجون أولادهم أحيانا" في سن الثالثة عشرة. وقد قابلت شابا" لم يتجاوز الثلاثين من العمر، ومع ذلك فلديه حفيد أيضا".

- مع ذلك فإن الوالد أقنع الشيخ قائلا" له إنني لست (عربي) ولن أمس الفتاة بأذى، حتى ولوكانت طفلة صغيرة -واصل أحمد- إذ إنه يمكن الانتظار، والشيء الرئيسي هو الزواج.

و (عربي) هنا تعني " الغريب "، هكذا يطلقون على جميع الوافدين الى الجزيرة من اليابسة. وهؤلاء الغرباء يأتون بأستمرار الى الجزيرة للزواج من السقطريات، وينحصر الأمر في ان المهر هنا أقل بكثير عما هو في اليابسة، والى وقت قريب كان يمكن الزواج مقابل خمسة دنانير، عليك دفعها لأسرة الفتاة فتصبح زوجتك. أما الآن فأن المهر أكثر والزواج أصعب، ولكنه مع ذلك أسهل مما في اليمن، ولازال المهر حتى الآن في بعض الأماكن يدفع بالشكل العيني، أي من الأغنام والماعز، وفي السابق كانت الأسر الفقيرة تزوج بناتها في حالات كثير على الرجل العجوز الذي يدفع مهرا" اكثر وهدايا ثمينة لكل أفراد الأسرة. وكان الأمر مع الطلاق أسهل مما في الزواج، فالرجل يترك المرأة ويأخذ من جديد النقود أو الماشية التي سبق ان دفعها لها، وبمقابل ذلك يمكنه ان يتزوج أيضا" اكثر من مرة. وحتى الاستقلال في عام ١٩٦٧م كان التجار الأغنياء وملاك زوارق الصيد (الصنابق والهواري) من أقرباء السلطان بن عفرار يعيشون مع زوجاتهم عامين أو ثلاثة أعوام، ثم يستبدلونهن بأخريات اكثر صغرا"، أما الآن فقد منع قانون الأسرة الجديد الذي شرعته الحكومة اليمنية إستعادة المهر وحدد فارق السن بين الزوجين بعشرين عاما" كحد أقصى.

شاهدت في حديبو رجلا" كهلا" كان قد اشتهر بـ " كثرة الزواج " في حياته الأسرية، فقد تزوج اكثر من ستين مرة!! وما أن لمح الشيخ العجوز كاميرا التصوير في يدي حتى ركض عائدا" إلى البيت مغطيا" وجهه بيديه، وقد أخذوا منه مؤخرا" الزوارق والصنابيق ويمتلكها الآن الصيادون بأنفسهم، ويخاف المذنب القديم كل شيء على هذه الأرض.

- اسمع يا أحمد -أقول للفتى- أليس من الأفضل لك أن لا تتزوج على مثل هذه الفتاة الصغيرة؟

- لا تقلق، إذا لم تسمح (شيبيب) فلن أقترب منها طالما انها لم تكبر وتبلغ مبلغ النساء -يؤكد أحمد ويواصل- ثم ان حميدون قد وافق، وتم الأتفاق على المهر والهدايا وعلى ان يكون الزواج هذا اليوم. وقد ذهبت الأم والأخ بالفتاة صباح اليوم في زيارة وسيعودان بها فقط بعد غروب الشمس، لكي لاترى الإستعدادات للزواج ولكي لاتفطن أي شيء.

- وماذا بعد ذلك؟ سألت أنا.

- في الساعة الخامسة يكون بأنتظارها أمام منزلها مجموعة من الرجال، ويقوم أحدهم بالهجوم عليها ويخوفها، فيما يبدأ الآخرون بقرع الطبول والغناء. وبعد ذلك تتم عملية (الطرح) وهي مراسيم تزيين الفتاة. وتقوم النساء بأصطحاب فاطمة الى البيت ويجلسنها على الفراش ويعلنين عن الزواج القادم، وخلال ساعة تقريبا" يفرحن ويغنين ويقرعن الطبول ويتحدثن عني، ثم تغادر النساء ويبقى معها الأقرباء فقط.

- واذا حدث وانها غير موافقة؟ سألته أنا.

- إنها ملزمة في نهاية الأمر أن توافق، لأن مصير كل الفتيات الزواج أن أجلا أم عاجلا"، أو ليس من أمر آخر؟ -بثقة أوضح لي أحمد- وبعد ذلك عليها أن تختار شاهدين، يذهبان مع والدي وصاحبي الى القاضي ويؤكدان، بعد القسم على القرآن، إن الفتاة موافقة على ان تتزوجني بأرادتها شخصيا" وبدون إكراه. ويمكن أن يكون الشهود من أقرباء الفتاة، على سبيل المثال والدها، وعند ذلك يسجل القاضي قراننا زوجا" وزوجة.

وهاهي الأمسية الاحتفالية تحل، يجتمع عند بيت حمدينو الكثير من الناس، الرجال في جهة واحدة، والنساء في الجهة الأخرى. وقد استدعى والد أحمد الى زفاف ابنه، فرقتين موسيقيتين (معالمه) و(تيلود)، يعرف (المعالمة) اللغة العربية وهم يعزفون على المزمار " الناي" ويقرعون الطبول وينشدون الأغاني التقليدية العربية، كما توجب التقاليد الأسلامية تأديتها في مراسيم الزفاف. وجماعة (تيلود) يقرعون الطبول أيضا"، ولكنهم يغنون بالسقطرية، وهم ينشدون أغاني شعبية أصيلة مدهشة، تناقلها السقطريون جيلا" بعد جيل منذ قديم الأزل.

- واي، يه واي- تردد جماعة فرقة (تيلود) بحماس ويكررون المقطع الشعري المتتابع، ويرقص الضيوف بحماس ويرددون بفرح وسرور تلك المقاطع، وبشدة يضربون كفا" بكف، بحيث يشكل التصفيق المدوي مع دمدمة الطبول لوحة إيقاعية فريدة. وهاهم مجاميع من الشباب قد انتظموا في صف وأخذوا يقفزون على قدم واحدة و على دوي تصفيق وهتافات المحيطين، وبكل قواهم وبحماس يدقون أقدامهم على الأرض، وفي مواجهتهم يتحرك صف آخر من الفتيات بحركات رشيقة، ونظراتهن تتجه الى الأسفل من الحياء، وبخطوات اكثر بطئا" تهز الفتيات اكتافهن فتتماوج الثياب الحمراء، الصفراء، الخضراء، والسوداء، التي خيطت بخيوط فضية اللون، وتصلصل حلي وادوات الزينة الكثيرة، وظهر الرقص الطويل وكأنه رتيب لولا الأيقاعات السحرية التي دفعتني أنا للقفز في موقعي والتصفيق بضرب الكف بالأخرى وهز الرأس.

- وأين هي العروسة؟ سألت الشاب السعيد أحمد.

- إنها تجلس في البيت مع الخالة والأم -يجيب الشاب- وهي اليوم لاتملك الحق في الخروج من المنزل، وكذلك ستجلس غدا" طوال اليوم في البيت في غرفة مغلقة، ومع حلول المساء سأذهب الى هناك مع الهدايا، وعند ذلك فقط أقضي عندها الليلة الأولى، ونصبح حينها زوجا" وزوجة، ونعيش في منزل حمدينو أيضا" مدة يومين أو ثلاثة أيام، ثم أصطحبها بعد ذلك الى بيتي، وخلال أيام سيكون لدينا في البيت عيد آخر أدعو اليه

المقربين والجيران فقط، بما في ذلك جميع نساء الجيران، وعندها ستشارك معهن فاطمة في الإحتفال.

في ذلك الوقت يأتون بطعام الضيوف، وتبدأ الوليمة، ويضعون على الحصيرة المفروشة في فناء منزل حمدينو أطباقا" كبيرة، مليئة بأكوام الرز الساخن الذي يتصاعد منه البخار وقد رش بصلصة من الفلفل الأحمر، وفوق الرز وضعت قطع من لحم الماعز المغلية، يقدمون للضيوف أشهر والذ قطع اللحم، العين واللسان والكبد، وبعد أن يشبع الضيوف ينتقلون لشرب الشاي، فيما يواصل الموسيقيون العزف: ولهم يتم إعداد طاولة خاصة بعد منتصف الليل.

وفي هذا الوقت، الساعة الثانية ليلا"، يذهب الرجال مع النساء الى الفتاة بمرافقة حمدينو. ويقوم الرجال الذين بقيوا عند الباب بالغناء وقرع الطبول. والى الغرفة حيث تنتظر العروسة، محروسة بالأم والخالة، يدخل أحمد فقط، ويقوم بـ(المسح)، أي يقدم الهدية لزوجة المستقبل، حيث يميل الى ناحية فاطمة ويضع فوق رأسها ورقة مالية لاتقل عن عشرة شلنات، هي رمز الحالة الميسورة للعريس وقدرته على العناية بالأسرة، وهي هديته الأولى للعروسة، وفي ذات الوقت رؤيتها المتأخرة بعض الشئ، ويظل الرجال يفرحون ويرقصون حتى مطلع الفجر، حالما يحين موعد صلاة الصبح، وبعد إستراحة قصيرة وتناول الفطور، يتواصل العيد من جديد.

في اليوم التالي تقوم (جريفه) وهي أشبه بالمنادي، بأخطار كل نساء القرية عن الزفاف، وبعد منتصف النهار يلتقين جمعيا" على أنغام موسيقي الزفاف المرحة في فناء منزل العروسة، وبعد الفرح تنتقل النساء الى المراسيم الإبتهاجية لجمع النقود: تضع كل واحدة منهن على طبق خاص مبلغا" محددا"، ويدون الكاتب المدعو خصيصا" لذلك في سجل اسم كل امرأة والمبلغ الذي وضعته، وتذهب هذه النقود لوالدي العروسة. في هذا اليوم تعيد كل نساء القرية ممن لديهن بنات لأم فاطمة تلك النقود التي كانت هي قد أعطتها لهن في زمن ما في يوم زفافهن، ويضيفين من عندهن اليها بعض الشيء. وعندما يحين زواج بناتهن فإن فاطمة، اذا ما كان لها حتى ذلك الوقت طفلة، ستعيد الدين وتضيف من جانبها ماتستطيع عليه أيضا"، وهذه الأضافة مع ((نسبة)) جديدة ستعود الى فاطمة عندما يأتي دور إبنتها. أما اذا لم تنجب فاطمة بنات، فأنها لاتستدعي الى جمع النقود، وفي هذه الحالة يكون على أمها تسديد الدين، لأن النساء اللاتي لا بنات لهن لايدفعن القسط: ربما لأنه لايوجد لديهن من يعاد اليه الدين؟

يسجل الكاتب بعناية بالغة هذه الحسابات المعقدة، رغم إن النساء بدون ذلك يحفظن هذا في الذاكرة لأعوام طويلة، كما قالوا لي. وبمثل أو اصر المساعدة المتبادلة والتعاون هذه ترتبط أجيال النساء السقطرية. وفي الجبال حيث لايعرفون النقود تقريبا"، يقدمون المساعدات بشكلها العيني من الأغنام والسمن.

ان هذه العادة المهمة تعكس الدور الكبير الذي تلعبه المرأة في المجتمع السقطري وفي حياة الأسرة الأقتصادية، ومع ذلك فقد لاحظت ان والد فاطمة أبدى قلقا" اكثر بصدد ما إذا إتفقت النساء مع جريفه، وفيما اذا سيحضرن جميعا" في الوقت المحدد.

بعد استكمال النساء إستعادة ديونهن، يتم دعوتهن الى مائدة عيدية، وتوضع على الحصيرة صحون من السمن البقري السائل وأقداح اللبن. وللضيوف يقصون خصيصا" قربا" من التمور المنقاة من النواة، كانت قد ملئت صيفا".

في غرفة فاطمة تستلقي كومة من الحلي الفضية التي اهداها لها والداها: من ستة الى عشرة أسوار لكل يد، وأساور للأرجل وعدة أزواج من الأقراط. في المساء يأتي أحمد بهداياه (سبحه) وهي ثياب متعددة الألوان: صفراء، حمراء، خضراء وسوداء، وكذلك الكثير من الروائح العطرية والدهون ذات الرائحة الشذية لتدليك ومرخ البدن وكحل للعيون. وبعد يوم يأتي الجيران الى فاطمة لرؤية الهدايا التي قدمها لها الزوج.

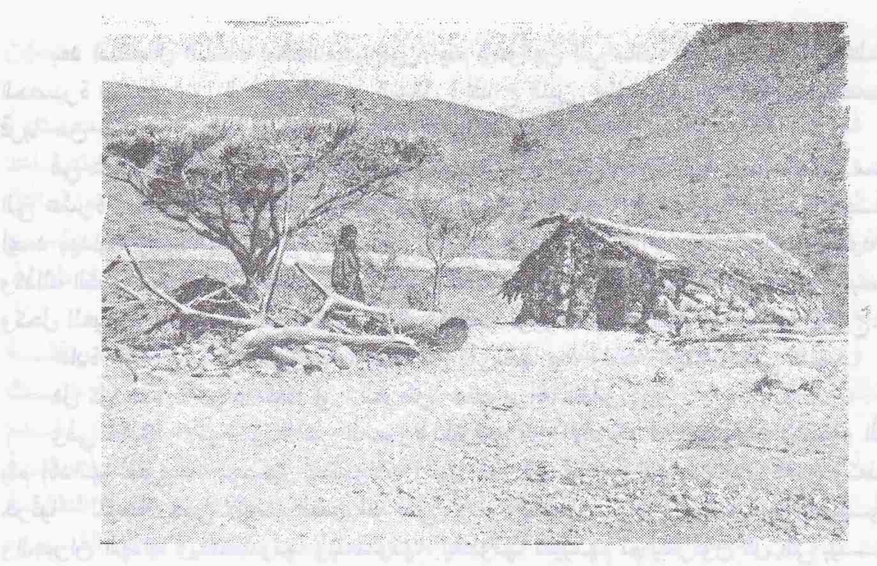
عادة، ما أن تستلم العروسة الهدايا من أقربائها بعد وليمة الزفاف حتى تدقق:

- هل كل هذه الأشياء ملكنا أم " للعرض" حتى يراها الناس؟

وفي حقيقة الأمر، ان الأسر المعوزة تقترض من الأقرباء أو الأصدقاء الأشياء التي يتم إهدائها للعروسة بحضور الضيوف، ومثل هذه الهدايا هي للعرض (دي فانه) وتعني حرفيا" " للوجه" حتى لايحكم الضيوف على الأسرة بالبخل، وبعد أن يشاهد الضيوف والجيران الهدايا ويتفحصونها ويلمسونها، يعطونها تقييمهم ثم يتفرقون كل الى بيته. عندها يتم إعادة الأشياء الى أصحابها. ولذلك ما أن تعرف فاطمة الآن، ان كل هذه الهدايا ستبقى لها ستفرح كثيرا" جدا".

عندما تدخل العروسة للمرة الأولى بيت العريس ينبغي حسب التقاليد القديمة أن ينحروا خروفا" ويرشون دمه الحار والطازج على عتبة الدار تحت أقدامها، كي تتخطى من خلال الدم، وفي أسوأ الحالات، يطلون بالدم قوائم الباب. تقود الجارات فاطمة الى بيت العريس ويراقبن هل اتبعت كل العادات...

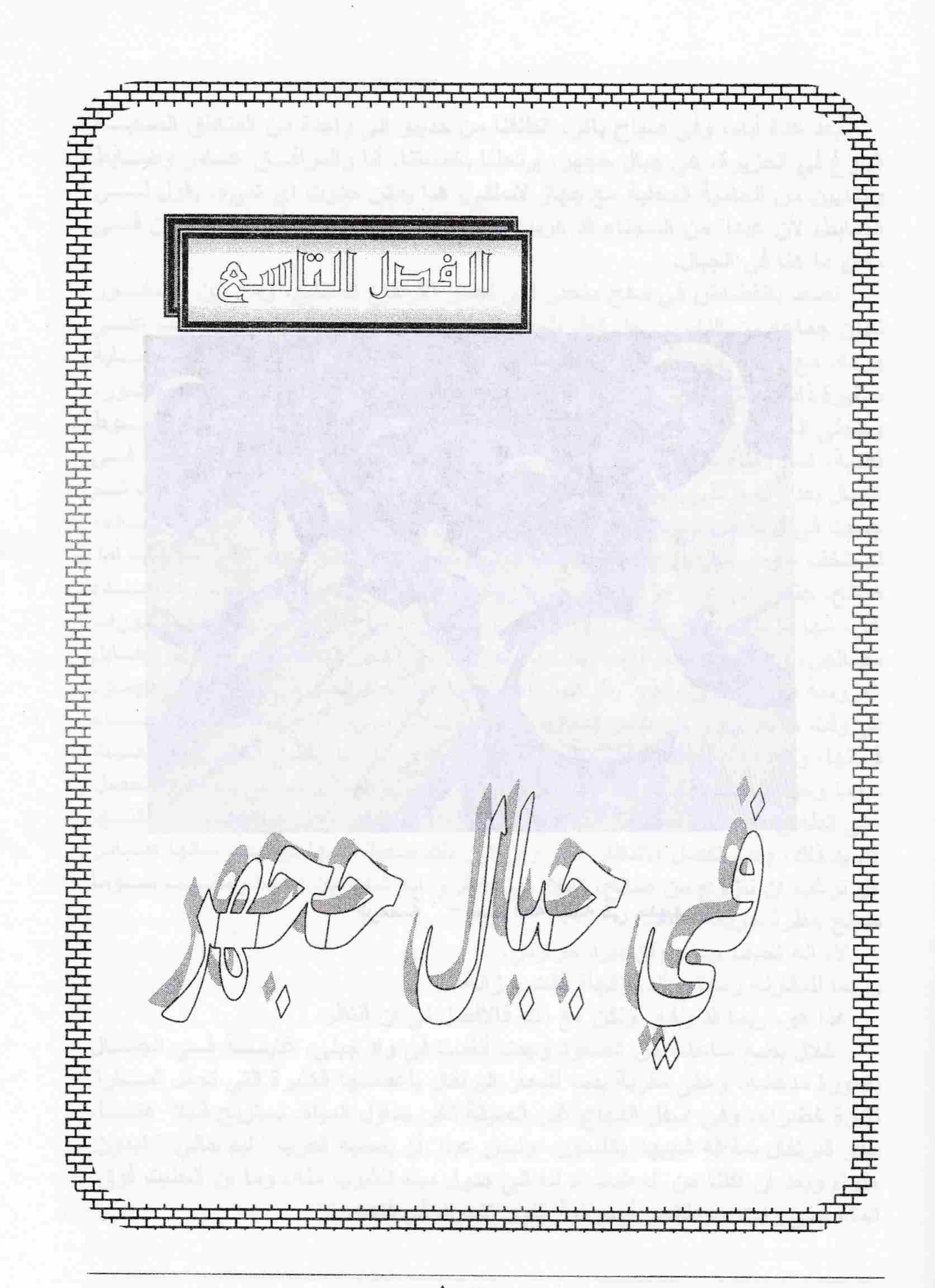
وخلال عدة أيام فقط تطلعت إلى بيت أحمد فرأيت زوجته الصغيرة. فتاة في الثالثة عشرة من العمر، لازالت مرتبكة في دورها الجديد. أحضرت لنا الشاهي على الصحن وقد دهن وجهها الغض بزيت أصفر عطر الرائحة وفي أحد جانبي أنفها تسطع نقطة ذهبية وعلى أذنيها أقراط كبيرة، ومع ذلك يبدو عليها الآن ذلك ألإعتزاز وتلك الرشاقة التي تمتاز بهما النساء السقطريات.



في قرية قاضب في الساحل الشمالي للجزيرة



شباب سقطري على متن السفينة


الفصل التاسع
في جبال حجهر



" الرمسة " - استراحة ليلية في حديبو

بعد عدة أيام، وفي صباح باكر، إنطلقنا من حديبو الى واحدة من المناطق الصعبة البلوغ في الجزيرة، هي جبال حجهر، إرتحلنا بخمستنا: أنا والمرافق عامر وضابط وجنديين من الحامية المحلية مع جهاز لاسلكي، هنا يمكن حدوث أي شيء، يقول لي الضابط، لأن عددا" من السجناء قد هربوا مؤخرا" من تحت الحراسة، وهم يتخفون في مكان ما هنا في الجبال.

نصعد بأنقضاض في سفح منحدر لكي نجتاز الأرتفاع المتتابع، ومن بين الصخور تتبين جماعة من الناس: رجل كهل بلحية جميلة شيباء، وعصابة واحدة ربطت على وركه، مع سكينة منزلية كبيرة معلقة عند الخصر، وإمرأة طاعنة في السن وشابة صغيرة ذات جمال باهر. عيون كبيرة مغطاة برموش كثيفة، وأنف دقيق يكاد أن يتكور، وتتجلى السمرة اللطيفة للبشرة من الثوب الأخضر الساطع الذي خيطت أطرافه بخيوط فضية، اسم الفتاة سوما، وهي تسوق الحمار بحمولته، فالأسرة تعود إلى البيت في الجبال بعد رحلة على الشاطئ، إدخروا خلالها التمور التي تم تنقيتها من العجمات ثم جمعت في قربة من جلد الماعز، وهذه الإحتياطات ينبغي أن تكفي حتى الموسم القادم، لم تتخف سوما عنا، بل احتفظت بأستقلاليتها وشجاعتها، خاض معها عامر الحديث، أما صالح، جندي من عدن مرافق لنا، فتمعن بالبنت، وتمطق لسانه كأنه يكلم نفسه: هذه هي، انها مناسبة على مايبدو!، إن صالح يرغب في الزواج، والسقطريات مشهورات بجمالهن، ولايقل عن ذلك أهمية بالنسبة للعريس ذي الدخل المحدود، المهر مقابل العروسة في سقطرى والذي يقل كثيرا" جدا" عما هو عليه الحال في بقية مناطق اليمن. في وقت متأخر روى لي عامر قصة سوما، فمنذ ثلاث سنوات تزوجت على أحد أبناء قبيلتها، وبعد ليلة الزفاف بقليل سافر للعمل في احدى إمارات الخليج العربي،وأصبحت سوما وحيدة، ومنذ ذلك الوقت لاتعرف أية أخبار عن زوجها، وتستطيع سوما أن تحصل على الطلاق، لأن النساء يفعلن ذلك في كثير من الأحيان في الوقت الحاضر، لكنها لاتريد ذلك، وهي تفضل الأنتظار حتى وان كان ذلك صعبا" عليها كوحيدة، سألها عامر هل ترغب أن تتزوج من صالح، قائلا" لها: أنظري انه شاب من ذهب! رمقت سوما صالح بنظرة سريعة وقالت:

- لا، انه نحيف جدا"، ولن يبرد حرارتي.

وربما للمقارنة رمقتني أنا، وفجأة قالت برزانة:

- هذا هو، ربما قد ينفع، ولكن مع ذلك فالأفضل لي أن أنتظر.

خلال بضع ساعات من الصعود وجدنا أنفسنا في واد جبلي، غاية في الجمال بصورة مدهشة، وعلى مقربة بدت أشجار البرتقال بأغصانها الكثيرة التي تحمل ثمارا" كثيرة خضراء. وفي أسفل الفجاج غير العميقة تخر جداول المياه. نستريح قليلا" هنا، يبدو البرتقال بمذاقه شبيها" بالليمون، وليس عبثا" أن يسميه العرب " ليم حالي" " ليمون حلو"، وبعد أن أكلنا من المعلبات نزلنا الى جدول مياه لنشرب منه، وما أن أنحنيت فوق الماء حتى رأيت سرطانات أرجوانية اللون تتحرك في قاعه.

بعد ثلاث ساعات من صعود هضبة حجهر، نصل في نهاية الأمر إلى موقع سكن القبائل الجبلية. أمامنا ينفتح منظر بهي مدهش: أودية خضراء، ترتفع فوقها صخور بيضاء، حيث يعيش فقط المعز الجبلي وسكان الكهوف القليلون، إن ظروف معيشية الجبليين في سقطرى صعبة جدا" للغاية، ولاغرابة أن يستحيل التفوق عليهم في المشي، إذ انهم يمشون طوال أيام بكاملها حفاة متسكعون في الجبال، ويضطرون في بعض الأحيان الى النزول بأمتعتهم الكاملة ومواشيهم الى المناطق الساحلية، وقد اعتاد الجبليون على البساطة والتواضع، وهم يستطيعون النوم في أية مكان، على الصخور أو فوق التراب أو في الكهوف.

في جبال حجهر كثيرا" مايكون البرد ورذاذ المطر الخفيف مستمرا"، وفي بعض المواسم تتغطى القرى بغشاوة من السحب المتراكمة، وهكذا تكون الدنيا مظلمة على مسافة متر واحد.

ويلبس الجبليون فقط ربطة حول الورك، هي عبارة عن قطعة قماش خشنة ومتسخة، ذات لون أصفر، تلتف حول الورك ولاتصل حتى الى الركبة، ويلقون في بعض الأحيان على الكتف قطعة ثانية كهذه أيضا". لكن الجزء الأكبر من الرجال عراة الأجسام حتى الخصر. ويعيش الجبليون في الكهوف والمغارات أو في بيوت شيدت من أحجار الصخور الملساء، وهي غير مثبتة بعضها ببعض، وجميع الأثاث عبارة عن عدد من الحصائر والقدور، وفي المواقد يضرمون النار. ولا يعرف الإقتصاد العيني للجبليين المقايضة والتبادل تقريبا"، وهم معزولون عن العالم الخارجي لإنعدام الطرق الجبلية، ولاتوجد لديهم حتى عيدان الثقاب، وفي إعتقادي أن هذا المكان أحد الأماكن القليلة على الكرة الأرضية حيث لازالوا يحصلون على النار حتى الآن بالطريقة البدائية: أما يقدحون حجرا" فوق حجر بضربات عدة، وأما يستخدمون إحتكاك أثنتين من العصي، وهذه العصي يتم الحصول عليها من شجرة تنمو فقط في سقطرى، في واحدة منهما تجويف غير كبير، ويقعد الجبلي على الأرض قابضا" بشدة على قطعة الشجرة بين أقدامه، ويضع في التجويف طرف العصا الثانية ويبدأ بتدويرها بسرعة براحتيه من الأعلى الى الأسفل ويضغط في ذات الوقت على العصا السفلى وسرعان ماتبدأ العصا بالاحتراق، وفي المحز الذي عمل بجانب التجويف، يضعون كمية من النشارة أو الروث الجاف، وهكذا تكون شعلة النار جاهزة، ويقوم الجبليون بكل هذه العملية في أقل من دقيقتين.

وأعترف انني حاولت طويلا" تعلم الحصول على النار بهذه الطريقة، وفركت حتى بان الدم على راحة اليد، وبعد عشر دقائق فقط من الفرك فوق آلة الإختبار بدأ الدخان يتصاعد.

تثير الدهشة مساكن الجبليين المبنية من الحجارة، وهي حجارة كبيرة إلى حد ما، ويبدو، وكأن رفعها يدويا" أمر غير ممكن. ومن غير المعروف مطلقا" لماذا لايتهدم مثل هذا البناء غير المتين أمام مرأى العين، ومع ذلك فإن حجارة الكوخ تقف بصورة ثابتة للغاية. ندخل في واحدة من هذه " المساكن ". وعوضا" عن الباب توجد فتحة مباشرة، وفي الداخل " غرفة " واحدة فقط، فرشت أرضيتها بالتبن، قرب الحائط أدوات بسيطة.

وفي الخارج قبل الدخول توجد مساحة صغيرة، محاطة بسور غير مرتفع بحدود نصف متر تقريبا" ومن نفس الأحجار أيضا" وهذا هو فناء البيت أو الحوش. وبجانب المسكن الحجري صخرة مسطحة كبيرة، ترتفع قليلا" من ناحية واحدة بحدود نصف متر، ووضعت من تحتها أحجار، اتضح ان هذه هي " المنامة الزوجية " لصاحبي البيت، وينام الأطفال في " المنزل " وفي الليل يعتلي الآباء على اللوح الحجري حيث ينتظرهم فراش من التبن.

في الجبال، بعيدا" عن القرية يقع منزل طنوف، وهو رجل ميسور إلى حد ما، فلديه خمسة عشر رأس من الأبقار وبضع عشرات من الماعز والضان، وبجانب البيت جنينة (بمساحة لاتزيد عن ١٠٠ متر٢) تنمو فيها بعض الخضروات، ومثل هذه الأحواض، أو الجناين يمكن أن نجدها في سقطرى، وفيها يزرعون الطماط والقرعيات والبصل والبقول، ولكن بكميات قليلة جدا"، وكأن الجنينة بالأصح زينة للبيت، بمثابة حوض زهور أكثر مما هي عون للأسرة. لدى طنوف ثلاثة أولاد، الطفل الأصغر في السابعة والثاني في التاسعة والأكبر في الحادية عشر من العمر، وهم كذلك عراة الى الخصر، ولكن عوضا" عن الربطات الخيشية، فأنهم يأتزرون " فوطة " حضرمية أصلية، وهي تنورة رجالية تربط بشدة من الأعلى بحزام عريض. وتعد "الفوطة" اللباس الرجالي الرئيسي في الجنوب العربي وكذلك في عدد من مناطق شرق أفريقيا وجنوب شرق آسيا.

يساعد الأطفال طنوف في رعي وحلابة الأبقار، وهي أبقار شقراء مرقطة بالأسود والأبيض، قصيرة القامة وهزيلة البنية، ومع ذلك فلها طبع عدواني، وفي المرعى هجمت علينا على الفور وسعت جاهدة لنطحنا.

ولدى كل أسرة جبلية مرعاها الخاص، والحدود بين المراعي التي تمتلكها مختلف الأسر، تكون غير مرتفعة وتشيد من حجارة الجناين. وتعتاد الماشية الرعي في مراعيها الخاصة، لكنها في بعض الأحيان تذهب إلى الجبال، إلى الخمائل والأدغال بحثا" عن الآعشاب، ولا أستطيع أن أقرر هل تعرف الأغنام صاحبها، أم أن المالك يعرف كل خروف، ومع ذلك فإن البهائم التي يمكن مصادفتها أحيانا" في أماكن غير متوقعة لديها بالضرورة صاحب ولايمكن ان تضيع. يقول طنوف أن الأرض هنا مقسمة الى قطع عائلية، وإذا أكلت النعجة كل الأعشاب في مرعاها الخاص فأنها تنتقل الى القطعة المجاورة.

بالطبع -يوضح طنوف- أن المنزل يملكه الإنسان، أما القوت فمن عند الله، وأية فائدة يجنيها الجار إذا انا أموت من الجوع؟ إن من الأفضل أن ترعى أغنامي اليوم لديه، في الغد سترى ان مواشيه تحتاج للمساعدة.

حقا" ان التكافل والتضامن العام هنا لازال يسمو فوق العلاقات التي كونتها الملكية الخاصة، ومع ذلك توجد ملكية الماشية وهي موجودة حتى داخل الأسرة. ففي بيت طنوف تعود ثلاثة أربعاع الماعز والأغنام لزوجته والربع الباقي له. وإذا رغب في ترك زوجته والزواج من صغيرة، فأنه سيأخذ الربع من الماعز والضان الذي يعد ملكيته،

وعلى تلك البهائم التي تعود له علامات خاصة، وكل الماعز والضان التي تولد من مواعزه وضانه تعتبر ملكيته أيضا"، امابعد موت الأباء فإن جميع الماشية تقسم بالتساوي بين الأبناء، واذا رزق طنوف وزوجته بالبنات فإنه ستكون لهن حصة أقل بمرتين عما للأولاد، ولكن فيما اذا تزوجت احدى البنات على رجل غني والأخرى على رجل فقير، فأن حصة الأولى في هذه الحالة يمكن أن تعطى للثانية.

لازال إقتصاد الجبليين في سقطرى عينيا"، وحاليا" تعد الحكومة اليمنية خطة لتطوير الجزيرة، تقتضي فضلا" عن إنشاء إقتصاد زراعي في الجزيرة، تحويل الأقتصاد العيني الصغير وتربية الماشية الى إقتصاد بضائعي وهي عملية طويلة وصعبة، قلت لطنوف إنه في المستقبل سيكون عضوا" في التعاونية وأنه لن يكون بحاجة هو وأطفاله للجري في الجبال من الصباح الى المساء، وان الأغنام لن تموت من الأمراض لأنه سيكون للتعاونية طبيب بيطيري، وستجلب الدولة الرز والدقيق والسكر وعيدان الثقاب، وسيستطيع الناس الذهاب الى الطبيب وسيتم تصدير الأغنام والماعز التي ستتكاثر إلى بقية مناطق اليمن ولن تحتاج الدولة لشراء اللحوم من خارج الحدود.

- وهل سأبيع نعجاتي؟، تخوف طنوف -هل تريدها أن تذهب إلى السفينة وأنا أتفرج على ذلك بهدوء؟ من الأفضل أن أموت! نحن في النهاية سنموت من الجوع، ماذا سنأكل إذا بدأنا بأرسال أغنامنا إلى عدن؟

ان الماشية تغذي السقطري، وفي الجبال الكثير من من الماعز والأغنام، لكن أصحابها لايرغبون في بيعها، في السابق قبل أن يأتي أحد تقريبا" الى الجزيرة كان سعر الماعز هنا ثلاثة الى أربعة شلنات. والآن فإن مرافقي إبتاع خروفا" للغداء من طنوف بسعر عشرون شلنا"، وهذا بطبيعة الحال رخيص جدا" أيضا". أن الواصلين حاليا" من عدن الى الجزيرة اكثر، وهم يحصلون على مرتبات حكومية، وفي الجزيرة يعرفون أفضل الطرق للحصول على النقود. وطنوف سيشتري بهذه النقود الرز المهروم.

يذبح عامر البهيمة بسرعة ويفصلها ثم يستخرج الكبدة الملطخة بالدم ويعطي لكل منا قطعة وأنا الضيف في المقدمة، ومن كل بد يأكلون الكبدة نيئة ليس فقط هنا ولكن عند كل البدو في الوطن العربي وهي أشهر طعام الضيافة.

وحتى يجهز الغداء الذي دعينا إليه فأن طنوف يحلب الأبقار، لأن الوقت هنا ثمين، والأطفال من جانبهم يخضون السمن بطريقة محكمة، حيث يخفقون قربة من جلد الماعز مملوءة باللبن على حجر. والحليب هو المادة الرئيسية لغذاء الجبليين ولقد نما أولاد طنوف على الحليب والتمور أما اللحوم والأسماك فيأكلونها فقط عدة مرات في الحياة، وقبل عام مضى تذوقوا الرز لأول مرة.

الجبليون ليسوا فقط مشائين ممتازين، ولكنهم أيضا" قفازون مهرة ويحب الشباب التسابق في الوثب العالي، وهم يقفزون إما من حجر إلى حجر وإما ثلاث قفزات متتابعة في كلا الرجلين، على غرار الوثب الثلاثي الرياضي، إلآ أن الأرجل تنضغط معا"، ومثل هذا القفز صعب جدا" للغاية.

سألت أولاد طنوف، هل يستطيعون القفز؟، بالتأكيد! وبكل سرور إنتظم الأطفال في صف وأخذوا يقفزون كالأرانب ثلاث مرات، ويكسب الجولة عيسى، وأقيس المسافة التي قفزها خلال القفزات الثلاث فكانت بحدود اثني عشر مترا"، من الدهشة نطقطق بألسنتنا، والطفل المشجع، وعمره تسع سنوات فقط، يتسلق الصخرة ليعرض لنا فنه ومهارته مرة أخرى، انه يريد القفز الى صخرة أخرى حادة وغير مستوية تبعد عن الأولى بثلاثة أمتار. أعددت الكاميرا لألتقاط صورة، لكنني لاحظت نظرات الأب المحذرة القاسية:

- لاضرورة للتصوير -ويمسكني عامر من أكمامي- إذا وقع عيسى فإنه سيترضض بشدة، وعندها سيعتبر والده ان عينيك أصابته بالسؤ، والجبليون شعب حار.

ولسبب ما أتذكر كيف رمى أحد أقرباء عامر بسكينه البسيط بدقة بالغة حتى ان اليد أسدلت من غير وعي عن الكاميرا، أما الطفل فيصعد بمهارة الى الأعلى ويهبط بسلام، ويبقى ان تحسده على صلابة اقدامه التي يسقط بها بقوه على الاحجار الحادة عديمة الإستواء، والتي أحس بوخزها حتى من خلال النعل المطاطي للحذاء الرياضي.

لدى الأبن الأكبر في كل صدره وفي الجزء الأيمن من الرأس ندوب كبيرة، إنها آثار الكي، العلاج الشعبي الذي انتشر في زمن ما في كل الوطن العربي، وحتى الآن لازال سائدا" في الأرياف النائية في مصر وشمال أفريقيا والجزيرة العربية، وعلى مايبدو أنه حين كان صغيرا" قد أصيب بالتهاب الرئتين وربما أيضا" التدرن الرئوي، السل، الذي يكاد نصف السكان هنا مصابين به. يحمي الطبيب الشعبي (الحكيم) على النار سيخا" معدنيا" أو سكينا" إلى حد ألأحمرار، ويطبقه عدة مرات ناحية المكان المريض نفسه، وفي الظروف غير الصحية للحياة في سقطرى فإن الحروق الخفيفة تلتهب وتنتقل العدوى من خلالها. ومع ذلك فإن الصدمة الشديدة المؤلمة يمكن في بعض الأحيان أن ((تطرد)) المرض الأولى. ويلقى البعض حتفهم ويشفى آخرون. وبالكي يعالجون كل الأمراض، ومن النادر مقابلة إنسان في الجزيرة بدون آثار شديدة للحديد المحمي.

يعتبر اللبن ومشتقاته أساس غذاء الجبليين، وأكثر منتجات الألبان قيمة (حمئي) أي السمن بالعربية. ويحضر هذا السمن البقري بطريقة محلية، ويثمنونه عاليا" في الساحل وحتى خارج حدود سقطرى. و (حمئي) الى حدما سائل أصفر مكدر، قريب في تركيبه من السمن العربي، ويمخض الجبليون السمن بطريقة بدائية، تتطلب كثيرا" من الجهد وهي واحدة من أهم أنواع العمل المنزلي. بعد الحلابة يصبون اللبن في قرب من جلد الماعز، وفيها أيضا" يخضون السمن، ومن أجل ذلك يخفقون القربة خلال عدة ساعات على حجر (في الأجزاء الأخرى من الجزيرة العربية يخضون السمن كذلك في قربة، ولكنهم يعلقونها على حبل).

الشيء الآخر الذي لايستهان به في إقتصاد سقطرى غير المتطور يعتبر إنتاج عصارة الصبر، يقوم الجبليون بقطع الأوراق القديمة الغليظة لهذه الأشجار التي تجدها في كل مكان في الجزيرة، ويجمعونها في وسط جلد ماعز، ويحفرون حفرة في الأرض، ويكدسون في الأعلى كميات جديدة وتحت ثقلها تبدأ المجموعات التحتية إفراز العصارة التي تسيل على الجلد، ثم يصبون العصارة في قربة ويجففونها ويبيعون فيما بعد

المسحوق الذي يتم الحصول عليه. ويذهب جزء من هذه البضاعة الى الخــارج حيث يستخدم كوسيلة مسهلة وموقفة للدم ومطهرة ومبيدة للجراثيم، ويستخدم الصبر القـوي المجفف بشكل خاص كدواء مسهل في الهند.

بالطبع توجد الآن في الدول المتطورة أدوية عصرية وفعالة بمافيه الكفاية، ولم تعد هناك ضرورة للعلاج بهذه العصارة.

وعلى الأرجح فعدا هذه البضائع والمسك المستخرج من غدد " القطــط الوحشــية" وكذلك صمغ شجرة " دم الأخوين" فإن السقطريين لاينتجون شيئا" للبيع.

من البديهي إن تحضير السمن وجمع هذه المواد لايستغرق كل وقت البدوي. إن الحياة بذاتها في الإقتصاد البدائي تعتبر كفاحا" مستمرا" من أجل البقــاء، وإذا كــان النشـاط الأقتصادي للجبليين، الى حد معين، واضحا وجليا للمراقب، فإن مايحير الكثــيرين هــو الإنعدام الكامل لديهم لأية حرف أخرى، كتلك التي تجدها لدى الآخرين، بمــا فــي ذلــك الشعوب المتخلفة. لايدخن جبليو حجــهر الآ قليــلا"، ولايتعــاطون الشــاي والقــهوة، ولايعرفون تقريبا" الأدوات الموسيقية، وقليلا" ما يغنون، ولاتنتشر هنا أية ألعاب للتسلية على وجه التقريب، والرقص نادر، ولا أحد يرسم أو ينقش على الأشجار، ولا ينتجــون أية آثار فنية أو حرفية. هل يمكن إعتبار أن الجبليين في الجزيرة قد بقيوا عمليا" عنــد مستوى العصر الحجري، لايعرفون الصناعات الفخارية ولاصناعة المعدن ولا الزراعــة ولا الفنون الملاحية؟

توصلت بعثة اكسفورد على وجه الخصوص إلى هذا الإستنتاج ولكن يبدو لي إنــه ينبغي إنتظار الإجابة الشافية.

لم يتيسر حتى الآن لأحد من الأجانب إجــادة اللغــة الســقطرية، ويصعــب علــى الأوروبيين في هذه اللغة النطق، بما في ذلك مايسمى الأحرف الساكنة أو الجانبية. فعند لفظ الأصوات تغلق الفتحة الصوتية بين الأسنان باللسان، ويمــر الــهواء مــن خــلال الجهتين اليمنى واليسرى في الفتحة بين الأسنان والخـد. وتصعــب أيضــا" الأصـوات الحلقية وغيرها، وحديث السقطريين سريع ومبهم، عدا ذلك فإن اللغة تمتلك عدة لهجات فرعية، وبشكل خاص، تختلف بشدة فيما بينها لهجة الجبليين ولهجة ســكان المنــاطق الساحلية.

تكدست لدى كثير من الرحالة، الذين درسوا الجزيرة، تصورات غير صحيحة عــن الفلكلور السقطري واللغة والعادات، بسبب كتمان وتحفظ السقطريين وعدم رغبتهم فــي إطلاع الآخرين على أسرار لغتهم، ولكن حتى تلك الكتابات القليلة التــي تمكنــت مــن تسجيلها في الجزيرة ومن خلال لقاءاتي مع السقطريين في عدن في الأعــوام ١٩٧٢-١٩٧٥م، تبين أن في اللغة السقطرية أشكال كافية للتعبير عن مختلف المشاعر، ويوجد في حديث سكان سقطرى هزل وفكاهة أصيلة، وحديثهم طلق ومن غير تكلف، وهو ملئ بالمقارنات المجازية والإستعارات وغير ذلك من أدوات التعبير. ويستخدم الســقطريون غالبا" صورا" وأمثالا" وإستعارات مفهومة لهم وحدهم (وفي أحيان كثيرة مفهومة فقــط لمحيط ضيق من أبناء القبيلة)، ومن كلام أحمد تيسر لي تدوين عدة أشعار رباعية، لــم

يكن باستطاعتي لوحدي فك رموزها أبدا"، وهاكم رباعيتان متبادلتان بين رجل متزوج فتى، يحاول إغراء فتاة أعجبته، الفتاة من جهتها توبخ بجدارة شريكها في الشعر سيء الحظ.

هذا هو يقول للفتاة:

اجرنهي لايمكن أن يشبع
إلاّ بعشائين أثنين
واذا ما في بطنه مغص
فعشر سمكات

والطريف أن السقطريين حينما يخاطبون الفتيات يسمون أنفسهم بأسم ((أجرنهي)) ولايقولون " أنا " وربما أن مثل هذا الحديث المكشوف مع الفتاة غير ممكن في أية بلاد إسلامية، ومع ذلك فسقطرى تقدم مثلا" مدهشا" في الجمع بين نزعة المحافظة على القديم والإستقلالية والكبت التام للمرأة وإلى جانب ذلك موقعها الرئيسي في الأسرة.

إن الشاب اليافع يقول للفتاة التي أعجبته إنه لاتكفيه إمرأة واحدة وإنما يلزمه " عشائين " أي إمرأتين والآ فإن " بطنه " لاتشبع. وتجيب عليه الفتاة:

إنك لن تقطع هنا رأس الخروف
ولن تفلح هنا
إذا لم تشبع في بيتك
ولم تجن ثمار نخيلك

وهذا هو إعتراض تهكمي ساخر وحازم على مكائد زير النساء، ولكن فهم هذه التلميحات من إمكانية السكان المحليين فقط.

وهذه هي رباعية يحاول سكان القرية من خلالها تأنيب اللص الصغير من قبيلتهم:

ياللعار للرأس الأسود الكبير
مع الشعر المتموج
يطل الصباح وتغرب الشمس
وأنت ماتزال حبيس غرفة صغيرة

إن الرأس الكبيرة مع الشعر الأسود الكثيف هي علامة وسامة الشباب، وهو كما يبدو متابع للموضة، أي إن شعره يتدلى بتموجات وكأنه إمرأة، ولكن طالما أنه لص طويل اليد فإنه يجب عليه الإختفاء غالبا" في مغارة صغيرة حتى لايجده أصحاب القرية التي يهابها.

كما هي هامة إحدى الحكايات ذات المغزى، دونتها بعثة اكسفورد من كلام سكان الجزيرة:

((- ياهو!- قال الجمل للعصفورة التي مرت في الطريق.

- ياهو!- أجابت العصفورة الصغيرة.

- ياله من مطر غزير هطل -قال الجمل- إن هذا شيء حسن فبعد المطر ستخضر الحسك وتغدو لذيذة، وكيف حالك أنت؟

- جيدة- ردت العصفورة الصغيرة، رغم إنها تشكو مرضا" خطيرا" في بطنها وكانت حزينة لأن الطبيب سافر إلى عدن -جيدة، ولكنني خائفة أن يكون الله قد غضب علي وأرسل لي المرض، وأعتقد أنني سأتعالج غدا" في عدن.

- الله قادر على كل شيء- قال الجمل ومضى في سبيله. سار الجمل متعبا" في الوادي الجاف طوال الصباح، وصعدت الشمس عاليا" وغدت حارة جدا"، وهو هكذا لم يجد ولا حسكة واحدة، رغم إن السماء قد أنزلت مطرا" غزيرا" في الليلة السابقة، وعندها إستلقى تحت صخرة وأخذ يحلم بالنوق وبالحسك.

وعندما اعتدلت الحرارة سار الجمل من جديد في طريقه، لم تمض ساعة إلآ وكان قد رأى في وسط الصحراء أشواك الجمل وحين إقترب منها تبين أن العصفورة الصغيرة قد بنت لنفسها عشا" على أغصانها.

- ياهو!- قالت العصفورة الصغيرة- إنك لاتستطيع أن تأكل هذه الشجرة.

- أنا جوعان- إعترض الجمل- وعلى مسافة مائة ميل من حولنا لاتوجد ولاشجرة واحدة في أية مكان.

- خمسة شلنات- قالت العصفورة الصغيرة. وأشترى الجمل الشجيرة والتهمها.

وبهذه النقود إستطاعت العصفورة أن تتجه إلى عدن في زورق كبير جميل، وهو ما أنقذها من عناء الطيران إلى هناك. كانت هذه عصفورة كبيرة ذكية لأن تلك الشجيرة تعود ملكيتها لأبن عمها الذي كان بعيدا" في مسقط ".

ويمكن أن تفيد كثيرا" في دراسة تاريخ واثنوغرافيا اليمن، أسماء القبائل السقطرية التي لازالت باقية منذ الأزمنة القديمة. وغالبا" ماتنتهي أسماء القبائل بنهاية (هو) التي تتبع نهاية الجمع، على سبيل المثال الشخص الذي ينتمي إلى قبيلة مرافقنا عامر، يلقب بـ دعرهي والقبيلة نفسها تسمى دعرهو، وهاهي أسماء بعض القبائل الجبلية:

اسمهو، شعرهو، حرمقهو، عربهو، حمرهو، قعرهو، العميريو، قشن.. الخ

ولاتقل أهمية للبحث والتحليل أسماء السقطريين وهاكم بعض الأسماء الرجالية:

طنوف، عبلس، تمنك، فيدد، نيحح، فنطس، صيل..الخ.

انتهت رحلتنا في جبال حجهر في دعرهو، موطن عامر، حيث وصلناها مساء" متأخرين بعد يوم مضن في الطريق.

إستقبلنا هنا سعيد، أحد شيوخ القبيلة، وبعد التحايا الطويلة وملامسة الأنوف والعناق يقدمني عامر ومرافقينا لسعيد، ثم تبدأ الأسئلة لأن عامر منذ مدة طويلة لم يكن بين قبيلته:

- هيا، كيف، هل حصلتم على محاصيل التمور الآن؟
- الحمد لله، يوجد القليل، يجيب العجوز.
- وهل نزل المطر؟
- لله الحمد وقع مطر.
- وهل نبت الآن الزاد (أعشاب تقتات عليها الماشية المؤلف)
- إذا قدر الله فستجد الأبقار ما تأكله غدا"، يقول سعيد.

- وهل مواليد الماعز جيدة؟ يواصل السؤال عامر.
- بين المواليد فقط مواعز قليلة.
- للأسف -يرق عامر- يعني أن عدد صغار العنزات لم يزداد؟ وهل نفقت أغنام أو مواعز؟
- لله الحمد، في هذا العام نفقت فقط أثنتان.
ياه، ياه، كأنما يطقطق العجوز، وهذا تعبير مختصر لـ " يامحمد! " وهو يتوسل بأسم رسول الاسلام كي يتوقف نفق المواشي عند حدود الغنمتين، لأنه عندما تقول ان مانفق الا القليل يمكن ان تصاب بأعينها! ومحمد يساعد من الأصابة في العين.
كنت أعرف أنه إذا ما كانت جائحة المواشي كثيرة (لأية سبب) فإن الجبليين يذبحون عدة خرفان ومواعز كقربان لله ، ولكن هذا العام كان موفقا".
- يعني، ان المطر نزل؟ أعاد السؤال مرافقنا.
- إن شاء الله، وان لاينقطع حتى الشتاء نفسه.
- وكيف التمور، هل نضجت؟
- لله الحمد.
- وكم قد جمعتم؟
- يوجد لدينا خمس قرب، الله كريم، أحسن من لاشيء.
- وكيف الجيران، هل وقع عندهم مطر وهل جنوا التمور؟
- إلخير مع الجميع، الحمد لله- يؤكد سعيد.
اتنفس أنا أيضا" براحة، وكان من حسن الحظ إننا وصلنا إلى القرية في موسم الخير ولم نسلب مضيفينا آخر قطعة خبز.
يجتمع الأقارب وأبناء قبيلة عامر ويصطحبونا إلى المرج حيث نجلس قرب شعلة نار تضرم ألسنتها رغم رذاذ المطر الخفيف، وهنا يذبحون ماعزين إحتفاء بقدومنا.
بعد قطع رقبة الماعز يخلعون عنه الجلد. إن سلخ الحيوان، فن كامل، ويجيد الجبليون هذا الفن بكامل الأتقان، ويفصلون الجلد عن الجسم بسرعة خلال بضع دقائق، أما جلد الأبقار فيخلعونه بطريقة تختلف عن الماعز والضان، وبعد دباغة جلود الحيوانات الكبيرة تستخدم بمثابة مفرش، ومن جلد الخروف أو الماعز يصنعون القربة، ولذلك فإنهم يخلعونه كما تخلع " الجوارب" وحتى لتسمية العملية التي بمساعدتها يخلعون جلد البقر أو الماعز توجد في اللغة السقطرية أفعال مختلفة (جزهل) وتعني " خلع الجلد عن البقرة "، و (دحش) "خلع جلد الخروف أو الماعز ".
بالقرب منا تتدفأ بجانب النار عدة جمال تعود ملكيتها لأبناء قبيلة عامر، والجمل السقطري حيوان عجيب يتكيف بصورة رائعة على صعوبات طبيعة موقع سطح الأرض والطقس، وهو قوى، إلآ انه ليس صبورا" مثل نظيره العربي، وفي الطقس الحار والجاف يتم سقيه كل يوم، ومع ذلك فهو راسخ القدم على غرار الماعز الجبلي، ويستطيع بدون عناء صعود الجبال على ارتفاع يصل إلى ألف متر، ولكن في التربة الموحلة والمبللة فإن الجمل يفقد ثباته المعتاد، لأن باطن أقدامه العريضة تطأ في الوحل

وعلى الصخور المبللة الملساء السطح بصورة رديئة، وفي المطر الشديد فإن الجمل قد ينزلق ويهوى أو يذهب في مهب الريح.

إن الضان والماعز والجمال، حيوانات يستخدمها الإنسان هنا لمختلف الأغراض. فالضان والماعز تعطي اللبن واللحم والصوف والجلود، فمنها إذن يعدون المأكل والملبس، ولاغرابة أن يطلق الجبليون في أحيان كثيرة أسماء خاصة على النعجات والعنزات، لاسيما الولودة. ويمكن ملاحظة كيف ينادي الجبليون حيواناتهم بتعبير واضح مطقطقين بألسنتهم وفي الوقت ذاته يطلقون أصوات حلقية مغرغرة.

ولايقل عن ذلك إستخدام الجمل للأغراض المتعددة، ولاينافسه هنا في جبال سقطرى سوى الحمار فقط، ويهاب أهل الجزيرة الإفراط في حمولة الجمل أكثر من المعدل، أو إنهاكه للغاية، ومجمل عفش الحمولة لايتجاوز عادة ١١٠-١٢٠ كغم، رغم ان الحيوان قادر أن يحمل اكثر من ذلك، وتعتبر الناقة اكثر تحملا" من الجمل الذكر. وتمرين القعود على نقل الأحمال يبدأ من العام الثالث ولكنه بكامل قواه يبدأ فقط من العام الخامس أو السادس، ويعمر الجمل طويلا"، وفي الظروف الجبلية يمكن ان يعيش أربعين عاما" الى خمسين عاما" . ولكن عمله ذو القيمة الكاملة يظل حتى الخامسة والثلاثين وربما أقل من ذلك .

قرية دعرهو لاتشابه القرى التى رأيناها في المناطق الجبلية الاخرى ، الكهوف والبيوت المشيدة من الصخور ، تتباعد بعضها عن بعض بمسافة كبيرة ، ولذلك لاتتبين تقريبا" ويصعب تحديد حجمها، ولدى كل أسرة مرعاها المحدد ولكن الناس غالبا" يساعدون بعضهم البعض. والفارق في مستوى المعيشة هنا ليس كبيرا"، وغير ملحوظ في الواقع، رغم إن بعض الأسر تملك من ثلاثمئة إلى أربعمئة من الضان والماعز.

إن بدو سقطرى لايعرفون الساعات، وهم يقيسون الوقت بطول الظل، الذي يلقيه الإنسان في هذه الفترة أو تلك من اليوم. هكذا، فهم يقولون: " أنا صليت حين كان الظل أربعة أقدام، خمسة أقدام ".. الخ، والطريف إن تقسيم اليوم اكثر تفصيلا" عما هو لدى كثير من الشعوب الأخرى. يبدأ اليوم مع (مصيبحين) أي الصباح، وهي فترة معينة من الوقت، تقريبا" من الساعة الرابعة وحتى السادسة صباحا" مع الشروق، بعد ذلك يتبع (الصبح) أي الصباح. الوقت من التاسعة والنصف صباحا" وحتى منتصف النهار يسمى (متوقهر) بعدها يأتي الظهر، ومن منتصف النهار وحتى الساعة الرابعة أو الخامسة يسمى العصر ثم يأتي المغرب وفي أثنائه يحل الظلام بالتدريج، وما أن يتكثف الظلام حتى يبدأ العشاء، مع الساعة السابعة والنصف مساء" ويستمر حتى يسود الظلام الحالك بالكامل، وحينها يحل الليل الذي يسميه السقطريون (حتا) ومنتصف الليل يعرف عندهم (نص حتا).

يومان من الضيافة لدى الجبليين في دعرهو يمران بسرعة غير ملحوظة، وأنا أدون اللغة السقطرية التي سيكون علي التعامل معها كثيرا" فيما بعد، وأتحدث مع السكان المحليين، وأسألهم عن حياتهم وعن إقتصادهم وأتعرف على طقوسهم وتقاليدهم، إن كهوف وبيوت أهل دعرهو المكونة من الحجارة، تبدو خالية تقريبا"، وكل

أثاث سكان هذا المكان يتكون من القدور الفخارية وجلود الماعز والضان وكذلك الألحفة النسيجية.

ويحل يوم العودة إلى حديبو، توادعت مع أبناء قبيلة عامر، أما هو فسيعود معي ومن جديد يترك زوجته وأولاده الخمسة، وبأعتزاز يعرض عامر لأقربائه الهدايا المستلمة: ترمس وعلبة كيلو جرام من الشاي.

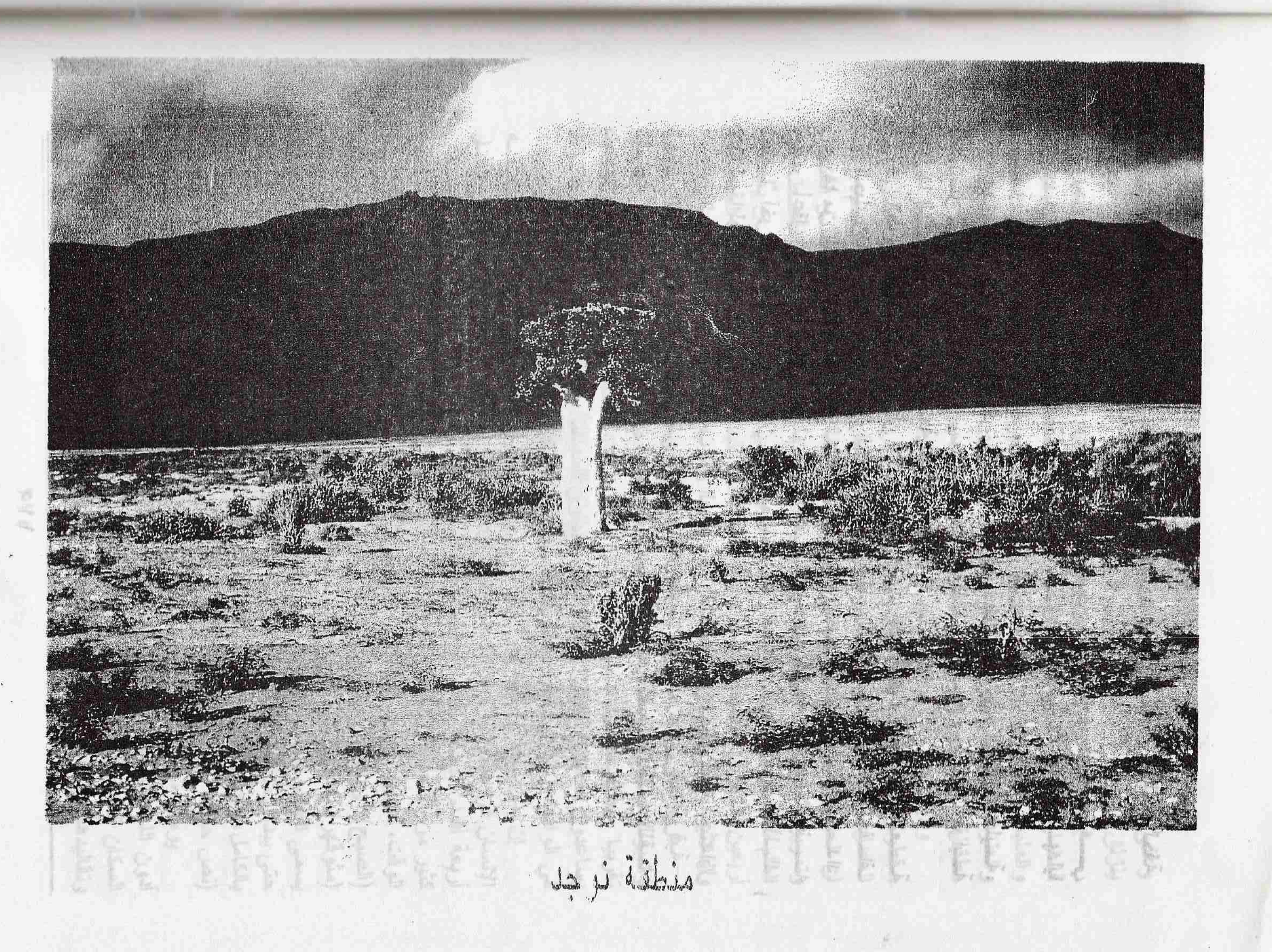
أريد الذهاب إلى هناك مرة أخرى أيضا"، للتعرف أفضل على حياة القبائل المحلية، فلم يتيسر لي أن أعرف طبيعة مؤسساتهم القبلية، ووظائف الشيخ وروابط القرابة وغيرها الكثير من المجالات الواسعة للبحث.

في الطريق أوضح لي عامر ان " المقدم " أي زعيم القبيلة يقوم بمهام متواضعة لدى الجبليين فهو يحل المنازعات والمشاحنات بين أبناء القبيلة في حالات الجفاف وغيرها من الكوارث الأخرى وفي الحياة الأسرية، وهو يجسد تراث ووصايا الأجداد، ويعتبر أعقل رجل في القبيلة، وإذا لم يحسن القيام بدوره فإن القبيلة تختار بدلا" عنه شخصا" آخر. لكن كيف يتم ذلك، فإن عامر لم يتمكن من إيضاحه أو انه لايريد ذلك، لأننا لسنا لوحدنا.

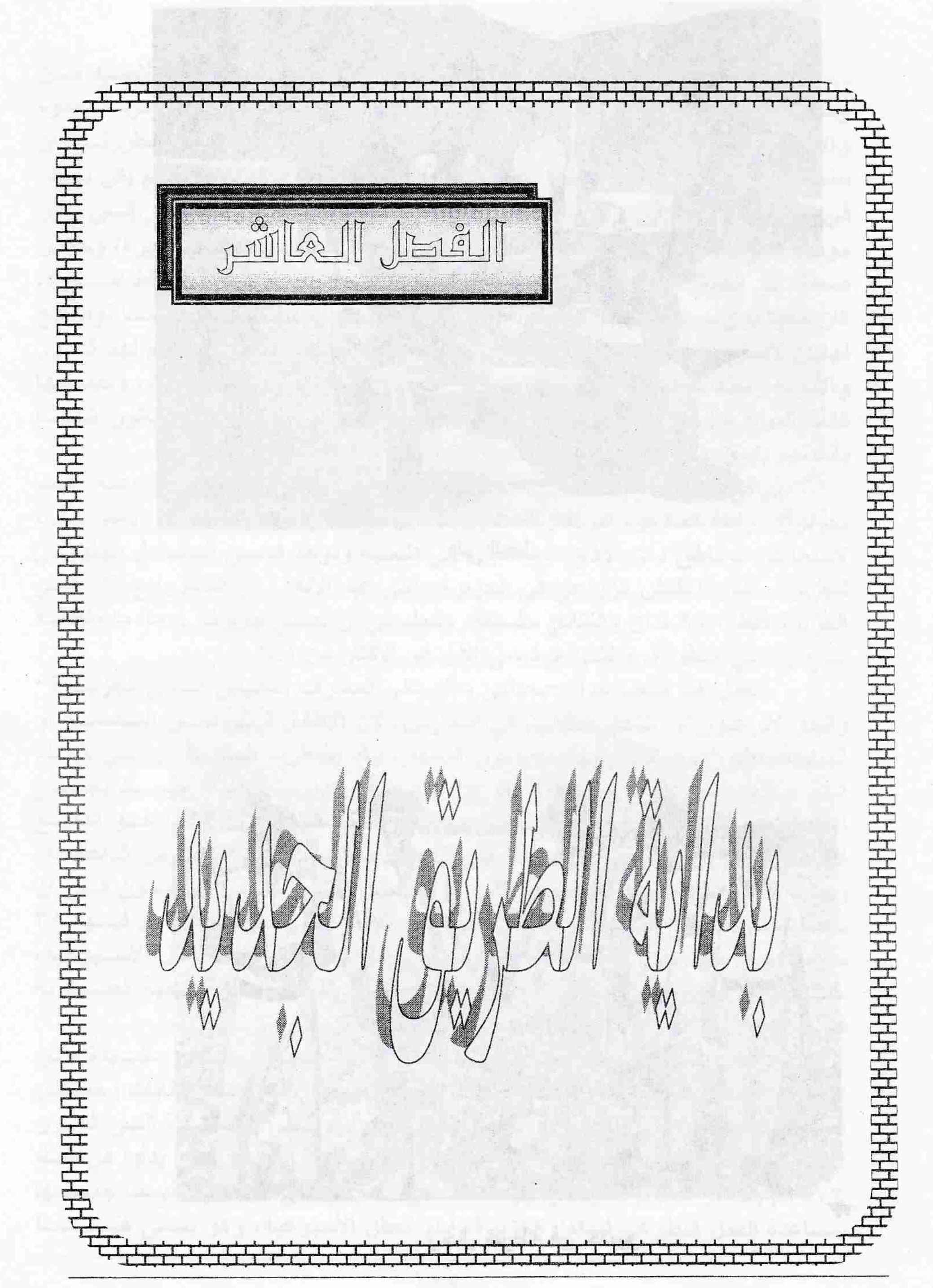
إن الهبوط، على الأرجح، أصعب من الصعود في الشعاب التي تجري فيها الجداول الجبلية الصافية الرقراقة. أجلس على صخرة وأتأمل طويلا" في قمم حجهر اللازوردية-القمحية اللون، والمكسوة بغطاء من السحب الرمادية، وأقول في نفسي: " إلى اللقاء ياحجهر، سنلتقي من كل بد ".



المؤلف مع أحد الجبليين – في جبال حجهر

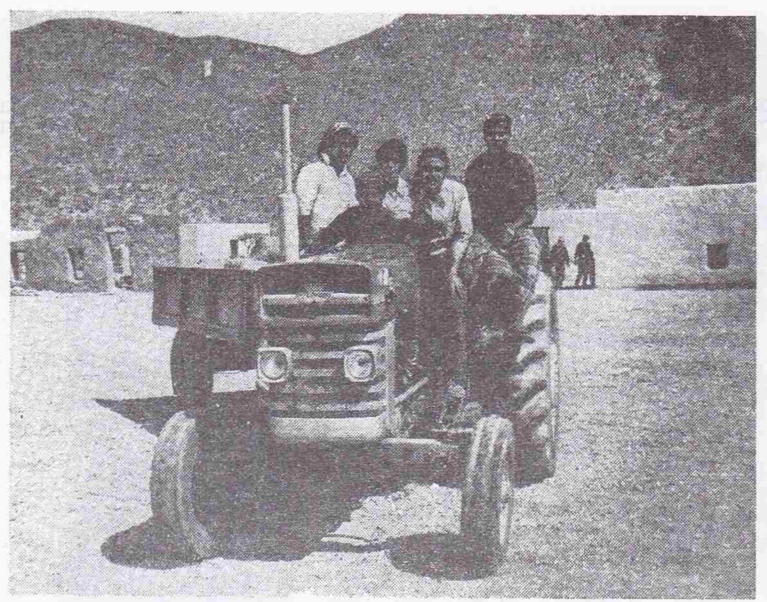


منطقة نرجل

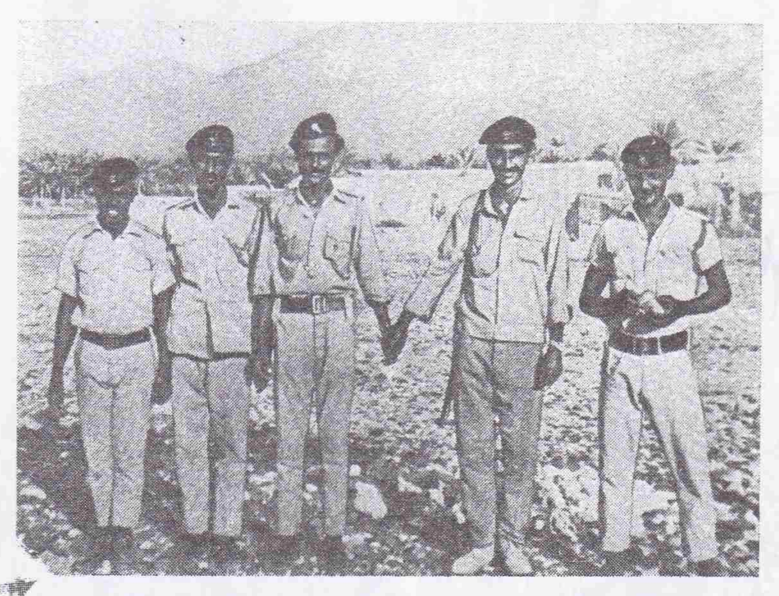


الفصل العاشر

بداية الطريق الجديد



إلى العمل



رجال شرطة في حديبو

حتى العام ١٩٧٣م لم تتغير الحياة في سقطرى تقريبا"، ولإعادة البناء لابد من وسائل كثيرة وكوادر، ولدى الجمهورية اليمنية الفتية بما فيه الكفاية من الهموم والأشغال. قال لي محافظ الجزيرة: " عندما وصلنا إلى الجزيرة لأول مرة إضطررنا أن ننتقل من المطار إلى حديبو مشيا" على الأقدام أكثر من ثلاث ساعات، لأنه لم يكن يوجد في الجزيرة حتى طريق واحد للسيارات، وحين ذهبنا أول مرة من حديبو إلى رأس مومي - في الطرف الشرقي للجزيرة (هذه الطريق أخذت منا ساعات كثيرة) وحين صعدنا إلى الجبال ما إن شاهدنا السكان المحليون حتى هربوا منا، وبقيت فقط إمرأة، كان معها بين يديها طفل مريض، ولذلك لم تستطع الهروب مع الجميع. أخذنا نوضح لها ان لاضرورة للخوف منا، وإننا كذلك بشر مثلهم جئنا لنساعدهم، وسنقدم لهم الرز والأدوية وسنعالج طفلها، ونبني في الجزيرة الطرق، المدارس والمستشفيات، وحينها كانت المرأة أول من صدقتنا، أما الآن فإن الجبليين لايهربون منا، بل انهم يأتون إلينا بأنفسهم بهمومهم ومشاكلهم " .

تم في الجزيرة إنشاء أولى القطاعات التجريبية لأنبات المنتوجات الزراعية. هنا يجربون زراعة المانجو، البرتقال،الخضروات، البطيخ، البرسيم وغيرها من الأعشاب، لاسيما في المناطق ذات الآفاق المستقبلية في قلنسية ونوجد في الساحل الجنوبي للجزيرة، أشار المفتش الزراعي في الجزيرة، علي عبد الإله: " ان المزروع الآن في الجزيرة فقط ٩٠٠ فدان والنتائج مشجعة، ونحلم في أن تصبح جزيرتنا يوما" ما منطقة إنتاج زراعي متطورة، والشئ الرئيسي الآن هو الأكثار من الآبار ".

" العمل هنا صعب جدا" -يحدثني سالم علي المشرف التعليمي في الجزيرة- والبدو لايرغبون ان يلتحق أطفالهم في المدارس، لأن الأطفال في سن السادسة أو السابعة يحلبون ويرعون البهائم ويربون الصغار، وقد إضطرت الحكومة أن تبني لأبناء البدو- الذين ليس لديهم أي تصور بعد عن المدرسة- مدارس داخلية، حيث يجتمع الأطفال من القرى النائية، وهناك يتعلمون ويأكلون مجانا"، ولازال هذا هو الدافع الرئيسي الذي يقنع البدويين للموافقه على إلتحاق اطفالهم في المدارس الداخلية. وحاليا" بدأت علاقة البدو بالمدرسة تتغير الى الأفضل، وكثير منهم يرغبون في أن يحصل أبناؤهم على التعليم، وإلى الآن توجد في الجزيرة ١٤ مدرسة يعمل فيها ٣٨ مدرسا" جاؤا من عدن، وجميع المدارس بنيت بالعمل ألطوعي، أثناء العطل الأسبوعية، حيث يشارك في العمل كل سكان الجزيرة وأفراد القوات المسلحة من الحامية العسكرية في الجزيرة ".

إن هذه المدارس متواضعة من حيث شكلها، فهي ببساطة عنابر مشيدة من الحجارة المثبتة بالنورة، ولكن ما أن تعرف الجهد المبذول لأنجاز هذه البنايات وحماس الناس الحريصون على نقل سكان الجزيرة من القرون الوسطى مباشرة إلى القرن العشرين لاتملك إلآ أن تتعجب وتنذهل لقدرة نشطاء الجبهة القومية الذين بدأوا في عام ١٩٧٣م بتطوير الجزيرة، وتكمن روعة المباني المدرسية في كونها بنيت جميعها بمساعدة العمل التطوعي لسكان الجزيرة، أيام العطل الأسبوعية، وهو يسمى هنا

" مبادرة" وهكذا بمساعدة " المبادرات الجماهيرية " يشقون أيضا" أولى الطرق في الجزيرة.

تحدثت مع واحدة من النساء المشاركات في المبادرة هي فتحية، ذات الوجه المستدير والأسنان البيضاء والبشرة البنية، وتدمدم من حولنا، في غيمة من الغبار، الأحجار المنزوعة من المنحدر، فسكان حديبو يستكملون شق طريق موري- حديبو. حتى ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧م عندما طرد المستعمرون الإنجليز وعملاؤهم من جنوب اليمن، كانت فتحية جارية للسلطان بن عفرار الذي حكم كسلطان للمهرة وسقطرى.

- كل أجدادي كانوا عبيدا" -تتحدث فتحية- ويقال إن تجار العبيد جلبوهم منذ زمن بعيد من شرق أفريقيا، وأنا طوال الأيام نقلت الماء من البئر وخدمت زوجات السلطان، وحين لايكون السلطان راض عنا كانوا يضربوننا بالسياط، ولايسمح بزواجنا إلآ على العبيد، وحتى هذا كان يتم غالبا" بأمر السلطان، وكان محكوم على أطفالنا البقاء عبيدا".

من الصعب التصديق أنه قبل أكثر من سبع سنوات وجدت هنا العبودية، أن الجارية السابقة فتحية حاليا" عضوة في اللجنة النسائية في الجزيرة، وتساهم بنشاط في الحملة من أجل تحرر المرأة التي تقودها منظمة الجبهة القومية، وتشارك النساء الأخريات أيضا" في " المبادرات الجماهيرية " والمساهمة في حلقات محو الأمية والإستماع إلى محاضرات التوعية، تقول فتحية:

- إننا نريد أن يتعلم أطفالنا ويصبحون أطباء ومهندسين، ولذلك فقد بنينا في حديبو بأيدينا مدرستين.

وبفضل التدابير السريعة الخاصة بتطوير الجزيرة، إبتداء من عام ١٩٧٣م، إزدادت أعداد التلاميذ من ٢٥٠ تلميذا" في عام ١٩٧٣م الى ١٥٠٠ تلميذا" عام ١٩٧٤م.

إن إقناع البدو بإلحاق أطفالهم في المدرسة الداخلية أمر لايتحقق بسهولة. ففي الكفاح الشاق من أجل البقاء تعتبر الأسرة الجبلية ان كل طفل يد عاملة، ومحمد ابن عامر درس في المدرسة في حديبو، لكنه هرب قبل فترة الى الجبال وقد سألت الطفل:

- ألا تريد أن تصبح مهندسا" أو طبيبا"؟

- نعم أريد، ولكن كيف يمكن العيش كل الأوقات في البيت؟ حتى يوم الجمعة لايمكن الجري في الجبال، أنا لا أستطيع الحياة في " المدينة "- هكذا أوضح محمد.

إن الحياة في السهول، في القرية الكثيرة السكان والمملة، بالنسبة للطفل الذي إعتاد على الحياة الحرة في الجبال، مستحيلة على الإطلاق.

في القريب سيتم في الجزيرة إفتتاح أول مستشفى وهو أول مبنى عصري في الجزيرة، بجانب المبنى يقف رجل عجوز حافي القدمين بعمامته الكبيرة، مستندا" على عصاه ومستغرقا" في التفكير بشيء ما، كأنما جاء من صفحات " الف ليلة وليلة"، كانت صحة العجوز حمدينو رديئة، وهو يتخيل منذ مدة طويلة كيف سيضعوه على سرير لم

يراه أبدا" قط، ومن فوقه تعمل مروحة كهربائية تأتيه بالرطوبة المنعشة، وحتى الآن فإن الكهرباء في الجزيرة لم توجد بعد.

تبدي منظمة الجبهة القومية نشاطا" كبيرا" في كل شيء يبدأ في الجزيرة، ومؤخرا" عادت إلى الجزيرة أول مجموعة من السقطريين الذين أنهوا الدراسة في المدرسة العليا للعلوم الأجتماعية في عدن. وتقف أمامهم مهام صعبة، إثارت الحماس للأفكار العصرية التقدمية بين الناس الذين إنتقلوا فقط مؤخرا" إلى الحياة العصرية.

وتعطي قيادة البلد أهمية كبيرة لدراسة ثقافة وعادات ولغة السقطريين، وحقيقة انه مع تطور الجزيرة ستختفي الكثير من عادات وتقاليد السقطريين التي تكتسب أهمية كبرى للعلم، وسيتغير نمط حياة السقطريين، ولهذا لابد من الأسراع في عمل كهذا، يقول نائب وزير الثقافة والسياحة (ج. ي. د. ش) محمد عبدالقوي:

– ليس عبثا" أن تسمى سقطرى بـ " درة البحر العربي " وفي الوقت الراهن تشهد الجزيرة الكثير من التغييرات وتدخل الحضارة لأول مرة في الحياة نصف البدائية لسكان الجزيرة، وسيتم نقلهم من مرحلة التخلف الى عصر التقدم الإجتماعي، ونعتقد أن كل الأبحاث والدراسات للجزيرة في الوقت الحاضر تمتلك أهمية خاصة لأن الحضارة الجديدة لم تطمس بعد ماله أهمية للعلم.

ولكن حكومة ج. ي. د. ش لاتعتزم المحافظة على تأخر وتخلف سقطرى خدمة للعلم، إن أهم مساعدة للسقطريين هي إيجاد السعادة الحقيقية وتحقيق الإزدهار.

قال لي سكرتير اللجنة المركزية للتنظيم السياسي الموحد الجبهة القومية عبدالله باذيب، الذي ترأس خلال سنوات عديدة وزارة الثقافة والسياسة، إن قيادة البلد تعلق آمالا كبيرة على سقطرى، ليس فقط كمنطقة إقتصادية ذات آفاق مستقبلية، ولكن أيضا" على طبيعتها التي تجذب السواح من مختلف أنحاء العالم، ويظل بناء مجمع سياحي في سقطرى مهمة حيوية للغاية بالنسبة للسكان المحليين.

تلعب مساعدة الأتحاد السوفيتي والبلدان الإشتراكية الأخرى دورا" كبيرا" في تطور اليمن الديمقراطي، ويعمل في الجمهورية المستشارون والجيولوجيون والبناؤن والأطباء والخبراء الزراعيون وكثير من المتخصصين، ولقد أشارت قيادة البلد اكثر من مرة إلى اهمية المساعدة التي يقدمها الإتحاد السوفيتي لتطوير الدولة الفتية.

ولم تبق سقطرى خارجة عن إطار التعاون المثمر بين البلدين. ففي شق الطرقات هنا عملت الآلات السوفيتية وتواجد الإختصاصيون السوفيت في تربية المواشي، التي يعد تطويرها مهما" لاقتصاد البلاد، وقد شيد في الجزيرة أول مركز للطب البيطري وقريبا" سيبدأ العمل به ولن يقلق السقطريون اكثر من الأمراض التي تفتك بأغنامهم. قال محافظ الجزيرة:

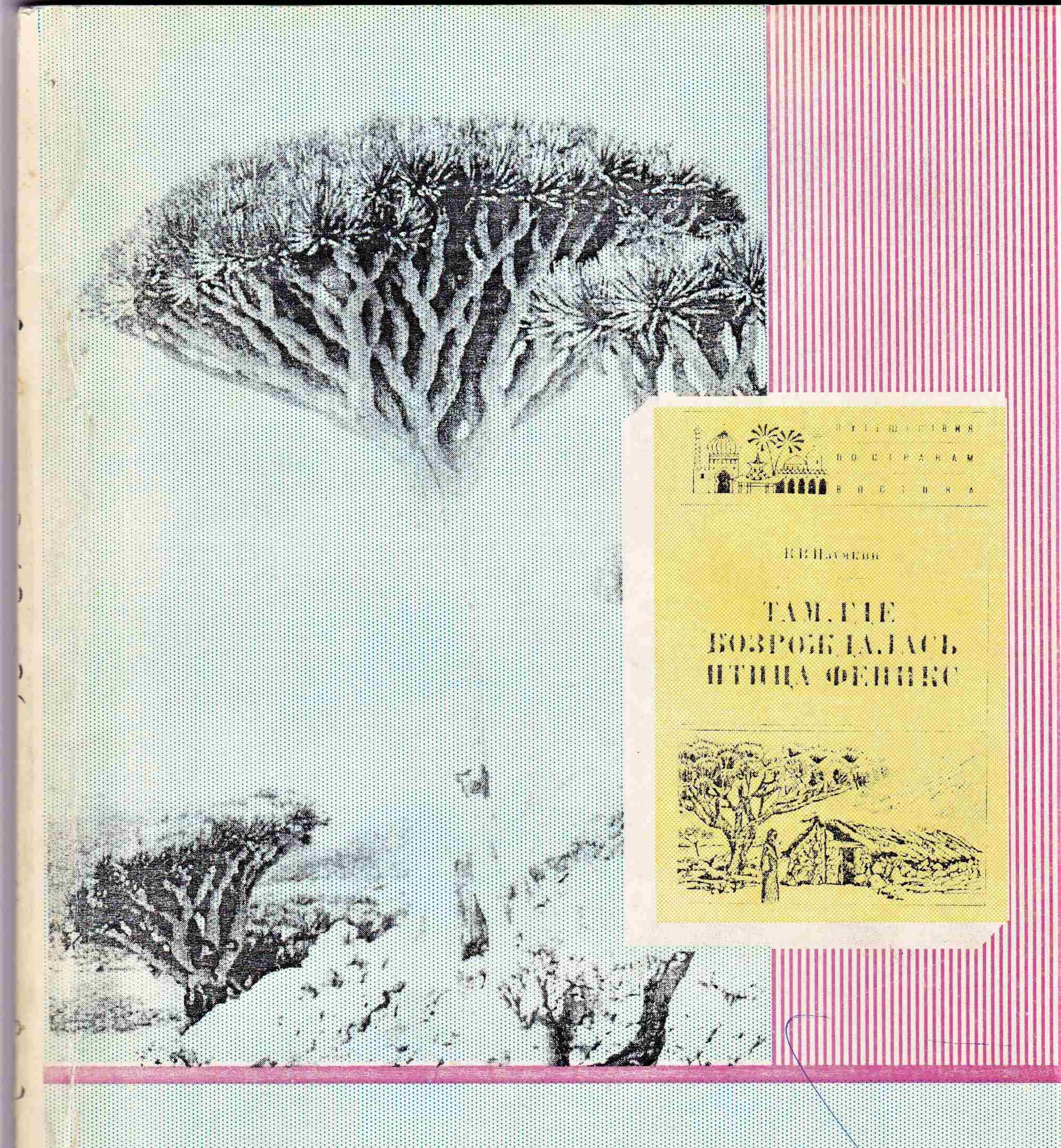
– إن نتائج تجاربنا الزراعية الأولية مشجعة، وهنا يمكن أن تنمو بشكل جيد الخضروات، الذرة، المانجو، الليمون والبطيخ، ويقولون إن سكان السهول زمن البرتغاليين مارسوا الزراعة، ولكن إنتقال الصيادين ومربي الماشية السقطريين الآن الى الأراضي لزراعتها أمر ليس سهلا".

ومع ذلك فأنا على يقين إن هذا سيحدث، ولا يمكن إلآ الثقة بالمستقبل عند رؤية حيوية وحماسة السقطريين الشباب وأولئك الذين جاؤا لمساعدتهم في بناء الحياة الجديدة، وعند مشاهدة النجاحات الأولية للجمهورية الفتية السائرة بحزم في طريق التقدم وكنس المخلفات المشؤمة للماضي الإستعماري، ويظل على هؤلاء الناس عمل الكثير والكثير للسير في طريق التقدم، ومع ذلك فالوقت يعمل لصالحهم.

في يوم من آخر أيام تواجدي في الجزيرة شهدت إفتتاح طريق حديبو- موري، الآن يمكنني السفر الى المطار على السيارة. لقد عمل سكان حديبو والقرى المجاورة لها والعسكريون من الحامية العسكرية على شق الطريق وانجازها خلال أيام العطل الأسبوعية.

وهاهي طائرتنا تأخذ في الارتفاع،وتقوم بأخر دورة لها حول موري، أنظر إلى الأسفل مودعا" أدغال التمور الخضراء في القرى الساحلية، والأماكن الرملية الصفراء الضحلة في خور حديبو، مع قمم حجهر المتدثرة بالغيوم الرمادية الزرقاء.

المحتويات



دار جامعة عدن للطباعة والنشر ١٩٩٩م